دكتور ناصر الأنصاري

المُجمل في

تاريخ مصر



النظم السياسيّة والإداريّة

دار الشروق

المجمل في

تاريخ مصر

النظم السياسية والإدارية

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م

أستسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

دكتور ناصر الأنصارى

المُجمل فى

تاريخ مصر

النظم السياسيّة والإداريّة

دار الشروق

المقـــدّمَة

مصر ـ كما يكاد يجزم العلماء ـ هى أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر . والمقصود هنا الدولة بمفهومها القانونى ، أى بعناصرها الثلاثة ، أرض وشعب وحكومة .

فعلى مدى أكثر من خمسة آلاف عام وجُدت مصر بحدودها الجغرافية المعروفة الآن واستمرت ، وعاش على هذه الأرض شعبها وكانت لها حكومتها دون انقطاع فى أى من حقب تاريخها .

قد يكون هناك شعوب أو قبائل عاشت فى أماكن أخرى من العالم القديم كالحضارات الآسيوية فى الهند والصين وقد يصل تاريخها إلى عشرين ألف سنة ولكنها لم تكوّن ما يمكن أن نسميه دولة وحتى إذا وجدت فهى لم تستمر كالدولة المصرية ، كما أنها أيضاً قد تثير بعض الشك من المنطق العلمى البحت ذلك أنها لم تترك لنا ما يساعد على تأكيد تاريخها علمياً ، على العكس تماماً من الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) التى وصلت إلينا اعتماداً على نصوص موثقة ومكتوبة سواء فى بعض البرديات أو على جدران المعابد القديمة ..

ولقد كان تاريخ مصر الطويل وسوف يظل دائماً يشد الدارسين والباحثين والمفكرين ويبهرهم .. ورغم كثرة ما كتب عن هذا التاريخ من علماء العالم بشتى الجنسيات وبمختلف اللغات فإن تربة مصر مازالت خصبة للباحثين والمؤرخين .

والمكتبة العربية غنية بما كُتب عن مصر فى مختلف حقبها ولكنها فى الوقت ذاته لا تضم كتاباً واحداً يضم بين دفتيه التاريخ المصرى مجملاً منذ توحيدمصر على يد « مينا » موحد القطرين إلى يومنا هذا . فنجد المؤلفات عن حقب مصرية كالحقبة الفرعونية بل وأجزاء منها أو بعض دولها ونجد تفصيل آخر فى حقب أخرى كفترة

الحكم البطلمي أو الروماني أو الطولوني أو الفاطمي وهكذا ، وهى كتابات متعمقة ومتخصصة فى فترات معينة أو فى علوم معينة .

ومن هنا نبتت فكرة هذا الكتاب ليخدم القارئ الذى يود الاطلاع على تاريخ البلاد جملة واحدة دون اللجوء إلى الكتب المتخصصة فى كل حقبة تاريخية .

ومن الأمور التي شجعتني على هذا العمل هو النجاح الجماهيرى الذى حققه كتابي الأول « موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم » فقد أعيد طبعه أربع طبعات فى أربع سنوات متتالية بحمد الله ، وهو يكاد أن يكون سجلاً جامعاً شاملاً لحكام مصر فى جميع الحقب التاريخية التي مرت بها ، وهو فى مبلغ علمي عمل غير مسبوق ، ومن ردود الفعل لهذا الكتاب أن طالبني كثير من القراء بالقيام بعمل آخر يكون سجلاً جامعاً للتاريخ المصرى دون اسهاب أو تفصيل .

وقد رأيت أن أتعرض فيه للتاريخ العام لكل حقبة بلمحة تاريخية تضم أهم الأحداث المؤثرة عليها ثم أتبعها بدراسة عن النظم السياسية والإدارية والتى هى وثيقة الصلة بالعرض التاريخى لأنها قد تكون مؤثرات أو نتائج لتلك الأحداث .

وقبل الخوض فى التفاصيل التاريخية فإن هناك بعض الأساسيات التي يجب عرضها عن مصر .

مصر والموقع الجغرافى ..

تقع مصر فى الطرف الشمالى الشرقى للقارة الأفريقية ويقع جزء منها وهو شبه جزيرة سيناء فى الطرف الغربى من آسيا وهى بذلك تكون الدولة الوحيدة فى العالم التى تشغل مساحتها جزء آسيوى وجزء أفريقى ، ومن الدول المعدودة فى العالم التى تقع أراضيها على قارتين .

ومساحة مصر حوالى مليون كيلو متر مربع وتشغل مساحتها شكل يكاد يقترب من المربع المتساوى الأضلاع ينحصر بين خطى عرض ٢٢° و٣١° شمال خط الاستواء وخطى طول ٢٥° و٣٧° شرق جرينتش .

وتطل مصر على أعظم بحرين فى العالم هما البحر المتوسط والبحر الأحمر وبمسافات طويلة . ويتوسط مصر نهر النيل أحد أطول نهرين فى العالم .

وقد اثر هذا الموقع الجغرافى المتوسط بين أوربا والشرق وبين أفريقيا وآسيا على تاريخ مصر أحياناً بالإيجاب وأحياناً بالسلب .

اسم مصر ..

ورد اسم « مصر » هكذا فى النصوص المسمارية والعبرية والآشورية وكذلك فى القرآن الكريم .

بينما فى النصوص المصرية القديمة كان اسمها « كيم » "KEM" وترجمتها بلاد الأرض السوداء أى الأرض الخصبة .

وعندما تعامل الاغريق مع الدولة المصرية القديمة أطلقوا عليها نفس الصفة أى الاراضى الخصبة أو السوداء فاسموها « إجيبتوس » وهو الاسم الذى اشتق منه اسم مصر الحالى باللغات الأجنبية EGYPT.

مصر والأديان السماوية ..

كان الإيمان بالله الواحد ـ ولايزال وسوف يظل بإذن الله ـ متغلغلاً فى نفس المصرى منذ قديم الأزل . وليست الحضارة المصرية القديمة إلا شاهداً على ذلك ، فلولا الإيمان بالله لما قامت هذه الحضارة ولما استمرت ما يقرب من الثلاثين قرناً من الزمان .

وكان للأديان السماوية الثلاث حظ كبير من الانتشار على مدى التاريخ فبنى إسرائيل مع أنبيائهم نجدهم داخلين ومقيمين وخارجين .

كما نجد المسيح عليه السلام يقيم فى مصر مع العائلة المقدسة وله آثار باقية إلى يومنا هذا فى أكثر من موقع . أما الديانة المسيحية ذاتها فقد انتشرت أيضاً فى البلاد ووجدت لها مذاهب ونظريات وفلسفات مصرية صميمة أُدخلت عليها منها على سبيل المثال الرهبنة وهو نظام نشأ فى مصر ثم خرج منها إلى العالم أجمع .

أما الإسلام فقد دخل إلى مصر مع الفتوحات الإسلامية وتشكيل الإمبراطورية

الإسلامية العربية المترامية الأطراف ، وقد تأصلت هذه الديانة فى الشعب المصرى مع مرور الزمن وشاركت مصر بجوامعها ومساجدها وأزهرها ومشايخها فى نشر الإسلام والبحث والدراسة والتأصيل فى مختلف علوم الفقه والشريعة .

ويعدد لنا المؤرخ « ابن اياس » من زار مصر من الانبياء عليهم السلام فيحصيهم بثلاثين نبياً منهم .

ادريس وإبراهيم الخليل وإسماعيل ـ على أحد الاقوال ـ ويعقوب ويوسف واثنا عشر من أبناء يعقوب وهم الأسباط ، ولوط ، وقد ولد بها موسى وهارون ويوشع بن نون ، ودخلها دانيال وأرميا وعيسى بن مريم وسليمان بن داود وأيوب وشعيب عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

كما دخلها أيضاً من الصديقين لقمان الحكيم والخضر وذو القرنين .

ذكر مصر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ..

ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً منها :

ـ « اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » .

ـ « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه » .

ـ « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

ـ « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » .

ـ « ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق » . والمقصود مصر

ـ وعن قصة عيسى بن مريم جاء فى الذكر الحكيم « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » والمقصود مصر .

ـ وعن قصة يوسف « اجعلنى على خزائن الأرض » والمقصود أرض مصر .

ـ وعن نفس القصة : « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » وهى أرض مصر .

أما فى الأحاديث النبوية الشريفة فمنها ..

ـ « ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحمة ....»

ـ ـ « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً لأن لكم منهم صهراً وذمة » . وفى رواية : « فإن لهم نسباً وصهراً » .

ـ « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جنداً كثيفاً فذلك خير أجناد الأرض لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة » .

من أقوال الشعراء فى مصر :

تغنى شعراء العربية القدامى بمصر فى كثير من المواضع تذكر بعضًا من كثير..فقال شمس الدين الدمشقى :

« إذا البلاد افتخرت لم تزل ... مصر لها عز وتفضيل
وكيف لا تفخر مصر وفى ... أرجائها السلطان والنيل »

وقال الشهاب المنصورى :

« أيها النيل إنما أنت عدت ... لأناس يرون كسرك جيداً
فاسع فى أرض مصر واجر ... زادك الله منه خيراً وأجراً »

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

«ديار مصر هى الدنيا وساكنها ... وهم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها ... مصر مقدمة والشرح للنيل »

وقال الشهاب المنصورى أيضاً :

« اعملوا أهل مصر لله شكراً ... وقليل من عبادى الشكور
إن مصر أسقى الإله ثراها ... بلد طيب ورب غفور »

وقال ناصر الدين :

« لعمرك ما مصر بمصر وإنما ... هى جنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها ... وروضتها المقياس والنيل كوثر

وقال الشيخ صدر الدين بن عبد الحق :

« حبذا النيل والمراكب فيه مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدني من الحديث عن النيل ودعني من دجلة والفرات »

ومن الأقوال الحديثة نسبيا لانجد أبلغ من قولة مصطفى كامل المأثورة

«لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً »

وحسبنا من الشعر الحديث كلمات النشيد الوطني المصري بلادي بلادي :

«مصر يا أم البلاد انت غايتي والمراد
وعلى كل العباد كم لنيلك من أيادي
بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

مصر ومحاولات غزوها :

لم تسلم مصر على مدار تاريخها الطويل من محاولات لغزوها إما نظراً لما تتمتع به من موقع استراتيجي متميز يجعلها متحصنة ما بين البحار والصحارى وهي حدود طبيعية منيعة علاوة على موقعها المتوسط . وإما طمعاً في ثرواتها الطبيعية المتمثلة في خصوبة أراضيها الزراعية والثروات المعدنية الموجودة في باطن أراضيها .

وكانت هذه القوى الخارجية تتحين إحدى فرص ضعف تسود البلاد فتحاول الانقضاض عليها ، ولكن القوى الوطنية لاتلبث أن تعيد تحرير البلاد وطرد الغزاة.

وقد تَقْصُر مدد هذا الغزو فتتقلص إلى سنوات قليلة مثل المحاولات الآشورية والفارسية وبلاد تدمر والحملات الصليبية والحملة الفرنسية ، وفي أحيان تطول مدد الغزو مثل غزو الهكسوس وفترات الحكم البطلمي والروماني والبيزنطي ثم الاحتلال البريطاني .

ولكن مصر اشتهرت دائماً بأنها مقبرة الغزاة حيث كان مآلهم دائما إلى الجلاء .

مصر وتوسعاتها الخارجية :

أدت مطاردة أحمس الأول للهكسوس إلى خارج مصر حتى الحدود السورية الشمالية ، إلى فكر جديد ساد الأسرة الثامنة عشرة فقد دخلت مصر فى طور حربى عظيم ، فبدأ ملوكها الحرب موجهين نظرهم نحو البلاد الآسوية ففتحوا فلسطين وسوريا حتى وصلوا إلى نهر الفرات وجنوباً وصلوا حتى الشلال الرابع فى السودان الحالى . ومن أعظم ملوك هذه الأسرة تحتمس الثالث الذى تمكن من تأسيس امبراطورية مترامية الأطراف .

ومنذ ذلك العهد أصبحت هذه هى حدود مصر عندما يحكمها حاكم قوى حيث يصل بفتوحاته شمالاً إلى سوريا وشرقاً إلى بلاد النهرين وجنوباً إلى أواسط السودان الحالى وأحياناً يضم غرباً ليبيا وفى البحر المتوسط بعض الجزر مثل كريت وقبرص وذلك كله اعتماداً على ثراء مصر وغناها ومنعة جيشها . ومن هؤلاء الحكام الذين دانت لهم الشام والحرمين والنوبة أحمد بن طولون ثم الاخشيد أما الأسرة الفاطمية فقد اتخذت من البلاد المصرية مقراً لملكهم الذى ضم إلى جانب موطنهم الأصلى فى المغرب بلاد الشام والنوبة واليمن .

أما الدولة الأيوبية التى أعقبتهم فقد زادت فى توسعاتها بعض جزر البحر المتوسط .

كذلك فعل المماليك فعندما حكموا مصر استغلوا ثرائها فى تقوية وتعزيز جيوشها من أجل توسيع رقعة البلاد فشملت الشام وفلسطين والحرمين واليمن والنوبة .

وكان آخر عهد مصر بهذه التوسعات والفتوحات فى عهد محمد على الذى امتلكت البلاد فى عصره جيشاً قوياً مرهوب الجانب تمكن من اخضاع أغلب الدول الافريقية المطلة على نهر النيل ومنها السودان الحالى والحبشة وأوغندا والصومال وفى الشرق والشمال فلسطين والحرمين والشام وبعض جزر البحر المتوسط بل وهدد عاصمة الخلافة العثمانية فى تركيا .

مصادر التاريخ المصرى :

ذكرنا أن كثيرا من المؤلفات ظهرت تتحدث عن التاريخ المصرى بمختلف عصوره ، إلا أنه يجدر الاشارة إلى أن التاريخ المصرى القديم يعتمد أساساً على أربعة مصادر وهى التى استقى منها المؤرخ المصرى مانيتون تقسيمه للتاريخ القديم إلى ثلاثين أسره . وهذه المصادر هى حجر باليرمو ، وقائمة الملوك فى معبد أبيدوس ، وقائمة الملوك فى سقارة ، وقائمة الملوك فى الكرنك .

بالإضافة إلى كثير من البرديات أهمها البردية المحفوظة فى متحف تورين بإيطاليا والتى درسها كثير من المتخصصين فى علوم المصريات .

أما عن الفترات اللا حقة فالمؤلفات فى المكتبة العربية والاجنبية كثيرة تسمح للمطلع وللباحث بكمية من المعلومات التى يمكن تقصيها وتنقيتها والخروج بالمفيد منها ، وعلى سبيل المثال من المؤلفات العربية القديمة .. البداية والنهاية لابن كثير ، وبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ، وصبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، وضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر للقلقشندى ، وإتعاظ الحنفا والخطط للمقريزى ، وله أيضاً السلوك فى معرفة دول الملوك وللسيوطى حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء ثم ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، وللكندى : ولاة مصر وغيرها ..

ثم كتابات المحدثين من المؤرخين والموسوعات العربية والاجنبية .

تقسيم التاريخ المصرى ..

خمسة آلاف عام ، على أرجح الاقوال ، هى عمر مصر الموحدة منذ مينا إلى يومنا هذا ، تشغل منها الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية) مساحة الثلاثة أخماس أى ثلاثة آلاف عام بينما تشغل جميع الحضارات الاخرى حتى الآن مساحة ألفى عام لفترات البطالمة والرومان ثم الفتح العربى الإسلامى بحقبه إلى عصر الجمهورية الحالى . والملاحظ أن مئات السنين بل آلافها تعد فى عمر مصر كدولة ببساطة بينما دول أخرى فى عالمنا تحسب عمرها بالمئات بل وأحيانا بعشرات السنين .

والآلاف الثلاثة الأولى تضم ثلاث دول : الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة وبينها عصور انتقال وقد قسمها المؤرخ المصرى القديم مانيتون إلى ثلاثين أسرة حاكمة وهو تقسيم أخذ به جميع المؤرخين المحدثين .

والواقع أنه يمكن القول بأن هذا التقسيم إلى أسر حاكمة استمر بعد الحضارة المصرية القديمة فهذه فترة الأسرة البطلمية وهذه الأسرة الرومانية والأسرة البيزنطية ثم أسرة الولاة الأوائل ثم الأسرة الأموية ثم الأسرة العباسية ثم الأسرة الطولونية فالأسرة الاخشيدية ثم الأسرة الفاطمية فالأسرة الايوبية ثم أسرتا المماليك البحرية فالبرجية ثم الأسرة العثمانية وأسرة محمد على إلى الأسرة الجمهورية الحالية .

وقد تبنيت هذا التقسيم فى هذا العمل فبلغت الأسر جميعها خمسة وأربعين أسرة .

خطة البحث :

لم يكن من اليسير إجمال أو تلخيص التاريخ المصرى كله على طوله فى هذه الصفحات وفى مجلد واحد ولكن ذلك اقتضى جهدا فى التحرى عن أهم الأحداث التاريخية وعرضها فى تسلسل غير مخل بالمضمون . ولم يكن من الممكن عرض أحداث التاريخ العام فقط مع إغفال مؤشر هام من مؤشرات الدولة المصرية منذ القديم وهى المؤسسات الكائنة فى كل دولة . لذلك تضمن هذا الكتاب وصف للنظم السياسية والإدارية فى البلاد فى كل حقبة .

وقد قسمت هذا البحث إلى أبواب يمثل كل باب حقبة تاريخية وداخل الباب عدة فصول عن أحداث التاريخ ثم عن النظم الهامة المستحدثة وأحياناً فصل ثالث عن كيفية انتقال السلطة من أسرة إلى أسرة لاحقة .

الباب الأول :	التاريخ المصرى القديم .
الباب الثانى :	الإسكندر والبطالمة .
الباب الثالث :	الرومـــان .
الباب الرابع	البيزنطيون .
الباب الخامس :	مصر ولاية إسلامية عربية.
الباب السادس :	الأسرة الطولونية.
الباب السابع :	الأسرة الإخشيدية .
الباب الثامن :	الأسرة الفاطمية.
الباب التاسع :	الأسرة الأيوبية .
الباب العاشر :	أسرتا المماليك .
الباب الحادى عشر :	الأسرة العثمانية .
الباب الثانى عشر	أسرة محمد على .
الباب الثالث عشر :	الأسرة الجمهورية .

والله الموفق ..

أكتوبر ١٩٩١

د . ناصر الأنصـارى

الباب الأول

التاريخ المصرى القديم

لم تجر العادة بين الباحثين فى التاريخ المصرى القديم على التوغل فى القدم ، بل يبدأ بحثهم ببداية عصر الأسرات ، أى الوقت الذى أتم فيه الملك مينا توحيد القطرين ، الشمالى والجنوبى ، أو الوجهين ، البحرى والقبلى ، من مصر ، ليشكل بذلك دولة واحدة قوية متحدة ومستمرة منذ ذلك العهد ، أى من حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م ، وهى الدولة المصرية . والتى قامت من هذا التاريخ السحيق على تلك البقعة المعروفة إلى وقتنا هذا تحت اسم « مصر » . ولهذا فإن العلماء كادوا أن يجزموا بأن مصر هى أقدم دولة كائنة فى العالم ، والدولة هنا هى الدولة بمفهومها القانونى ، وعناصرها الثلاثة وهى الأرض والشعب والحكومة .

قد تكون هناك حضارات أخرى أقدم من الحضارة المصرية القديمة ، ولكنها لم تصل إلى مستوى الدولة . وقد تكون هناك تجمعات حضارية أو مدنية مساوية أو أقدم من مصر ، ولكنها لم تَرْقَ إلى شكل الدولة بالمفهوم القانونى لها . بل قد تكون هناك دول وجدت فى أماكن أخرى من العالم ، ولكنها زالت ، أو تغير شكلها ، ضيقًا أو اتساعًا، وهو بالقطع ليس حالة الدولة المصرية التى وجدت منذ « مينا » إلى يومنا هذا ، فى شكل حكومة متصلة الحلقات ، قد تختلف نظم الحكم فيها أو جنسيات الحاكم ، ولكنها بالقطع تشكل سلسلة محكمة لم تنقطع على مدى هذه القرون الخمسين . وسوف نسير على مانهج عليه المؤرخون فى بداية تاريخ مصر . أى أننا لن نلجأ إلى سرد حضارات العصور الحجرية التى سبقت عصر الأسرات . وهى : العصرى الحجرى القديم الأعلى ، ثم العصر الحجرى القديم الأوسط ، ثم العصر الحجرى القديم الأسفل ، ثم العصر الحجرى المتوسط ، وأخيرا العصر الحجرى الحديث ، ثم عصور ما قبل الأسرات[١] .

---

(١) يمكن الرجوع إلى مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع إلى مصطفى عامر ـ حضارات مصر ماقبل التاريخ ـ القاهرة ١٩٦١.

ورأينا أنه من الانسب أن نمهد لبحثنا بتقديم عن عصر ماقبل الأسرات ، ثم نتطرق بشيء من التفصيل إلى التاريخ المصرى القديم . فقد بدأ الاستقرار ، وتم ابتكار الزراعة، واستئناس الحيوان ، وتشييد المسكن الأول ، وبناء أول قرية ، كما عرفت هذه الحضارة استخدام النحاس ، والكتابة ، وظهور الوحدات الاقليمية ، وقيام الممالك المحلية ، واختفاء نظام العشائر . وظهرت الحاجة إلى التعاون وتبادل الحماية ، وتبادل المنفعة المشتركة فى القرية ثم المدينة . ثم انضم عدد من القرى والمدن إلى بعضها فظهرت المقاطعات فى الدلتا والصعيد ، ثم قامت حركة اتحاد فى الوجه البحرى ، وتجمعت المقاطعات فى دولتين إحداهما فى الغرب وكانت عاصمتها « بحدت » بالقرب من دمنهور الحالية ، والأخرى فى الشرق عاصمتها « بوصير » قرب سمنود . ثم انضمت فى مملكة واحدة ، هى مملكة مصر السفلى ، أو الوجه البحرى ، وعاصمتها « بحدت » . كما قامت مملكة فى الوجه القبلى عاصمتها « نقادة » قرب الأقصر الحالية [١] .

ثم قامت أول وحدة شملت مصر كلها حوالى عام ٤٢٤٢ ق . م . واتخذت من « أون » أو هليوبوليس القديمة ـ مكان عين شمس الحالية ـ عاصمة دينية وربما سياسية أيضا . ولكن هذا الاتحاد لم يدم طويلا فما لبثت البلاد أن انقسمت إلى دولتين مرة أخرى [٢] ، اولى تقع فى الوجه القبلى عاصمتها السياسية « نخب » وعاصمتها الدينية «نخن » ـ بالقرب من إسنا الحالية ـ وكانت لهذه المملكة معبودة صورت فى هيئة « أنثى النسر » واتخذت شعارا يتمثل فى زهرة اللوتس ، ويضع ملكها على رأسه تاجا أبيض اللون ، أما فى الوجه البحرى فقد قامت مملكة أخرى لها عاصمتان هما « دب » و «بى» ، وهى التى سماها الاغريق « بوتو » وكانت تقع بجانب مدينة دسوق الحالية ، وكانت معبودتها تصور فى هيئة « أفعى » ، أما شعارها فهو زهرة البردى ، ويضع ملكها تاجا أحمر اللون [٣] .

ومرت البلاد فى عهد هاتين المملكتين بسلسلة من المنازعات والحروب ، رفع فيها ملوك الوجه القبلى راية الجهاد ، من اجل توحيد البلاد ، إلى أن تمكن من ذلك الملك «نرمر» [٤]، الذى يعتقد جمهور المؤرخين أنه هو الملك « مينا » مؤسس الأسرة الأولى

---

(١) زكى شنودة ـ تاريخ الاقباط ـ جـ ٣ الطبعة الأولى ١٩٦٦ـ ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق ص ـ ٢٢ .

ود . محمد جمال مختار ـ لمحة فى تاريخ مصر السياسى والحضارى . فى تاريخ الحضارة المصرية المجلد الأول ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص ٩٣

(٣) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ٩٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٩٥ .

فى تاريخ مصر حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م . والتى من وقتها اتحد الشعب المصرى فى ظل حكومة مركزية قوية وثابتة ، وأصبح الملك مينا هو أول حاكم يحمل لقب ملك الوجهين البحرى والقبلى ، ويعتمر بالتاج المزدوج الأحمر والأبيض ، واتخذ عاصمة متوسطة فى مدينة عرفت باسم « من نفر » ، وحرفها العرب إلى « منف» وهى التى أطلق عليها الإغريق اسم « ممفيس » وهى مكان ميت رهينة الحالية فى الجيزة .

تقسيم التاريخ الفرعونى :

وقد قسم المؤرخ المصرى القديم مانيتون [1] التاريخ المصرى القديم إلى ثلاثين أسرة مالكة مصرية واقتفى المؤرخون أثره بعد ذلك فى تبنى هذا التقسيم ، ثم اتجه المؤرخون المحدثون إلى التمييز بين ثلاثة عصور مختلفة فى التاريخ المصرى القديم هى : عصر الدولة القديمة ، وعصر الدولة الوسطى ، وعصر الدولة الحديثة . وتضم كل دولة عدداً من الأسرات التى ذكرها مانيتون .

ويلاحظ أن أسماء الأسرات تنسب إلى المدينة التى أتى منها الملك مؤسس الأسرة ، أو إلى العاصمة ، فيقال « ثينى » أو طينى ، نسبة إلى مدينة « ثينى » أو طينة التى جاء منها الملك « مينا » ، أو يقال طيبية نسبة إلى « طيبة » ، أو يقال « منفية » نسبة إلى العاصمة الأولى « منف » . بينما الأسر التى كان يأتى حاكمها من خارج البلاد فتنسب إلى جنسية الحاكم . فيقال ليبية أو أثيوبية أو فارسية [2].

---

(١) مانيتون . هو المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى الذى عاش فى بلاط الملك بطليموس الثانى « فيلادلفوس » وكان على جانب كبير من العلم والثقافة ، وقد كتب هذا المؤرخ تاريخ مصر حوالى سنة ٢٨٠ ق . م ، معتمداً على مدونات الملوك والنصوص والمستندات القديمة .

ويبدو أن تقسيم مانيتون الملوك إلى ثلاثين أسرة قد استقى من المصريين القدماء أنفسهم .

(٢) هند إسكندر عمون ـ تاريخ مصر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ص ٢٤ .

الفصل الأول

العهد القديم

العصر الثينى أو الطينى

(حوالى ٣٢٠٠ ق . م - ٢٦٩٠ ق.م)

ثينى أو طينى نسبة إلى مدينة طينة بالقرب من جرجا بسوهاج الحالية . .

ولا شك أن أهم ملوك هذا العهد هو مينا موحد القطرين ، وبه بدأ عصر التاسيس والبناء للدولة الموحدة ، والذى اشتهر بأنه أصدر القوانين ، وشيد المعابد ، وأرسل البعثات العسكرية لمقاومة القبائل الرحل من الصحراء الليبية المناوئة ، التى كانت تحاول الاستقرار على وادى النيل .

وانتهى حكم مينا بعد حوالى ستين عاما ، وخلفه عدد من الملوك أتموا أعماله دون أن يكون لأحدهم بصمة خاصة ، وقد اهتموا عموما بالتشريع ، والإدارة ، وتنظيم العبادة ، والشعائر الدينية ، وشيدوا المعابد ، وبنوا القصور ، وساروا على نهج مينا ، فى مقاومة القبائل الليبية المناوئة . وفى هذا العهد خرجت أولى بعثات التنقيب عن المعادن فى سيناء ، وفى هذا العهد أيضا ألفت أول الكتب عن الطب والتشريح .

ولم تسلم البلاد من بعض الفتن السياسية ، وبخاصة فى عهد الأسرة الثانية ، مما اضطر بعض ملوك تلك الأسرة إلى استخدام القوة للقضاة عليها . وكان الملك « خع سخموى » - آخر ملوك تلك الأسرة - هو الذى نجح فى إطفاء نار الحرب بين الشمال والجنوب ، وإعادة الوحدة للبلاد .

وتعتبر حضارة الأسرتين الأولى والثانية امتدادا للحضارة التى كانت سائدة فى عصر ماقبل الأسرات ، وهى أيضا تعد بمثابة حجر الأساس لحضارة مصر فيما بعد .

وفيما يخص مؤسسات الدولة الناشئة فلا شك أن أهمها هو القصر الملكى بما جمعه من اختصاصات للسيطرة على أمور الدولة وتسييرها ، وبما حواه من عدد كبير من العاملين فى مختلف المجالات ، فالبلاط الفرعونى هو بمثابة الحكومة بجميع عناصرها ، وإن كانت هذه العناصر غير واضحة المعالم بعد . ففى داخل هذا البلاط ومن أجل ساكنه اخترعت الكتابة ، لتسجيل أعماله وانتصاراته وكلماته وحكمه وأحكامه . أما الفن فقد بلغ النضج داخل القصر ومن أجل فرعونه .

الفرعون وبلاطه :

جرت الأمور فى شطرى البلاد على منهجها القديم ، فكانت هناك إدارة للجنوب ، وأخرى للشمال ، وبالتالى وزير للجنوب ووزير للشمال ، ويعلو الجميع الفرعون [١] رب الوحدة وراعيها حاكم القطرين ، وصاحب التاجين ، الذى يدير الأمور من قصره الكبير ، بما فيه خير الجميع ، وبما يحقق الصالح العام .

وفى ذلك العهد خطت مصر خطوات واسعة فى سبيل تقدم البشرية . خاصة حين ابتدع المصريون الكتابة المصرية القديمة ، التى أسماها الإغريق فيما بعد «الهيروغليفية» أى النقوش المقدسة ، والتى تدل على مدى التقدم العقلى والرقى الفنى للمصرى القديم.

كما خطا الفن فى عهد الأسرتين الأولى والثانية خطوات واسعة فى النحت والنقش والتصوير وتطور فن المدرسة المعمارية .

أما عن المعتقدات الدينية فى ذلك العصر فأهمها أن الملك « حورس » ليس فقط شخصية مقدسة ، أو ممثل الإله على الأرض ، بل هو مَلِك إلّه له سلطات دينية ودنيوية، وهو مطاع من الجميع ، لأنه يقع فى مرتبة أعلى من الجميع . وهو المسئول عن تنظيم عبادة الآلهة ، لأنهم آباءه وإخوته ، وهو الذى يشيد لهم المعابد الكبيرة العظيمة بدلا من المعابد الخشبية الصغيرة ، أما هو فيسكن القصر الذى ينقش عليه اسمه داخل إطار مميز (الخرطوش) .

وفى هذا البلاط الملكى عدد من الموظفين يتصل عمل بعضهم بشخص الملك ، مثل حامل المروحة وحامل النعال ، ومنهم من له موقع مميز ، مثل كبير الفنانين ، ثم يأتى العاملون الآخرون فى البلاط الملكى ، مثل المشرفين على تخزين المحاصيل وختمها بخاتم الملك وغيرهم . وكل هؤلاء يشكلون الحاشية الملكية وهم يدفنون مع الملك وإلى جواره[٢].

---

(١) أصل كلمة فرعون مشتق من اللغة المصرية القديمة لكلمة ذات مقطعين بر ـ عو ـ وتعنى البيت العظيم ، وهو القصر الذى كان يقيم فيه الملك ، ومع التطور أصبحت تطلق على ساكن هذا القصر وتحورت إلى « فرعون »

(٢) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦.

- Gustasve Jequier . Histoitre de la civlisation égyptienne. paris 1930 . 1000
- A. Moret. le nil et la civilisation égyptimne. paris 1956 - P. 42.
- J. Pirenne . Histoire de la civilisation de L'Egypte ancienne. Bruxelles. 1962 - vi p 59.

الفصـل الثـانى

عصر الدولة القديمة

(من حوالى ٢٦٩٠ ق . م إلى ٢١٨٠ ق . م)

بعد الأسرتين الأولى والثانية ـ مينا وخلفاؤه ـ تمكن أهل العاصمة « منف » الحكم ، وانتقل عرش البلاد من أسرة « ثينية » إلى أسرة من أصل « منفى » . . الأسرة الثالثة ، وكان ذلك على يد مؤسسها الفرعون « زوسر » صاحب أول بناء حج فى التاريخ ، وهو هرمه المدرج فى سقارة .

وتبدأ هذه الدولة بالأسرة الثالثة ، وتنتهى بنهاية الأسرة السادسة ، وهو عصر الأهرام . وقد جرى العرف فى هذا العصر أن يبنى الملوك الفراعنة قبورهم على ش اهرامات ، ونجد فى المنطقة المحيطة بعاصمة البلاد فى ذلك الوقت أكثر من سبعين هر فى ميدوم ودهشور وسقارة وأبو رواش .

وامتازت الدولة القديمة بأن وحدة البلاد بلغت تمامها فيها ، ولم يعد هناك للنزاع القائم بين الشمال والجنوب ، فساد عهد سلام وتقدم ونمو تدريجى فى : المجالات . مما أسفر عن رخاء وقوة ، منبعهما جهود داخلية أثمرت عن نشاط بالخير والازدهار مختلف نواحى الحياة المصرية ، فكانت الحضارة ذات طابع مص صميم ، قائم على الشعب المصرى وحده ، وليس ناشئا عن كثرة غنائم وأسلاب جل حروب خارجية ، وهو مالم ينظر إليه ملوك هذه الدولة الذين كانوا يتمتعون بالمـ والقوة والمَنَعَة ، ولم يكن فى سياستهم النظر نحو الفتوحات خارج حدود البلاد ب ما كانت تهتم بالبحث عن زيادة ثراء البلاد ، وتنمية مواردها الطبيعية والبشـ والمادية [١] . ومنذ بداية الأسرة الخامسة بدأوا يتطلعون إلى خارج الحدود فى بعـ تجارية بحرية إلى فينيقيا [٢] عن طريق البحر المتوسط ، وإلى بلاد بونت [٣] عن طـ البحر الأحمر [٤] .

---

(١) G.Jequier . of cit . p . 124.

(٢) لبنان الحالية حيث استوردوا خشب الأرز

(٣) الصومال الحالية .

(٤) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ٩٨ .

الأسرة الثـالثـة :

كان الانتقال من الأسرة الثانية إلى الأسرة الثالثة فى الدولة القديمة قد تم بطريقة هادئة وبدون تغيرات فجائية أو ثورات دموية . وأصبح ملوك منف هم الورثة الشرعيون لملوك العهد الثينى ، وحملوا لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى وملك الوجهين القبلى والبحرى . بل وأصبح كل منهم أيضا « حورس » .

وطبقاالمؤرخ مانيتون فقد حكم خلال هذه الأسرة الثالثة تسعة ملوك لمدة ٢١٤ سنة بينما تقدم بردية تورين خمسين سنة فقط كمدة حكم لهذه الأسرة (١).

وكان أهم ملوك هذه الأسرة الملك « زوسر » فقد كانت له مؤلفات علمية كما أنه وجه اهتمامه نحو تطوير الكتابة وفن العمارة وكان يعاونه وزيره العبقرى الطبيب «ايمحتب» والذى يرجع إليه الفضل فى الآثار القائمة حول هرم سقارة المدرج (٢).

الأسرة الرابعـة :

هى أسرة بناة الاهرام وهى تغطى طبقا لمانيتون ٢٨٤ سنة وتتضمن ثمانية ملوك ، وقد ترك لنا ملوك هذه الأسرة كدليل على قدراتهم ، الأهرام ذلك الصرح المعمارى غير المسبوق وغير الملحوق ذو السر الكبير . وأول ملوك هذه الأسرة هو « سنفرو » وبه يبدأ عصر رخاء وثراء لمصر ، نتيجة لإدارته الحكيمة ، وقد خلفه خوفو الذى كان أكثر منه قوة وتأثيرا وهو يعتبر أحد أعظم ملوك مصر ، وأصبح اسمه أسطورة بفضل الهرم الأكبر الذى شيده فى الجيزة ، ليكون مقبرة له . كما أنه بنى المعابد ، وشجع على استكمال الاعمال التعدينية فى سيناء ، والتى كان قد بدأها سلفه « سنفرو »..

عقب موت « خوفو » حدثت داخل أسرته بعض الصراعات على الخلافة ، نتج عنها أن خلفه « ددف رع » ولم يبق فى الحكم إلا مدة بسيطة وهُدِم هرمه فى محاولة لمحو جميع ذكرياته .

وتولى بعده أخاه « خفرع » الذى استمر فى الحكم مدة طويلة وإن لم نكن نعرف عنه الكثير فى مدة حكمه هذه إلا أنه يكفيه الآثار التى تركها لنا ، مثل الهرم الأوسط ، وتمثال

(١) G.Jequier. op. cit. p.127
A.Moret. op. cit. p.52.
ـ د . نجيب ميخائيل إبراهيم ـ مصر والشرق الأدنى القديم ـ الجزء الأول الكتاب الأول ـ القاهرة يناير ١٩٥٧ ـ ص ١١٦ .

(٢) G.Jequier . op. cit. p. 126
ـ جـ . هارى . ترجمة محمد العزب موسى « ايمحتب » القاهرة ١٩٨٩ ص ٢٣ .

أبى الهول ، والتماثيل الاخرى الجميلة الكثيرة [1] وخلف خفرع : « منكاورع » الذى اشتهر بالعدالة والتقوى ، ومن آثاره الهرم الثالث فى الجيزة ، والتماثيل الجميلة ، وإتمام أعمال التعدين فى سيناء وهو آخر الملوك العظام فى أسرته . فمعلوماتنا عن خلفائه ضئيلة .

وتنتهى الأسرة الرابعة بطريقة غامضة ، ويبدو أن ازمة دينية تسببت فى نهايتها نتيجة لزيادة قوة التأثير الدينى فى عين شمس ، ومحاولات السطو على السلطة الملكية ، ومحاولات للردع من آخر ملوك هذه الأسرة ، وهو « شبسسكاف » ، ثم كان النصر النهائى من نصيب كهنة إله الشمس [2].

الأســرة الخـامسـة :

حكمت هذه الأسرة طبقا لمانيتون ٢١٨ سنة . وأول ملوكها هو « أوسر كاف » ، ويرى البعض أن أصول هذه الأسرة ترجع إلى جزيرة الفنتاين قرب أسوان ، بينما يرى آخرون أنها ترجع إلى عين شمس (٣) .

وجميع ملوك هذه الأسرة أقوياء ، وقد امتدت أعمالهم إلى كافة أنحاء البلاد ، وأحيانا تعدت أعمالهم حدود البلاد ، وقد قضوا على محاولات القبائل النوبية والليبية لدخول البلاد . كما أرسلوا البعثات إلى جنوب فلسطين لاخضاعها .

وأقاموا لمصر أسطولاً قويًا فرض على جميع الجيران احترام فراعنة مصر ، كما استغل فى القيام بخدمات تجارية . وقد ساد السلام ، وعم الرخاء ، واستقرت النظم فى وادى النيل فى عهد هذه الأسرة .

---

(١) - G. Jequier . op. cit p. 128

- E. Drioton - J. Vandier. l' Egypte des origines a` la conquéte d'Alexandre Paris . 1975. p. 94.

(٢) - G. Jequier . op cit. p. 130

(٣) - G.Jequier . op cit. p 132

- عبد اسكندر عمون - المرجع السابق - ص ٣١

- د. نجيب ميخائيل إبراهيم - المرجع السابق - ص ١٢٨ .

وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو « أوناس » صاحب الهرم المعروف باسمه ، وكان آخر سلسلة من الملوك ذوى الاحترام ولأنه لم يعقب فقد انتقل الحكم سلميًا إلى أسرة جديدة (١).

الأســرة الســادســة :

ملوك هذه الأسرة على أغلب الاقوال من « منف » وقد أتموا أعمال الأسرة الخامسة ، ولكنهم كانوا أقل منهم شهرة وبريقًا ، ونكاد نجهل أعمال أول ملكين من هذه الأسرة ، وهما « تيتى » و«أوسر كارع » ، وقد أعقبهم فى هذه الأسرة أربعة ملوك آخرين ، وحكموا جميعا ٢٠٣ سنوات على قول مانيتون (٢).

وقد ترك لنا أحد ملوك هذه الأسرة وهو « بيبى الأول » الكثير من الآثار ، وتعد فترة حكمه من أشهر فترات التاريخ المصرى القديم ، وقد قام بأعمال التشييد والبناء ، كما جَدَّ فى مختلف المجالات الاخرى حتى أننا نجد اسمه فى كل مكان . فى « تانيس » فى اقصى شمال الدلتا ، وفى الجنوب عند الشلال الأول ، وفى مناجم سيناء . وقد وجه اهتمامه الشخصى إلى تحسين النظم الإدارية ، ونشر العدالة ، وإرسال البعثات ، وبناء جيش قوى ، وأسطول عظيم للقضاء على الغزوات الآسيوية ، التى تهدد البلاد ، كما أرسل البعثات إلى النوبة لتاكيد سيطرة مصر على أعالى النيل .

إلا أن خلفاءه لم يرتفعوا إلى مستواه ، فابنه الأكبر « مرن رع » مات شابًا ، وابنه الأخر « بيبى الثانى » الذى تولى السلطة لمدة ٩٥ سنة لم يكن على مستوى الأحداث ، مما أدى إلى انهيار السلطة المركزية .

وتنتهى هذه الأسرة التى حققت الكثير للحضارة المصرية بعدد من الملوك الذين اختفوا دون أمجاد تُذْكَر ، وكل ما يمكن أن ينسب إليهم هو حفاظهم على العرش والبلاد موحدة (٣).

انهيار الدولــة القــديمة :

بانتهاء الأسرة السادسة تبدأ مرحلة مظلمة فى تاريخ البلاد تتميز بتضاؤل السلطة .

---

(١) A. Drioton. op. cit. p. 443
G. Jequier . op. cit. p 133
- د. نجيب ميخائيل إبراهيم - المرجع السابق - ص ١٥٢.
(٢) هند إسكندر عمون - المرجع السابق - ص ٣٢
(٣) G. Jequier . op. cit. p 134

الملكية بل وانهيارها ، . ولايمكن تعليل هذا الانهيار بثورة أو انقلاب أو غزو خارجي وإنما كان السبب الرئيسي هو إهمال القدرة العسكرية للبلاد ، واتجاه الملوك إلى تبني سياسة مسالمة للغاية .

وهناك أسباب أخرى منها ازدياد شوكة حُكّام الاقاليم وبخاصة في النصف الأخير من عهد الأسرة السادسة ، وسعيهم إلى الانفصال عن نفوذ الفرعون ، والإقلال من الصلات التي تربطهم به ، والاستقلال بحكم أقاليمهم . وكانت النتيجة الحتمية هي انهيار السلطة المركزية ، وانقسام البلاد إلى أقاليم منفصلة ومستقلة تماما عن سلطة ونفوذ حكومة « منف » وانتشار الفوضى والتفكك والانحلال [١].

مظاهر النهضة في الدولة القديمة :

كانت لمصر في معظم أيام الدولة القديمة حكومة منظمة قادرة على تسيير الأمور ، فازدهرت الحضارة ، والدليل على ذلك ماخلفه لنا هذا العصر من آثار العمارة الكثيرة ، وروائع الفن والمصنوعات . وأقوى دليل على ماكان يسود البلاد من حُسن تنظيم وثراء ماتركه لنا ملوك هذه الدولة من أهرام ، مثل هرم زوسر المدرج في سقارة ، وأهرام الجيزة الثلاثة لخوفو وخفرع ومنكاورع ، وهرم أوناس . كما تتجلى عظمة العمارة أيام هذه الدولة في المعابد والقبور والمصاطب التي خلفتها لنا بجوار الأهرامات وبلغت القدرة والمهارة الفنية حدًّا من الكمال في هذا العصر ، كما يتمثل ذلك في تماثيلها : مثل تمثال الملك خفرع ، وتمثال الكاتب المصري ، وتمثال شيخ البلد ، وكذلك النقوش والصور التي تحلى جدران القبور في جبانات الدولة القديمة [٢].

أما النهضة في مجال العلوم الرياضية والفلك والطب وألوان المعارف الأخرى فهي نهضة كبيرة ، كما بلغت آداب المصريين الاجتماعية ومثلهم الروحية وتعاليمهم التربوية والخلقية درجة كبيرة من الرفعة والسمو [٣].

النظم في الدولة القديمة :

إذا صح أن الملك الفرعوني شأنه شأن الملوك في الممالك الشرقية الأخرى المعاصرة له من حيث أنه ابن الإله ، بل وأحيانا الإله ذاته ، إلا أن الملوك الآخرين كانوا كسائر

---

(١) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ٩٦

(٢) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ٩٨

(٣) G. Jequier . op . cit . p 161

متعجرفين منزوين في قصورهم [1]، لايهتمون بالأعمال الكبيرة، والأبنية الضخمة، والتشييد عموما، أما الملك الفرعوني فيوجه اهتمامه الكبير إلى البلاد ونمو شعبه، ولنشر العدالة والسلام، ويتولى بنفسه الإدارة، ويختار الموظفين، ويكافىء المجدّين منهم، وهو لذلك يستحق الصفة التي تطلق عليه أحيانًا، الإله الطيب، وفوق ذلك نجد الملك الفرعوني يجد الوقت للاهتمام بالعلوم وتأليف الكتب [2].

كما نلاحظ أن الأمراء أولاد الملوك يتمرسون على الأعمال منذ صغرهم، ويشغلون الوظائف الهامة في الإدارة.

والبلاط الملكي يضم مجموعة كبيرة من الموظفين من جميع الرتب، توكل إليهم الأعمال الخاصة بالفرعون، من ملابس وأدوات الزينة والروائح والطيب والمآكل والمشرب، كما يوجد كهنة متخصصون يلحقون بالبلاط بالإضافة إلى الحرس الشخصي للملك.

البـلاط :

ويبدو أن ديوان الملك قد اتسع نطاقه ليشمل موظفي الملك ونصحائه ووزرائه. وكانت أملاك البلاط الملكي واسعة، وزاد اتساعها مع توحيد البلاد وانضمام أملاك ملك الشمال إلى أملاك ملك الجنوب، ثم بدأ الملك ينْعم بالهبات على شكل إقطاعات كبيرة، فبدأت أملاكه تتقلص تدريجيا، ولم يكن موظفو الملك يكافأون بالمال، بل بالطعام والكساء بما كان يكفل حياة راضية لموظفيه [3].

ويعاون الملك في أداء مهامه أداة إدارية معقدة وقديمة جدا، تضم كثيرا من الموظفين الذين تختلف أعمالهم من دينية إلى عسكرية إلى مدنية إلى قضائية، كما تختلف مراتبهم، فمنهم الوزراء وكبار القضاة، وكبار الكهنة، وأعضاء الإدارة المركزية عموما الذين يأتي من بعدهم عدد كبير من الموظفين المحليين في الأقاليم تحت إشراف الإدارة المركزية.

---

(١) G. Jequier . op. cit. p. 160

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢.

J. Pirenne. of cit, V.Ip. 250

(٣) د. نجيب ميخائيل إبراهيم ـ المرجع السابق ـ ١٧٦.

الوزيــر :

وكان الوزير على رأس الإدارية المركزية ، وكان يشرف على المحفوظات الملكية ، حيث تحفظ المراسيم والعقود والوصايا والمستندات الهامة ، وكان يعاونه رءوساء الإرساليات الذين ينقلون إليه تقارير الإدارات الإقليمية ، وكان الوزير هو رئيس القضاء الأعلى . كما كان الوزير يشرف على إدارتين هامتين ، هما الخزينة والأعمال الزراعية ، والإشراف على بعثات استثمار المناجم أو البعثات الخارجية عموما ، بالإضافة إلى فرق الجيش والاسطول (١).

حكام المقاطعات :

وفى الأقاليم كان الملك يعين على كل إقليم حاكما من قبله ، يشرف على القضاء فى تلك الإقاليم ، بالإضافة إلى الأعمال الكتابية ، وجباية الضرائب ، وكان حكم المقاطعات فى أغلب الأحوال وراثيًا بين رؤساء العشائر والقبائل الكبيرة (٢).

الشعب :

وكان المصريون فى عهد هذه الدولة يؤلفون طبقتين : الطبقة الحاكمة وطبقة عامة الشعب ، وهى مكونه غالبا من الفلاحين والتجار والصناع . ولم تكن الوظائف الإدارية المشار إليها وقفًا على فئة معينة ، ولكنها كانت متاحة للجميع ، وكان يكفى أن يلم أحد أفراد الشعب ببعض التعليم ليصبح كاتبا ، ثم يصل باجتهاده إلى أية وظيفة فى السلك الإدارى.

الجيش :

يجب الإشارة إلى أن الجيش بمفهومه الحديث لم يكن قائما فى الجزء الأول من الدولة القريمة ، بل كان الفراعنة يدعون حكام الأقاليم إلى معاونتهم بجنودهم وقت الحرب ، ومن هؤلاء الجنود يتكون جيش موحد تحت قيادة قائد يعينه الفرعون (٣)، وتكون مهمته موقوتة تنتهى بانتهاء ما كلف به .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠ .

(٢) G.Jequier . op . cit. p 168

J. Pirenne. op cit .vol i p.280

(٣) د. محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ٩٧

الفصـــل الثـــالـــث

فترة الاضمحلال الأولى
أو العصر الوسيط الأول

من حوالى ٢١٨٠ ق.م إلى ٢٠٦٠ ق.م

بانتهاء الأسرة السادسة تبدأ مرحلة اضمحلال للدولة المصرية بعد الازدهار الذى نعمت به فى عصر الدولة القديمة، فقد انفلت زمام الحكم من الفرعون، وساد الانحلال السياسى، والتفكك الاجتماعى، ورجعت البلاد إلى ماكانت عليه قبل عهد الوحدة من انقسام وتفرق، وقامت المعارك التى تشبه الحرب الأهلية، أو محاولات الاستقلال، وهى فترة أزمات مختلفة عمومًا، منها الانقلابات ومنها محاولات الاغتيال والتسميم. وقد صارع ملوك هذه الأسرات الموت بشراسة، كما يظهر من أماكن الجروح على مومياواتهم والمعلومات المتوفرة عن هذا العصر المضطرب قليلة ومحدودة.

وتغطى هذه الفترة الأسر من السابعة إلى العاشرة.

الأسرتان: السابعة والثامنة

وتنسب الأسرتان السابعة والثامنة إلى «منف» ومعلوماتنا عن الأسرة السابعة ضئيلة، بل تكاد تكون منعدمة، حتى إن «مانيتون» يذكر بها سبعين ملكا حكموا سبعين يوما [1]، وفسرها آخرون بأنهم حكموا سبعين عاما [2]، ولا تُعرف أسماؤهم أو أعمالهم. كذلك فإن الأسرة الثامنة تتضارب حولها الآراء بين رأى مانيتون وبردية تورين وقائمتى سقارة وأبيدوس، خاصة من حيث ملوكها ومدة حكمهم.

وقد ساد خلال عهد هاتين الأسرتين الفقر والبؤس والقحط، وتتابعت الفتن، وانتشرت الفوضى، واختل الأمن، وتلاشت السلطة المركزية، واختفى سلطان العرش، ونُهبت القبور وحُطِّمت الآثار. كما أغار بدو الصحراء على الدلتا وعاثوا فيها فسادًا.

---

(١) د. محمد جمال مختار، المرجع السابق ـ ٩٨.

(٢) د. نجيب مخائيل إبراهيم، المرجع السابق ص ٢٠٧.

الأسرتان التاسعة والعاشرة :

أدت هذه الأحوال بالبلاد إلى الفوضى والتفكك ، وفي خلال تلك الفوضى ظهرت في مدينة إهناسيا (بالقرب من بني سويف الآن) أسرة قوية ، بزعامة أمير يدعى «خيتي» اغتصب العرش من الأسرة الثامنة المنفية الضعيفة . وظل ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة الإهناسيتين طوال مدة حكمهم يعتبرون أنفسهم خلفاء مباشرين لملوك منف ، وبالتالي فهم الملوك الشرعيون وحاولوا نشر سلطانهم على أقاليم الوادي كله من «إهناسيا» ، التي ظلت مقرًا لعرشهم طوال حكم الأسرتين [١] . وأقاموا علاقات سلمية مع أمراء أسيوط وأمراء طيبة ، وحاولوا التحالف معهم ولكن سرعان ماتحول الأمر عندما تقوى أمراء طيبة ، ونشبت الحرب بين أمراء إهناسيا من جهة وأمراء طيبة من جهة أخرى ، وكان النصر من نصيب أمراء طيبة ، حين تمكن «منتوحتب الثاني» أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الطيبية من إسقاط عرش «إهناسيا» ، وجلس على عرش مصر المتحدة مع بداية زوال الفوضى ، ودخول البلاد في دور ازدهار وعظمة [٢].

ويمثل عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة دور انتقال بين حكم الدولة القديمة المنفية وحكم الدولة الوسطى الطيبية ، وتميز ذلك العهد من الناحية السياسية بالفوضى والتفكك وروح التشاحن بين الملوك والأمراء ، أما من الناحية الفكرية فقد ازدهر الأدب خاصة الأدب الواقعي الخالي من عناصر الافتعال والاصطناع ، والذي يترجم مشاعر الناس وإحساساتهم ترجمة صادقة ، كما يبشر بالمساواة الاجتماعية والعدالة الإنسانية . ويبدو أن الأدب كان يقدم إرهاصات أو تباشير بعهد مزدهر جديد من التاريخ المصري القديم ، هو عهد الدولة الوسطى .

---

(١) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ٩٩

(٢) المرجع السابق .

الفصـــل الـرابـــع

عـهــد الـدولـة الوسطـى

عهد الدولة الوسطى

(من حوالى ٢٠٦٠ ق.م إلى ١٧٨٥ ق.م)

قامت على أنقاض عهود الاضطراب التى سادت عهد الانتقال أو الاضمحلال الأول دولة جديدة مزدهرة ، هى الدولة الوسطى التى ضمت الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة .

وندرس فى مبحث أول أهم الأحداث التاريخية التى مرت بها البلاد خلال حكم هاتين الأسرتين ، ثم نستعرض فى مبحث ثان أهم ملامح النظم الإدارية والسياسية والاجتماعية التى سادت فيها .

المبحث الأول

وحـــدة وقســوة

الأسـرة الحـادية عشـرة :

ملوك الأسرة الحادية عشرة من « طيبة » وكان هدف ملوك هذه الأسرة الطيبية إعادة توحيد البلاد ، وقد بدأوا على أنهم ملوك لمصر العليا فقط ، ثم مالبثوا أن سيطروا على مصر الوسطى أيضا ، ثم وادى النيل بأكمله ، وأستحقوا اللقب المراسمي والشرعي لملوك البلاد ، وهو ملك مصر العليا والسفلى .

ويرجع إلى ملوك هذه الأسرة الفضل فى توحيد البلاد ، والقضاء على الحروب الأهلية . وأبرز ملوك هذه الأسرة هو منتوحتب الثاني ، الذى تمكن من لم شمل البلاد ، وإعادة وحدتها فى ظل حكومة قوية .

وطبقا لمانيتون فإن عدد ملوك هذه الأسرة ١٦ ملكًا حكموا ٤٣ سنة بينما تعدد بردية « تورين » لهذه الأسرة ستة ملوك على مدى ١٦٠ سنة [١] .

الأسرة الثانية عشـرة :

لم توضـح المصادر التاريخية بجلاء الطريقة التى انتهى بها حكم آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة (منتوحتب الخامس) (سنخ كا رع) ليبدأ حكم أول ملوك الأسرة الثانية عشرة (أمنمحات الأول) حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . الذى كان كبير الوزراء فى

---

(١) - H.Gautier. le Livre des rois d'Egypte Le Caire - 1916.

-G. Jequier . op. cit. p 191

-A.Moret. op.cit. p 235

ـ هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ـ ص ٣٥ .

ـ د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٠

فترة سابقة ، ولا شك أنه كان يمت بصلة قرابة إلى الأسرة الحاكمة السابقة [١] . وكان أمنمحات الأول إداريا من الطراز الأول ، يتمتع بعقلية رجال الأعمال ، وكان أول ماواجهه عدد كبير من الأعداء تمكن من القضاء عليهم ، كما قضى تماما على سيطرة الأمراء المحليين واستقلالهم بأقاليمهم ، وقد استخدم فى سبيل ذلك العنف تارة والحيلة تارة ، حتى أخضع أمراء الأقاليم لسلطانه ، كما أنه طهر أطراف البلاد من البدو والقبائل الليبية ، وأدب العصاة النوبيين ، وساد فى عهده الأمن والنظام وبفضل فتوحاته العسكرية تمكن من توسيع الحدود المصرية .

وقد أسس هذا الملك أسرة قوية حكمت مايزيد عن القرنين ، وتعتبر مدة حكمها من ألمع فترات العرش المصرى [٢].

ومن الملوك البارزين أيضا فى هذه الأسرة ، سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث ، اللذان استكملا أعمال أمنمحات الأول فى بسط السيطرة المصرية على النوبة حتى الشلال الثانى ، وأصبحت هذه المنطقة مقاطعة مصرية يديرها موظفون مختصون مع بعض الفرق العسكرية الصغيرة لحماية الحدود الجديدة .

كما أكد فراعنة هذه الأسرة سيطرتهم الكاملة على الواحات وسيناء والمناطق الصحراوية ، واهتموا بالعمل فى المناجم ، ومن الأعمال العظيمة لهذه الأسرة ايضا قيام سنوسرت الثالث بحفر قناة فى شرق الدلتا لتصل مابين نهر النيل وخليج السويس لخدمة التجارة . أما أمنمحات الثالث فقد ارتبط اسمه بإنشاء خزان كبير لمياه النيل بالقرب من الفيوم وهو « بحيرة موريس » لتخزين مياه الفيضان بها [٣].

وكان آخر ملكين لهذه الأسرة قد حكما لمدة قصيرة ولم يرد لهما ذكر كبير فى التاريخ وهما « أمنمحات الرابع » و« سبك نفرو » وفى عهدهما تلاشى نفوذ الفرعون تماما ، فكان ذلك نذيراً بانتهاء الأسرة الثانية عشرة ، وسقوط الدولة الوسطى ، ودخول مصر فى عصر فوضى وظلام مرة ثانية .

---

(١) - G.Jequier . op. cit. p. 194
- A. Moret. op. cit. p. 241

(٢) - G. Jequier. op. cit. p 195
- د . محمد جمال مختار - المرجع السابق - ١٠٠ .

(٣) - G. Jequier. op. cit. p. 195
- هند إسكندر عمون - المرجع السابق ص ٢٧ .
- د . محمد جمال مختار - المرجع السابق

المبحث الثاني
النظم في الدولة الوسطى

لم تكن مصر في عهد الدولة الوسطى تختلف كثيرا عنها في الدولة القديمة من أغلب النواحي ، وإن وجد اختلاف بالطبع يتصل بالتنظيم الاجتماعي والإدارة واللغة والدين والفن . وسوف نتناول فيما يلي بعض النظم التي حدث فيها تطور واضح عما كان سائدًا في الدولة القديمة .

الملك :

كان الملك يباشر سلطانه إلى أبعد الحدود ، ووجد فيه الناس رجلاً يخدم مصالح البلاد . واستطاع ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يضعوا حدودا للفوضى السابقة ، مما قضى على المنازعات الداخلية ، وزاد إحساس الشعب بالأمن ، ومن الأسباب التي أدت إلى تدعيم نفوذ البيت المالك في ذلك العصر الأخذ بمبدأ تركيز الإدارة في يد الملك ، فقد أدرك الملوك أن القضاء على نفوذحكام الأقاليم هو أضمن السبل لضمان ثبات العروش.

وقد استن ملوك هذه الدولة سُنَّة جديدة ، هي الاشتراك في الحكم ، فكان ولي العهد يشارك الملك في الملك ، للتدريب عليه ، مما ساعد الملوك على الاحتفاظ بعروشهم الموروثة دون مشاكل وبكفاءة عالية (١).

كما عني الملوك بإعادة تنظيم البلاد في هذه الفترة على أساس قوي ، وكان من أثر ذلك أن أخذت البلاد المجاورة تحسب حسابًا لمصر وتقدر قوة شخصية ملوكها . وأهم مايميز ملوك هذه الدولة هو إصلاح البلاد ، وتنظيم وسائل الري والزراعة ، واستثمار المناجم ، وتقوية الصلات التجارية بين مصر وجيرانها .

---

(١) د. نجيب ميخائيل إبراهيم – المرجع السابق ص ٢٨٦

الجيش :

اهتم ملوك هذه الدولة بتكوين جيش ثابت ليكون سندًا ودعماً لسلطانهم وكان لابد من الاعتماد على القوة الحربية لإقالة البلاد من عثرتها ، ولإقرار السلطة الملكية ، وحماية الحدود . وقد أصبح للبلاد في عهد الدولة الوسطى جيش قائم دائم ، هو مظهر قوتها ، ورمز اتحادها . ويرجع إلى ذلك الجيش الفضل في ضم بلاد النوبة نهائيًا إلى مصر في عهد « سنوسرت الثالث » بعد أن كانت منطقة دائمة الاضطراب ، ولم يكن الجيش في الدولة القديمة ثابتًا ، بل كان يجمع من أمراء المقاطعات عند الحاجة إلى الحرب .

الأقاليم الإدارية :

كانت أقسام مصر الإدارية ثلاثة : هي مصر العليا ، ومصر الوسطى ، ومصر السفلى ، وكان تحت كل قسم منها عدد كبير من المقاطعات . يتولى إدارتها حكام أو أمراء القبائل . ولكن منذ حكم « سنوسرت الثالث » أصبح يتولاها موظفون من قبل الحكومة المركزية[1] ، لسهولة السيطرة عليها ، وتأكيد الولاء للفرعون .

الإدارات المركزية :

أصبح من أهم إدارات الحكومة المركزية : الإدارة المالية ، وإدارة الأشغال العامة . وكان يشرف عليها رئيسا بيتي المال . وكان منصب كل منهما لايقل أهمية عن منصب الوزارة .

وكانت للإدارة المالية اختصاصات أهمها :

مراقبة الإيرادات والمصروفات الحكومية ـ العمل على رفع دخل الحكومة ـ الإشراف على ما يدفع لمصر من جزية ـ إدارة العمل في المناجم والمحاجر ـ تجهيز البعثات التجارية .

أما إدارة الأشغال العامة فإن من اختصاصها .

إقامة المباني ـ تشييد الجبانة الملكية والمعابد المختلفة في أنحاء البلاد ، وإقامة الحصون وحفر الترع ، وما يترتب على ذلك كله من عمل في المحاجر الواقعة قرب النيل أو في الصحارى ، مما كان يستدعي نقل الأحجار على الأرض والماء ، ومايستلزمه العمل من حجارين ونحاتين وملاحظين وكتاب [2].

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم ـ المرجع السابق ـ ٢٩١.

(٢) المرجع السابق .

الفصل الخامس

عصر الاضمحلال الثانى

أو العصر الوسيط الثانى

(من حوالى ١٧٨٥ ق . م إلى ١٥٦٠ ق . م)

بانتهاء عصر الدولة الوسطى حوالى عام ١٧٨٥ ق . م . دخلت مصر فى عصر من عصور الضعف والفوضى والذل ، وأشد أيام ذلك العصر اضطرابًا هى الأيام التى تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة ، فقد كثر تطلع كبار الموظفين ، وقواد الجيش ، وكل ذى سطوة إلى عرش البلاد ، أيا كان الطريق إليه بالقتل أو بالخلع أو بالمؤامرات والدسائس، مما أدى إلى اندلاع الثورات ، وتتابع الحروب الأهلية ، فاضطرب الأمن ، واختل النظام ، وساد الفساد ، ونتج عن ذلك بالطبع زيادة أطماع أعداء البلاد من الخارج فوقعت فريسة فى يد الهكسوس إلى أن تمكن ملوك الأسرة السابعة عشرة من طردهم . وأسس ملوك الأسرة الثامنة عشرة أزهى العصور المصرية القديمة ، هو عصر الامبراطورية .

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة :

بعد الوحدة التى تمتعت بها مصر خلال حكم الدولة الوسطى عادت البلاد مرة أخرى إلى الانقسام والتفكك نتيجة لتنافس أسرتين على الحكم ، إحداهما تحكم من طيبة فى الجنوب وهى الأسرة الثالثة عشرة ، وعدد ملوكها حسب مانيتون ستين ملكًا . وأسرة أخرى هى الأسرة الرابعة عشرة وتحكم فى نفس الوقت تقريبا من مدينة « سخا » فى الدلتا ، وعدد ملوكها ستة وسبعون ويبدو أن الشرعية كانت للأسرة الرابعة عشرة ، بينما القوة والمنعة كانت للأسرة الثالثة عشر . وقد تداخل ملوك هاتين الأسرتين حتى إنه يصعب أحيانا التمييز بينهما . ولا نعرف الكثير عن الأحداث السياسية والتاريخية لذلك العصر ، لندرة ماعثر عليه من آثار [١].

---

(١) - G.Jequier op. cit. p. 196
- Manuel de L'histoire de l'Egypte. 2 ed. Alex. 1911
- هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ص ٢٨ .
- د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ص ١٠٢ .

غـزو الهكســوس (١٧٢٥ ق . م) :

ونتج عن اضطراب الأحوال والتفكك والضعف وانفصال صلات الاتحاد بين الشمال والجنوب ، أن تجرأت قبائل السلب والنهب الآسيوية على غزو البلاد ، رغم سبق وقفهم وردهم عنها عدة مرات فى حكم أسرات سابقة .

وقد أطلق مانيتون على هذه القبائل الآسيوية ، التى غزت البلاد حوالى ١٧٢٥ ق . م، اسم « الهكسوس » وهم رؤساء قبائل سامية من أصول سورية أو فلسطينية ، وقد دخلوا فى وادى النيل من الحدود الشمالية الشرقية للبلاد ، قريبًا من السويس ، وأقاموا فى الدلتا ، وانتشروا منها فى كل البلاد ، وأسسوا سلطة شبه مستمرة ومستقرة ، واتخذوا لأنفسهم اللقب الرسمى لملوك مصر ، واتخذوا لأنفسهم من « أواريس » فى شرق الدلتا عاصمة لهم ، كما توغلوا بعض الشيء فى مصر الوسطى [١] ، وبقوا فى مصر خلال حكم الأسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة وبداية السابعة عشرة ، وهى أسرات ضعيفة حكمت مصر العليا ورضخت لتواجد الغزاة فى الشمال .

واستمرت سيطرة الهكسوس على البلاد ، وحاولوا التقرب إلى المصريين بتبنى عاداتهم التى كانت ولا شك أكثر تحضرا من عاداتهم فى بلادهم ، كما حاولوا الحكم مثل الملوك المصريين القدامى ، بل إنهم اتبعوا التقاليد والديانة واللغة المصرية ، وحاولوا استمرار الفن القومى والبناء والتشييد ، ولكنهم رغم ذلك لم يتركوا أية آثار ذات قيمة تدل على حكمهم ، اللهم إلا القلعة التى بنوها لتكون عاصمة لهم فى اواريس (صان الحجر) . وقد ظل المصريون ينظرون إلى الهكسوس نظرة الكراهية والاحتقار ، ولم يطمئنوا لهم أو يتعاونوا معهم ، ولم يستطع الهكسوس القضاء على الروح الوطنية فى البلاد ، بل كانت تلك الروح تقوى مع الأيام [٢].

---

(١) - G. Jequier . op. cit p. 197
- Manuel . op . cit p. 12
- د. محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ص ١٠٢
- هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ص ٣٨

(٢) د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٢

الأسرة السابعة عشرة :

وكان الفراعنة قد انسحبوا إلى طيبة ، لتجنب صراع غير متكافئ ، إلى أن ظهرت فئة جديدة من أمراء طيبة ، أخذوا على عاتقهم تحرير البلاد من السيطرة والاحتلال الاجنبى ، فتسلحوا بالشجاعة والمهارات العسكرية ، واستمدوا من الحركة التى كانت تموج بها الجماهير كلها وقودًا للثورة ضد المستعمر الأجنبى .

وكان اجتماع هذه العوامل هو الأثر الفعال فى انهيار مملكة الهكسوس السابعة عشرة الذين قضوا نحبهم فى ميادين المعارك ، لذلك يستحق أمراء هذه الأسرة مركزًا شرفيًا ، ويمكن أن نطلق عليهم بحق أسرة الانتقام أو أسرة الاستقلال . لأن تاريخها هو تاريخ الكفاح ضد غزاة البلاد .والملوك الرئيسيين لهذه الأسرة هم : سقنن رع ثم أبنيه «كاموس و«احمس» ، وقد حكم الأول منهما مدة قصيرة على عكس احمس الذى حكم مدة أطول حتى أحرز النصر النهائى ، فطرد الهكسوس وطاردهم حتى سوريا سنة ١٥٨٠ ق . م .

ويعتبر مانيتون أن احمس هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة التى هى بداية عصر الدولة الحديثة ، أو عصر الإمبراطورية (١).

---

(١) - Joseph Cattaoui, Pacha.- Coup d'oeuil sur la chronologie de la Nation égyptienne, paris 1931. P.32

ـ د . ناصر الانصارى ـ موسوعة حكام مصر ـ القاهرة ١٩٨٧ص ١٧

الفصـل السـادس

عهد الدولة الحديثة أو مصر الإمبراطورية

(من حوالى ١٥٨٠ ق . م إلى ١٠٨٥ ق . م)

تمثل الدولة الحديثة أوج الارتفاع ، وقمة المجد للفراعنة ، وتبدأ هذه الفترة بتمام طرد الهكسوس من أرض مصر ، وهي تمتد خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، ثم تبدأ مرحلة انتقال ثالث فى الأسرة العشرين .

ويمكن أن نقول إن الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة قد أعادتا إلى مصر المجد الذى شهدته فى الأسرة الثانية عشرةمن عهد الدولة الوسطى ، ولكن الرخاء الداخلى كان أقل بسبب الحروب الكثيرة والصعبة التى خاضها ملوك هاتين الأسرتين . وفى خلال حكم هؤلاء الأمراء سيطرت مصر على شعوب كانت تفصلها عنها مسافات شاسعة ، كما كانت بينها وبينهم اختلافات فى الأعراق وفى العادات وفى الطبائع . ولم تتمكن مصر من فرض الطاعة على هذه الشعوب لمدد طويلة ، فانتهزوا فترات ضعف تالية للرد بغزوات فارسية أو آشورية كما سنرى .

الأسرة الثـامنـة عشـرة :

تضم هذه الأسرة عند مانيتون خمسة عشر ملكًا ، حكموا حوالى ٢٣٠ سنة . من ١٥٨٠ ق . م إلى ١٣٥٠ ق . م . تبدأ بأحمس الأول الذى طرد الهكسوس ،وأعاد مصر كلها للمصريين ، ثم بدأ فى تأمين حدود البلاد ، فاحتل النوبة عندالحدود الجنوبية ، وأخضع بلاد الشام وفلسطين شرقا ، وفرض عليهم الجزية .

ولما عاد أحمس إلى مصر كانت تنتظره مهمة إعادة تنظيم البلاد داخليا ، بعد أن كانت جهوده كلها موجهة للكفاح الحربى لمدة طويلة ، وكانت هذه هى المهمة التى أخذها على عاتقه ابن أحمس : « امنحتب الأول » وخلفاؤه تحتمس الأول وتحتمس الثانى .

وكنتيجة لطول الكفاح العسكرى أصبح لمصر جيش قوى ومنظم ومدرب ، وممارس لفنون الحرب لمدة طويلة ، وفوق كل ذلك هو جيش منتصر . وبهذا الجيش فتحت مصر عهدا جديدا ، هو عهد الفتوحات الخارجية العظمى ، فوصل به تحتمس الثانى حتى سوريا ونهر الفرات ، ووضع علامات حدوده هناك ، ثم توغل بجيشه جنوبا إلى مابين النهرين ، كما أنه وخلفاءه قد وجهوا حملات متتالية نحو الحبشة إلى أن تمكنوا منها[1].

وحكمت الملكة حتشبسوت ارملة تحتمس الثانى مصر كوصية على العرش لابن الملك، وهو تحتمس الثالث ، لمدة تبلغ سبعة عشر عاما ، وقد اتسمت فترة حكمها بالصرامة وقد ركزت أعمالها على مصر ذاتها ، ولم يكن لها من أعمال خارج مصر إلا البعثة التى أرسلتها إلى بلاد « بونت » . (الصومال الآن) فى جنوب البحر الأحمر . وهذه البعثة لم يكن لها أية أهداف عسكرية ، بل كانت تجارية وسياسية بحتة . وقد ادارت حتشبسوت البلاد بحكمة ، ومن آثارها الباقية مسلة الكرنك ، ومعبد الدير البحرى[2].

وتمكن تحتمس الثالث من الحكم منفردا لمدة ٤٨ سنة ، على رأى البعض ، وكانت فترة من امجد الفترات فى تاريخ مصر ، وقد تمكن بحملاته العسكرية المتعددة من الاستيلاء على فلسطين وسوريا حتى الفرات ومابين النهرين وكردستان وأرمينيا فى آسيا الوسطى ، وظلت هذه الاقطار تحت حكمه لمدة طويلة ، وبحالة مستقرة وثابتة ، أما جنوبا فقد توغل حتى وصل إلى الحبشة مارّا بالسودان الحالى والنوبة وأخضعها جميعا ، وفى البحر المتوسط أخضع قبرص وبعض الجزر اليونانية [3].

وقد خلف تحتمس الثالث ابنه امنحوتب الثانى ، ثم حفيده تحتمس الرابع ، ومدة حكميهما لاتترك الكثير ليذكره التاريخ لهما .

---

(١) - G. Jequier op. cit. p. 196
- J. Cattaoui - op. cit p. 34
- هند إسكندر عمون - المرجع السابق - ص ٤٤

(٢) - G. Jequier op. cit. p. 235

(٣) - G. Jequier op. cit. p. 237
- J. Cattaoui . op. cit.p. 38
- Manuel.. op. cit.p. 17

أما امنحوتب الثالث ، وهو ابن تحتمس الرابع ، فقد حكم مدة ٣٧ سنة ، وكان دبلوماسيًا بارعًا ، وسياسيًا قديرًا ، وإداريًا بارزًا ، وجنديًا شجاعًا ، وهو وإن لم يوسع فتوحات أسلافه (الواسعة فعلا) إلا أنه على الأقل حافظ عليها بكل اقتدار ، دون أية محاولة لثورات أو حركات ضده ، وأعماله في البناء والتشييد تشهد لعصره .

وخلفه ابنه امنحوتب الرابع تلك الشخصية المصرية العظيمة ، فقد تبنى في فترة حكمه ما اقتنع به من إصلاحات دينية ، تتمثل في القضاء على النفوذ المطلق والمتزايد لكهنة آمون ، إله طيبة ، والتي كانت توازي أحيانا نفوذ الملك . فاتخذ في سبيل ذلك إجراءات حاسمة بحذف اسم إله آبائه وأجداده ، وهدم ما بنوه له من معابد ، بل وحبس وطرد الكهنة ، وطمس اسم آمون من جميع النقوش ، ثم هَجَر طيبة كلها ومعه جميع أعضاء البلاط ، واتجه شمالا حيث أسس في مصر الوسطى مدينة جديدة هي« تل العمارنة » بالقرب من ملوى بالمنيا الحالية ، شيد فيها قصره ، واتخذها حاضرة له تحت رعاية الإله الجديد الذى اتخذه وجعله يحل محل جميع الآلهة الأخرى وهو « اتون » الذى يتمثل في قرص الشمس ، أو الإله القوى وراء الشمس ، وهذا التوحيد للآلهة في إله واحد كامن وراء الشمس ، يُعد هو الأول ن نوعه في حضارات الشرق القديم ثم اتخذ الملك امنحوتب الرابع لنفسه اسمًا جديدًا منسوبًا إلى الإله الجديد وهو اسم « اخناتون» بمعنى رونق الشمس . ثم اتخذ عاصمة جديدة هي . خوت آتون أي أفق قرص الشمس[1].

وبنى اخناتون القصور الجميلة ، ومعابد الإله آتون ، ومنازل ذات طابع خاص ، وقد تميز الفن في عصره بطابع خاص يتسم بالواقعية متحديًا العادات والروتين ، وهى نفس سياسته التي اتبعها في توطيد دعائم ديانته الجديدة .

إلا أن ملكًا بهذه العقلية والتطور لم يكن ليدوم مُلكه طويلاً ، فقد مات بطريقة غير واضحة . ومدة حكمه معلومة على وجه اليقين . وقد خلفه صهراه (زوجا ابنتيه) اللذان حاولا السير على منهجه إلاأن الثاني منهما ، وهو توت عنخ آتون ، قد أعاد فتح معابد طيبة وأعاد عبادة الإله آمون وغير اسمه إلى توت عنخ آمون .

وتنتهي الأسرة الثانية عشرة بأحد الوجوه النبيلة هو « حور محب » الذى أعاد تنظيم البلاد بعد تلك التقلبات الدينية التي كان لها عميق الأثر في كل النظم . فأعاد النظم القديمة ، وأرسل البعثات إلى النوبة ، وشيد الأبنية في أجزاء مختلفة من البلاد ، وأصدر مجموعة من القوانين تهدف إلى القضاء على العنف وحماية الضعفاء [2].

---

(١) - G. Jequier op. cit. p. 242

(٢) - G. Jequier op. cit. p. 245

الأسرة التاسعة عشرة :

خلف « حور محب » آخر ملوك الأسرة السابقة أحد قدامى الوزراء وهو « رمسيس الأول » ملكًا على البلاد ، ولما كان لايمت بصلة قرابة للأسرة الثامنة عشر ، فقد اعتبره مانيتون مؤسسًا لأسرة جديدة من ثمانية ملوك ، حكموا حوالى ١٤٥ سنة من ١٣٥٠ ق . م إلى ١٢٠٥ ق . م ولم تكن فترة حكم رمسيس الأول ذات تميز ، نظرا لقصر مدتها، أما ابنه « سيتى الأول » فهو أحد عظام الفراعنة ، إن لم يكن أعظمهم ، وقد امضى الجزء الأول من حكمه فى استعادة المستعمرات المصرية فى آسيا ، فاتجه نحو سوريا ووصل إلى بلاد الحيثيين فى آسيا الصغرى ، ثم مملكتى بابل وآشور على الفرات الأعلى ، ثم استدار نحو ليبيا بهدف القضاء على نفوذ بعض القبائل هناك ، كما أحكم السيطرة على بلاد النوبة والجنوب عموما ، ثم التفت سيتى الأول لإجراء بعض الأعمال الداخلية فى هدوء ، وقد ترك لنا من الآثار الهامة مايدل على اهتمامه بإقرار الأمن والسلام والرخاء ، فقد حفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر ، وفتح طريقًا جديدًا للقوافل إلى مناجم الذهب ، وأقام المسلات العظيمة وبنى الكثير من المعابد منها معبد « أبيدوس » وبهو الأعمدة فى معبد الكرنك ، ومقبرته التى نحت عليها جميع أعماله وفتوحاته [1].

تولى المُلك بعد سيتى الأول ابنه« رمسيس الثانى » ، وكان قد شارك أباه فى السنوات العشر الأخيرة من حكمه الطويل ، ثم انفرد بالحكم بعد موته ، وكان عمره حوالى ثلاثين عاما . ومن أهم أعماله العسكرية هى الحرب السورية عندما انتهزت الأمم الآسيوية الواقعة تحت السيطرة المصرية فرصة انشغال رمسيس الثانى فى القضاء على بعض الاضطرابات فى النوبة ، لمحاولة الإفلات من السيطرة المصرية ، وعلى الأخص الحيثيين ، الذين كانوا يتحينون الوقت لاستعادة استقلالهم ، وتزعموا كذلك محاولات استقلال كل من سوريا والعراق وأرمينيا وآشور . وبعد عشرين عاما من الصراع تمكن رمسيس الثانى فى « قادش » من اقتراح معاهدة للسلام ، تم بموجبها رفعهم من كل رمز من رموز الخضوع ليصبحوا حلفاء للمصريين ، وتم الاعتراف بهم على أجزاء من سوريا الشمالية ، بينما احتفظت مصر بسيطرتها على بلاد الكنعانيين وفنيقيا

---

(١) - G. Jequier op. cit. p. 247
- J. Cattaoui. op. cit. p 42
ـ هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧ .

وفلسطين ، وبين النهرين [١].

أما على المستوى الداخلى فقد أضاف رمسيس الثانى خلال مدة حكمه الطويلة ، التى بلغت حوالى ٦٧ سنة أمجادًا أخرى بما سَنَّهُ من شرائع وقوانين ، وبما قام به من أعمال البناء والتشييد ، حتى وصل الأمر بطيبة فى عصره أن أصبحت متحفًا للمعمار ، ومن أهم أعماله الباقية إلى الآن ، معبده فى «أبى سمبل» . ويذكر البعض عن رمسيس الثانى ، نظرًا لولعه الشديد بالبناء والتشييد ، أن وصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى إزالة اسم من سبقه من ملوك من آثارهم ليضع اسمه هو ، للإيحاء بأنها من أعماله هو، وهذا لايقلل من عظمته هو الآخر .

كان « مرن بتاح » هو الذى خلف « رمسيس الثانى » ، وهو ابنه الثلاثون ، الذى حاول الحفاظ على الانتصارات التى حققها أبيه دون اللجوء إلى القوة العسكرية ، فوقع فى خطأ عدم تدريب قادة للجيوش ، وعندما اتحد الليبيون واليونانيون وبعض شعوب البحر المتوسط ، وهاجموا بسفنهم الحربية الثغور المصرية دفعة واحدة ، كادوا يستولون على الدلتا ، ويصلون إلى « منف » لولا أن استعان « مرن بتاح » بالقادة الذين كانوا فى جيوش « رمسيس الثانى » ، فتمكن الجيش من رد هذا الغزو بعد معارك دامية ، مما ضمن لمصر الأمان من هذه القوات المغيرة لمدة طويلة بعد ذلك[٢].

وظلت مصر حتى ذلك الوقت محافظة على فتوحاتها فى آسيا وأفريقيا ، ولكنها لم تحاول الاستيلاء عليها أو ضمها .

أما الملوك الذين تولوا بعد « مرن بتاح » فقد كانوا ملوكًا ضعافًا ، منهم « سيتى الثانى » و«آمون مسس» و« رمسيس سبتاح » ، وهم لم يقدموا الكثير للبلاد ، بل سادت الفوضى فى حكمهم ، مما شجع المستعمرات الأسيوية على التخلص من النفوذ المصرى عليها .

---

(١) - G. Jequier op. cit. p.248
- J. Cattaoui . op. cit. p. 43
- Manuel ... op. cit . p. 21
- هند إسكندر عمون - المرجع السابق - ص ٤٨ .

(٢) Mamuel ... op. . cit. . p.24

الأسرة العشـــرون :

رمسيس الثالث هوأول ملوك هذه الأسرة ، وهو يعتبر آخر ملوك طيبة العظام ، فقد أعاد النظام للبلاد ، وصد هجمات تكتل الاعداء تحت قيادة الحيثيين ، وتمكن من الانتصار عليهم برًا وبحرًا . وكما انتصر على غزوة ليبية نصرًا مؤزرًا . فساد البلاد جو من الامن والسلام والامان . وقد شيد رمسيس الثالث الكثير من المبانى العظيمة التى تشهد على عظمته ، مثل تلك الموجودة فى مدينة « هابو » كما انه عمل على حماية التجارة والصناعة المصرية .

ثلاثون عاما حكم خلالها رمسيس الثالث البلاد ، ثم تتابع على الحكم بعده تسعة ملوك ، يحملون اسم رمسيس ، ولكنهم لايشبهون رمسيس الثانى والثالث إلا فى الاسم فقط دون العمل ، فقد كانوا ألعوبة فى أيدى رجال البلاط ، وكهنة آمون . ومع حكم رمسيس الثانى عشر آخر فراعنة الاسرة كان الانهيار الداخلى قد استشرى من جميع الوجوه . وحتى من الناحية الخارجية فقد شعرت الدول الخاضعة بحالة البلاد المتردية مما أدى بها إلى محاولات الاستقلال (١) ، بل والتفكير أحيانًا فى غزو مصر كما سنرى .

بعض الملاحظات عن عهد الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية :

تميز عهد الدولة الحديثة بالثراء والرخاء ، وبلغت حضارة البلاد مستوى لم تبلغه من قبل ، ويظهر ذلك فى معابد ذلك العصر الكثيرة ، والتى تتميز بالضخامة والفخامة ، وتشير إلى جمال الصناعة ، ودقة الفن . ومن أهم تلك المعابد :

الاقصر والكرنك والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وأبيدوس والنوبة وأبو سمبل . كما يتميز عهد هذه الدولة باتصال المصريين بالخارج ، واندماجهم فى علاقات وثيقة مع الشعوب المجاورة ، واشتراكهم فى الحياة الدولية عن طريق الغزو والفتح ، وأيضا الصلات الدبلوماسية ، وتزاوج الفراعنة من أميرات الدول الأخرى . كما كان

---

(١) - G. Jequier op. cit. p. 247

- Manuel ... op. cit. p. 24

- محمد إسكندر عمون - المرجع السابق - ص ٤٩ - ٥٠

- د. ناصر الانصارى - المرجع السابق - ص ٢٣ - ٢٤

للعلاقات التجارية أيضا دور كبير ، فقد اتسعت التجارة فشملت فينيقيا وسوريا وبونت والسودان .

ومما يميز الدولة الحديثة أيضًا تقدم العلوم ، وازدهار الأدب ، ورقى الحياة الاجتماعية ، وشيوع الترف في شتى مرافق الحياة ، من مسكن ومأكل وملبس وأدوات الزينة ووسائل اللهو والمتعة (١).

والسمة العامة لفراعنة ذلك العصر هي أنهم اختطوا لأنفسهم سياسة تتسم بالحكمة ، وهي عدم فرض ملكيتهم ، أي عدم ضم البلاد المفتوحة إلى مصر ، بل كانوا يعاملون ملوك هذه البلاد بالاحترام الواجب ، ثم كانوا يشيدون القلاع ليتركوا فيها حامية مصرية ، ولم يكونوا يتدخلون في السياسة الداخلية لهذه البلاد . حتى أننا نجد بلادًا مثل « فينيقيا » تتفادى الاحتلال المصرى لأراضيها بالاعتراف بالسيادة الطبيعية الفرعونية سواء على أرضها أو على جزر البحر المتوسط التابعة لها (٢) . وقد يكون لمساعدة الفينيقيين دخل في بناء فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الأساطيل التجارية ، التى جابت البحار ، واضعة مصر في مركز علاقات مستقرة مع موانى الصومال والشام .

---

(١) د . محمد جمال الدين مختار ـ المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢) Manuel ..... op. cit p. 19.

الفصـل السـابع

العصر المتأخر أو عصر الاضمحلال الأخير

(من ١٠٨٥ ق . م إلى ٦٦٣ ق . م)

يمكن أن نطلق على الفترة التى تضم الاسرات من الحادية والعشرين إلى السادسة والعشرين فترة الانهيار . وخلال هذا العصر المتأخر حدث بالفعل انهيار فى مختلف مجالات السياسية والاقتصاد والثقافة . ووصلت البلاد إلى دور انحلال لم تخرج منه إلا لفترات متقطعة وقصيرة ، فقد انفصلت عن الإمبراطورية معسكراتها فى الشمال وفى الجنوب ، وطمع فيها جيرانها الليبيون فحكموها بعض الوقت ثم آل الحكم إلى أسرات من أصل نوبى ، وفتحها آشور بانيبال واعتبرها ولاية آشورية لبضع سنين، بل وتغلغل فيها الوجود الاغريقى .

أما الفترة من الأسرة السابعة والعشرين ومابعدها فقد وضع الفرس مصر تحت سيطرتهم فى أغلب هذه الفترات ، إلى أن تمكن الإسكندر الاكبر من فتح مصر سنة ٣٣٢ق.م

الأسرة الحادية والعشرون :

فى عهد آخر ملوك الأسرة العشرين كان كبير كهنة آمون هو « حريحور » وكان يسيطر تمامًا على آخر فراعنة هذه الأسرة ، وهو رمسيس الثانى عشر ، ومع ذلك فقد أدى به جشعه ورغبته فى الوصول إلى التاج إلى خلع مليكه ، وأصبح هو الفرعون المؤسس للأسرة الحادية والعشرين ، حوالى سنة ١٠٩٠ ق. .وآل الحكم إلى كبار الكهنة للمرة الأولى . ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالبلاد موحدة ، فقد طرأت خلافات بين أمراء مصر العليا ومصر السفلى ، فقامت دولة أخرى فى الدلتها عاصمتها « تانيس » (صان الحجر) فى أقصى الشمال الشرقى للدلتا ، حيث يحكم الملك « سمنديس » وخلفاؤه وعاش أمراء « تانيس » مع أمراء « طيبة » على أسس من التراضى بين الطرفين ولكن على حساب البلاد .

فقد بدأت الدول الأسيوية الخاضعة تشب عن الطوق ، فلا تسدد الجزية لمصر ، وتهدد بفسخ المعاهدات ، وحاول أمراء الشمال إيقاف أو تأخير محاولات غزو هذه البلاد لمصر .[1]

فالأسرة الحادية والعشرون نصفها من « تانيس » (صان الحجر) ونصفها الآخر من « طيبة » وقد حكموا في وقت واحد ، وقد حاول ملوك طيبة الاستعانة بأهل الجنوب من أثيوبيا لتدعيم حكمهم وكان لذلك أثره كما سيظهر ..

الأسرة الثانيـة والعشــرون :

لابد من الإشارة إلى أن القوة العسكرية التي اكتسبتها مصر خلال عصر الإمبراطورية ، والتي حققت لها الفتوحات التاريخية ، كانت تعتمد في جزء صغير منها في أول الأمر على فرق من المرتزقة من السود ، ومن القبائل الليبية ، ومن أهل شروانه[2]. ثم اضطر ملوك الأسرة العشرون إلى زيادة قوات المرتزقة ، وعلى الأخص من الفرق الليبية التي تميزت عن غيرها ، مما قربهم من القصر الملكي ، بل حدثت بينهم وبين أميرات الأسر المالكة بعض الزيجات ، وكان من ذرية هؤلاء القادة الليبيين والأمراء المصريين « شيشنق » الذي تمكن من التربع على عرش البلاد مؤسسًا الأسرة الثانية والعشرين « الليبية » سنة ٩٤٥ ق . م وقد خلفه ملوك ليبيون أقوياء ، منهم« اوسركن الأول» و « تاكلوت الأول» و «أوسركن الثاني » و«شيشنق الثاني » والثالث والرابع .واتخذت لنفسها من « بوباسطة » قرب الزقازيق الحالية عاصمة لها [3].

وكانت هذه الأسرة من الأسر الحاكمة القوية ، وتركت بعض الآثار ، خاصة الموجودة في عاصمتهم في « بوباسطة » ، ويؤثر عن مؤسس هذه الأسرة أنه قاد حملة وصل بها إلى القدس ، ولكن نفوذ خلفائه ضعفت تدريجيًا ، وانقسمت البلاد إلى عدة إمارات .

---

(١)
-G . Jequier. op. cit. p. 250
- Manuel ... op cit. p 25
ـ د . ناصر الانصاري ـ المرجع السابق ص ٢٥

(٢) من شعوب البحر المتوسط وقد تكون جزيرة سردينيا الآن .

(٣)
- G . Jequier. op. cit. 253
- Manuel .... op. cit. p 25
ـ هند إسكندر عمون ، المرجع السابق ص ٥٢ .
ـ د . محمد جمال مختار ـ المرجع السابق ص ١٠٧ .

وانفصلت النوبة عن مصر ، حيث تأسست مملكة مستقلة ، اتخذت من مدينة «نباتا» قرب الشلال الرابع عاصمة لها .

الأسرة الثالثة والعشرون :

تعود « تانيس » (صان الحجر) فى الشرقية عاصمة مرة أخرى ، وفراعنة هذه الأسرة كان سلطانهم محدودًا ، إلا أنهم رغم ذلك تمكنوا من هزيمة ملوك طيبة ، مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى الحبشة ، ومن هناك شكلوا تهديدا مستمرا للحدود المصرية ، وقد انتهزوا فرصة الانقسامات فى الدلتا فى نهاية الأسرة الثالثة والعشرين ، فقام أحدهم وهو « بعنخى » وهو من أصل مصرى ، بل إنه من ذرية ملوك مصر الاقدمين من الأسرة الحادية والعشرين ، وكان يعتبر نفسه سليلهم ووريثهم الشرعى ، وكان يحلم بإعادة المملكة المصرية الموحدة إلى قديم عهدها ، وركب « بعنخى » النيل من الجنوب بأسطوله وجيشه ، وأخضع فى طريقه جميع المدن والنقط القوية فى مصر رغم المقاومة التى واجهها من الأمراء الآخرين له ، ولكنهم انتهوا بالخضوع التام له ، فعاد مرة أخرى إلى عاصمته فى الجنوب « نباتا » [1] . وترك للفراعنة الشرعيين منطقة مصر السفلى بشرط دفع الجزية [2] .

الأسرة الرابعة والعشرون :

كان أعدى أعداء بعنخى هو ملك « سابيس » (صا الحجر بمحافظة الغربية الآن) واسمه « تف نخت » الذى لم يستسلم له ، بل إنه انتحل لنفسه أيضًا الاسم المراسمى الكامل وهو « ملك مصر العليا والسفلى » وقد ورثه ابنه « بوخوريس» الذى اشتهر بأنه قانونى عظيم ، وقد قضى سبع سنوات فى معارك مع الاثيوبيين ، يحاول كل طرف أن يفرض سيطرته على الطرف الآخر ، وكاد بوخوريس أن يحرز النصر لولا بُعد « نباتا » جنوبا ، ويذكر التاريخ لبوخوريس أنه تمكن من إيقاف الملك الآشورى « سرجون » عند سوريا ، ومنعه من دخول البلاد ، وإن لم ينتصر عليه نصرًا حاسمًا ، إلا أنه اضطره إلى صرف النظر عن غزو مصر .

ولم يمض وقت طويل حتى تمكن أمير طيبة « شباكا » من إحراز النصر على «بوخوريس» وقتله وأنهى حكم الأسرة الرابعة والعشرين .

(١) G . Jequier, op. cit. p. 254

(٢) Manuel ... op cit. p 25

الأسرة الخامسة والعشـرون :

تمكن ملوك النوبة من الاستيلاء على مصر كلها حوالى سنة ٧٢٠ ق . م . وأسس «بعنخي» الأسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية ، ولكن سلطة هذه الأسرة كانت ضعيفة فى الدلتا ، لأن عددًا من الأمراء المحليين الاقوياء كانوا ينازعونها السلطة ، ولم تحكم هذه الأسرة إلا بضع عشرات من السنين .

ولما عاد بعنخي إلى نباتا تولى أمر البلاد « شباكا » الذى حاول الأشوريون فى عهده غزو مصر ، وكانوا بقيادة « سنخريب » مما اضطره إلى دفع الجزية اتقاء لشرورهم ، أما ابنه وخليفته « شباتاكا » فقد رفض دفع الجزية ، وحارب الأشوريين ولكنه انهزم أمامهم ، فوقعت البلاد فى قبضة الأشوريين ، ولم ينقذها من الاحتلال إلا الوباء الذى حل بالجيش الأشورى واضطره للانسحاب .

وكان « طهرق » هو رابع الملوك الأثيوبين فى هذه الأسرة بعد أن قتل سلفه «شباتاكا» وقد حدث فى عهده بعض الرخاء إلى أن عاد الأشوريون مرة أخرى بقيادة «أسرحدون» لغزو البلاد ، ووصل حتى منف ، ثم تمكن جنود ابنه « آشور بانيبال » من الوصول إلى طيبة[1].

وفى حوالى سنة ٦٦٢ ق . م تمكن خليفة « طهرق » الملك « تا أن واتى آمون » من دفع الأشوريين حتى الدلتا ، وعلى أية حال فإن الوجود الاشورى لم يستمر طويلا . .

الأسرة السادسة والعشرون : (النهضة) أسرة صاوية
(من حوالى ٦٦٣ ق . م إلى ٥٢٥ ق . م)

كان لأمراء « سايس » الذين كانوا يحكمون جزءا من الدلتا وضعًا متميزًا على رأس حركات التحرير منذ عهد « بوخوريس » سواء فى مواجهة الاثيوبيين أو فى مواجهة الأشوريين .

وكان « نخاو » ، وهو المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، قد نال اعترافا لملكه على البلاد من « اسرحدون » الأشورى ، ولكن المستفيد الحقيقى من هذا الاعتراف كان ابنه «بسماتيك» .

---

(١)
- G.Jequier . op. cit. p 255
- Manuel .... op . cit. p 27

ـ عبد إسكندر عمون ـ المرجع السابق ص ٥٤ .

ـ د . ناصر الانصارى ـ المرجع السابق ص ٣٦

فقد انتهز فرصة انشغال آشور في صراع مع بابل وعيلام وتمكن من طرد الحامية الآشورية من مصر ، وطاردها في فلسطين ، ثم عاد إلى مصر وأخضع أمراء الاقاليم ، واضطر الاثيوبيون إلى الانسحاب ، فخرجت البلاد في عهد « بسماتيك » من السيطرة الاجنبية المزدوجة ، وتمكن من توحيد البلاد ، وتميز عصره بأنه عصر اصلاح ونهضة ، وساد في عهده الرخاء والمجد سنوات طويلة بعد التمزق والانقسام والاحتلال (١).

ولجأ بسماتيك إلى تقوية جيوشه بفرقتين من المرتزقة الإغريق حتى يتمكن من تركيز السلطة في يده ، واستعادت القوة العسكرية المصرية سابق عهدها ، وبحث الفرعون عن وسيلة لإظهار هذه القوة ، فقام بحملات ناجحة على سوريا ، ثم شرع في تقوية الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية (٢).

بعد خمسين سنة من الحكم مات بسماتيك فخلفه ابنه « نخاو الثاني » ، الذى اشتهر في التاريخ بموقعة « مجدو » التى انتصر فيها على الجيوش السورية ، ثم حاول بعد ثلاث سنوات أن يتجه بجيشه ناحية الفُرات لمحاربة البابليين ، وتقابل مع جيش «نبو خذ نصر » عند « قرقميش » فلقى هزيمة ثقيلة مما اضطره للهرب تاركًا سوريا لعدوه في سنة ٦٠٥ ق . م .

ومما يؤثر عن عصره أن البحرية المصرية تمكنت من الدوران حول أفريقيا عن طريق البحر الأحمر ، ثم العودة عن طريق البحر المتوسط . وقد خلف نخاو الثانى بسماتيك الثانى ثم ابرييس ، وشبّت في عهد الأخير ثورة في البلاد وضعت أحد قواده على العرش ، وهو الملك أمازيس (أحمس الثانى) وحاول الملك البابلى « نبوخذ نصر » استثمار هذه الثورة في مصر ليستولى على الممتلكات المصرية في الأراضى السورية ، ولكنه لم يجرؤ على الوصول إلى وادى النيل (٣) . وكان أمازيس (أحمس الثانى) قد اضطر إلى زيادة الاعتماد على الإغريق مما زاد من أعدادهم حتى قامت مدن أغريقية بأكملها في الدلتا ، مثل « نقراطيس » وزادت التجارة والصناعة اليونانية في مصر ، مما

---

(١) - Manuel ... op . cit . p 28

- هند إسكندر عمون - المرجع السابق ص ٥٤ .

- د . محمد جمال الدين مختار - المرجع السابق ص ١٠٧ .

- د . ناصر الانصارى - المرجع السابق ص ٣٧ .

(٢) - G. Jequier . op. cit. p. 256 - 257

(٣) - G. Jequier. op. cit. p 256

أعطى الحق لميلاد الوجود الإغريق في مصر ، وكان هؤلاء الإغريق مبهورين بالحضارة المصرية [1].

الغزو الفارسي : الأسرات من ٢٧ إلى ٣١ (٥٢٥ ق . م ـ ٣٣٢ ق . م)

غزا « قمبيز » الفارسي مصر سنة ٥٢٥ ق . م ، فهزم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين ،و انتهك حرمة الديانة المصرية ، فابغضه المصريون [2] . وأصبح وادى النيل جزءا من الإمبراطورية الفارسية ، ولكنه رغم ذلك ظل جزءا يعامل معاملة خاصة تختلف عن باقى أجزاء الإمبراطورية الفارسية ، وكان وضع مصر متميزاً ، واحتفظت بإدارتها القديمة .

واعتبر الملك الفارسي نفسه وريثاً شرعيًا للفراعنة ، ووضع اسمه داخل « خرطوش» وأعطى نفسه لقب ملك مصر العليا والسفلى ، بل واللقب الحورسى المقدس ، ورغم ذلك كله فإنه لم يكتسب ود المصريين الذين تعودوا على الحرية ، وكانوا متشوقين إليها ، وقاموا في سبيل ذلك بالعديد من الثورات قُضى على أغلبها ، إلى أن تمكنوا حوالى سنة ٤٠٤ ق . م اثناء حكم دارا الثانى (داريوس) من أن يشبوا عن الطوق ويكونوا إلى جانب الأسرة السابعة والعشرين الفارسية .

الأسرة الثامنة والعشرون المصرية وهي مكونة من ملك واحد فقط هو « اميرتى » .

كان جَدُّه قدآمن بفكرة أن الموت في سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلا ل الاجنبى ، وترك الفرس الملك المصرى وأتباعه ليعيشوا في سلام بشرط عدم الاعتداء على الاقاليم الواقعة تحت السيطرة الفارسية [3] . وانتهز أميرتى الحفيد فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج من مخبئه على رأس أتباعه وأطلقوا نداء « حى على السلاح » في المصريين ، وهاجموا الفرس ، وتمكنوا من دحرهم خارج الحدود حتى سوريا ، واتخذوا من « سايبس » عاصمة لهم ، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات

---

(١) - J. Cattaoui . op . cit. p. 59

(٢) د . ناصر الانصارى ـ المرجع السابق ص ٣٧ .

(٣) Manuel .... op . cit . p 36

الملك « اميرتي » بعد ست سنوات ، فتمكن أحد أتباعه من الحكم وهو « نفوريت» مكونًا الأسرة التاسعة والعشرين ، الوطنية أيضا ، والتى بلغت مدة حكمها حوالى عشرين عاما من ٣٩٨ ق . م إلى ٣٧٨ ق . م ، .

ثم الأسرة الثلاثون ، وهى أسرة وطنية أخرى ، حكمت من ٣٧٨ ق . م إلى ٣٤١ ق م، وبذل ملوكها جهدا كبيرا فى البناء ، كما ازدهر فى عهدهم الفن وتقدمت التجارة (١). وملوك هذه الأسرة هم :

«نقطانب الأول» و « تيوس » و «نقطانب الثالث » .

وقد عملوا بهمة من أجل صالح البلاد داخليًا ، وكانوا فى كفاح مستمر خارجيًا ضد الفرس الذين كانوا يتحينون أية فرصة للعودة إلى مصر . وقد عادوا فعلاً بعد انتهاء هذه الأسرة . وكونوا الأسرة الحادية والثلاثين ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق . م إلى ٣٣٢ ق . م ، فقد استولى الإسكندر الأكبر على مصر ، وطرد الفرس منها ، وضمها إلى امبراطوريته الناشئة ، وبذلك أسدل الستار على ثلاثين قرنا من تاريخ مصر .

---

(١) - G. Jequier op. cit, p 260

الفصـل الثـامن

خاتمة العهد المصرى القديم

حاولنا أثناء استعراضنا للتاريخ المصرى القديم أن نعرض فى لمحات سريعة لبعض النظم التى كانت سائدة فى الجهاز الإدارى المصرى ، مثل الملك ومعاونيه ، واختصاصاتهم ، وطريقة ممارسة أعمالهم . كما تعرضنا أيضا للطبقة العامة ، والأعمال التى تُوكل إليها . وقد تبقى لنا أن نعرض لبعض نقاط أخرى تجدر الإشارة إليها ، ومنها العبادات ، والآلهة ، والعادات ، والكتابة المصرية القديمة ، والملك ، والمهن .

العـبـادات :

كان المصريون يؤمنون بوجود إلّه واحد أزلى أبدى ، هو الذى أوجد جميع الكائنات . وقد سادت قناعة لدى المصرى القديم أنه عاش من قبل تحت الرئاسة المباشرة لهذا الإله المعبود وهو « آتون ـ رع » ، ثم خلفه فى الحكم على الأرض ابنه « شو » ، ثم ابنه الثانى «كب » ، ثم وصل الأمر إلى « أوزيريس » ، وهو صاحب الأسطورة الشهيرة التى تتحدث عنه بأنه الطيب والحكيم ، أما أخوه الأصغر « ست » فهو إله الشر ، وهو الذى قتل أخيه ليتولى مكانه ، ويصبح هو خامس الفراعنة الآلهة . ولكن « حورس » ابن «أوزيريس » يتمكن بمساعدة أمه « إيزيس » من انتزاع الحكم من ست ، ويصبح هو سادس الفراعنة الآلهة ، وأصبح كل فرعون من بعده هو من أتباع أو من أبناء «حورس»[١].

وكان المصرى القديم يؤمن أن الإله الواحد ، الذى يؤمن به ، له قدرات عديدة ، فتعددت أسماؤه لكثرة صفاته ، ولكن مع الوقت وقع فى الشرك ، فقد أصبح يؤمن بوجود آلهة كثيرة تتعدد بتعدد أسمائها . ثم انتقل إلى الإيمان بالتجسيد الحى للآلهة فى إجساد الحيوانات ، حتى أصبح لكل مقاطعة حيوانها المقدس ، مثل التمساح

---

(١) - Manuel ..... op cit. p 2 - 3.

- ياروسلاف تشرنى - الديانة المصرية القديمة . ترجمة د . أحمد قدرى القاهرة ١٩٨٧ ص ٢٧ وما بعدها .

والثعبان والقط .. ولما كانت الزراعة هي أهم المهن وأكثرها انتشاراً فإننا نجد كثيرا من الآلهة ترتبط بها ، مثل « إيزيس » إلهة الأرض ، و« أوزيريس » إله النيل ، و « رع » إله الشمس ، و « أبيس » الذي يتمثل في شكل عجل . وكانت تقام لها المعابد ، وتقدم لها القرابين .

أما الطبقة المثقفة فقد ظلت على الاعتقاد بأن هذا التعدد في أسماء الآلهة ليس إلا رموزا لشيء واحد ، قد يكون هو إله العالمين ، أو الخالق ، أو منظم الكون ، والفرعون ليس إلا تجسيده الحي .

القـــرابين:

في العصور الأولى كانت القرابين التي تقدم للآلهة بقصد التقرب منها ، هي كائنات بشرية تتكون غالبا من أسرى الحروب . ولكن مع الوقت ندرت القرابين البشرية ، وأصبحت من الحيوانات أو الثمار والفواكه [1] .

القـــرين (الكا)

آمن المصري القديم بأن لكل شخص قرين يعيش في الخفاء معه ، وينزل مع الميت في نفس المدفن الذي تدفن فيه جثته ، ومن أجل تسلية هذا القرين حتى البعث في الحياة الأخرى كانت توضع حول المتوفى الاشياء التي كان يحبها أثناء حياته الدنيوية

الـــروح (البـــا)

أما الروح والتي لا تموت بطبيعتها ، فكانت تحاكم أمام « أوزيريس » عقب الوفاة ، وما أن يثبت نقاؤها حتى تقبل في رفقة الآلهة . أما إذا ثبت أنها مذنبة فيحكم عليها ، سواء بالمرور السريع في بحيرة من النار أو بعمليات تطهير تكون متتابعة وطويلة .

البـــدن :

كانوا يحاولون حفظ البدن بعد الموت سليما ، حتى تتمكن الروح من العثور عليه في حالة جيدة عندما تسمح الآلهة بالاتحاد بين الروح والبدن في الحياة الأخرى . ودليل نبوغهم في عمليات التحنيط هذه هو المومياوات التي وجدت بعد آلاف السنين في حالة جيدة .

---

(١) Maanuuel .... op . cit . p 48

العـادات والتقـاليد :

يتميز المصرى بالاحترام العظيم للحياة الإنسانية وبالتقدير الكبير للشيخوخة ، وهو يحب العمل ، ويميل للأعمال الطيبة الخيرة ، ولطاعة الوالدة ولاحترام المرأة عمومًا

وعلى الرغم من الكثير من العادات والمراسم الجنائزية ، والاهتمام بالموتى ، وتحنيط جثثهم فى الحضارة المصرية القديمة ، إلا أن الشعب المصرى القديم كان شعبًا يميل إلى البهجة ، ويتميز بالضحكة السهلة ، والابتسامة ، وخفة الروح ، وسرعة نسيان الأحزان والمضايقات اليومية .

ولكنه فى ذات الوقت يؤمن ببعض الخرافات ، وبالتالى بالسحر والشعوذة والتنجيم فى حياته العادية ، فنجده يؤمن بطرد الأذى ، وصرف عين الحسود عن طريق تعليق عصا سحرية أو عين رمزية مرسومة على القماش أو على الخشب ، كما كانوا يحملون بعض الأحراز الصغيرة للوقاية من الشر مثل الجعارين (١).

الأسرة والمرأة :

الأسرة المصرية القديمة متماسكة يسودها الاحترام ، والمرأة لها مكانة كبيرة داخل منزلها ، فهى بمثابة الملكة ، وهى تعمل وتقتصد وتتصرف فى دخل زوجها الهزيل المستقر ، الذى غالبا مايكون فى صورة عينية (غلة - زيت - نبيذ - جعة - ملوحة) . ويبيح القانون تعدد الزوجات ، ولكن الفقراء لايتمتعون بهذه الميزة غالبا لأسباب مادية(٢).

أما الأبناء فعادة ماترسلهم الأسرة فى سن مبكرة إلى مدرسة الحى ليتعلموا القراءة ومبادئ الحساب ، وإذا أظهر أحد التلاميذ بعض النبوغ قد يودع لدى أحد الكتاب الكبار حتى يضمن تعليمًا أفضل وبالتالى الانضمام إلى الطبقة المثقفة .

---

(١) - Manuel ... op . cit. p 42
- Schafik Allam . la vie quotidienne en Egypte ancienne. le Caire - 1983. p 47..]

(٢) شفيق علام - المرجع السابق - ص ٢١..

الزراعة والمهن :

من النقوش الموجودة على جدران المعابد المصرية القديمة يمكن أن نستنتج الأعمال التي كان المصرى يمارسها . ففي الحقول الحرث بالثيران أو بالأيدى أو البذر وزراعة العنب مثلا وقطفه ونقله وعصره يدويًا أحيانًا ، وآليًا أحياناً أخرى ، ثم صناعة النبيذ منه ، كما نجد جميع تفاصيل جنى القمح والكتان وحمله على ظهور الحمير ...

أما في خارج الحقول فنجد النحاتين ، سواء على الأحجار أو الخشب ، والفنانين والرسامين وأدواتهم ، والنجارين ، وصناع العصى ، والخزافين ، وعمال نقل الحجارة ، والمجدفين في مراكب النقل ، ودباغي الجلود ، وصانعي النعال ، والصباغين ، والحدادين، والصياغ والجواهرجية ، خاصة أن الذهب والفضة والنحاس والفيروز والحديد كانت معروفة [1] وإلى جوار هؤلاء جميعا الكتاب يؤدون العمليات الحسابية .

أما الصناعات الحربية فنجد على جدران المعابد كيف يتعلم الجنود الاستفادة من السلاحف أو الكباش لصناعة قواعد الأقواس والأسهم والهراوات وهي الأسلحة الرئيسية في المعارك .

الحاكم :

الفرعون منذ تنصيبه كسليل مباشر للإله سواء « حورس » أو « رع » أو « آمون » يصبح هو أيضا إلها ، ولكنه يظهر في صورة إنسان . وهو يمتلك الأرض المصرية كلها.

وهو الرئيس المطلق للأمة ، والقائد الأعلى للجيوش . أما أمراء الشعب فهم خدمة المطيعين من الوزير إلى الفلاح .

الكتـــابـة :

كان الظن السائد قبل كشف رموز أو حروف اللغة المصرية القديمة أنها ليست لغة ولكنها رموز مقدسة . وقد عكف العلماء على محاولة فك طلاسم هذه الرموز المقدسة إلى أن تمكن العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ ـ ١٨٣٢) من اكتشاف سر اللغة المصرية القديمة عندما قام بدراسة مقارنة لنص منقوش بثلاث لغات على أحد الأحجار التي عثر عليها بجوار مدينة رشيد الذى اشتهر من بعدها « بحجر رشيد » .

وقد تبين فيما بعد إن اللغة المصرية القديمة كانت تكتب بثلاثة أقلام أو بثلاث طرق، الأولى والتي أسماها الإغريق الهيروغليفية ، هي النوع الأصيل من الكتابة ، التي

---

(١) الن . جاردنر ـ مصر الفراعنة ـ ترجمة إلى العربية : د . نجيب ميخائيل ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ٥٧

تطورت منها كل الأنواع الأخرى ، وهى تقرأ أحيانا من أعلى إلى أسفل ، وأحيانا من اليمين إلى اليسار ، وفى أحيان أيضا من اليسار إلى اليمين .أما الطريقة الثانية فى الكتابة فهى الهيراطيقية وهى أسلوب الكتابة الذى يمارسه الكهنة فى كتاباتهم الدينية ، وهى اشتقاق من الهيروغليفية المختزلة ، ويغلب على هذه الكتابة التشبيك .

أما الطريقة الثالثة من الكتابة المصرية فتسمى أنكوريال (وطنى) . أما الدارسون المحدثون فقد احتفظوا بتسمية هيرودوت لها وهى اللغة الديموطيقية (شعبى) وقد تطورت هذه اللغة من الكتابة الهيراطيقية ، وعرفت من حوالى القرن الثامن قبلا الميلاد ، واستمرت مستعملة حتى القرن الرابع الميلادى ، وكان العامة يستخدمونها فى كتابة عقودهم وتحرير وثائقهم [(١)] . وكان حجر رشيد المشار إليه مكتوبًا بثلاث لغات هى الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية وهو عبارة عن نص قرارمن كهنة ممفيس على شرف بطليموس ابيفانس .

ومن مقارنة النصوص الثلاثة ببعضها تمكن شامبليون من حل رموز اللغة المصرية القديمة ، وأدى بذلك للبشرية خدمة جليلة .

---

(١) - Manuel .... op . cit , p . 35

ـ جيمس هنرى برستد ـ انتصار الحضارة ـ ترجمة د . أحمد فخرى ـ القاهرة ص ١٤٨ .

ـ آلن جاردنر ـ مصر الفراعنة ـ ترجمة د . نجيب مخائيل ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ ص ٥٣ .

ـ زكى شنودة ـ تاريخ الاقباط ـ جـ ١ ط ٢ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٩ .

الباب الثانى

الإسكندر والبطالمة

٣٣٢ ـ ٣٠ ق . م .

فى خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد كان نفوذ الدولة الفارسية يزداد فى منطقة الشرق . ولم تسلم المدن اليونانية من خطر الغزو الفارسى ، وأصبح الإغريق يرون فى فارس عدوا تقليديا يجتهدون فى قتاله والانتقام منه . ولم يكن وضع بلاد الإغريق ، الممزق فى مايمكن أن نطلق عليه دويلات المدن ، يسمح لهم بمواجهة عدو خارجى قبل توحيد صفوفهم وكلمتهم ، وقد استطاع الملك « فيليب » ملك مقدونيا ، وهى إحدى المقاطعات الواقعة شمال بلاد اليونان ، أن يقوم بهذا العمل ، وهو توحيد البلاد ، وتوسيع حدودها فى حوالى سنة ٣٦٠ ق . م . وبدأ استعداده لقيادة بلاد اليونان الموحدة تحت زعامته لغزو فارس ، إلا أنه أغتيل سنة ٣٣٦ ق . م . فخلفه ابنه الإسكندر الذى نفذ خطة أبيه ، فقاد الإغريق فى حربهم ضد الفرس سنة ٣٣٤ ق . م ، ولم تلبث الولايات الواقعة تحت الاحتلال الفارسى أن بدات ، فى الانهيار أمام الإسكندر فى طريقه نحو آسيا الصغرى ، حيث انتصر فى معركة « صوصة » عاصمة فارس ، ثم اتجه جنوبا ودخل سوريا وضم « صور » ووصل إلى « القدس » ثم « غزة » ، التى كانت بمثابة بوابة الفرس فى مصر ، فدخلها الإسكندر دون صعوبة بعد أن سلمها الوالى الفارسى دون مقاومة ، وقد استقبله المصريون بالترحاب لتخليصهم من الاحتلال الفارسى[1] .

وندرس فى هذا الباب أهم أعمال الإسكندر فى مصر ، ثم أعمال خلفائه البطالمة ، ثم أخيرا فى فصل ثالث أهم المؤسسات الحاكمة فى تلك القرون الثلاثة .

---

(١) راجع عند إسكندر عبون ـ تاريخ مصر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ٦٥

ـ د . مصطفى العبادى ـ مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ١٧ .

ـ د . ناصر الأنصارى ـ موسوعة حكام مصر ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ ص ٢٩ .

الفصل الأول

الإسكندر الأكبر فى مصر

منذ وصول الإسكندر إلى مصر سنة ٣٣٢ ق . م . عمل على اكتساب تعاطف الشعب المصرى معه ، فسارع بتقديم القرابين للألهة الوطنية فى معبد « بتاح » بل وتوج نفسه على نهج الفراعنة القدماء ، حتى يظهر فى ثوب ملك شرعى خليفة للفراعنة القدماء فيخلص له المصريون ، وزاد على ذلك بزيارته لمعبد الإله آمون فى سيوة [١].

تأسيس الإسكندرية :

بعد أن انهى الإسكندر مهمته فى فتح مصر اختار موقعا لبناء عاصمة جديدة لمصر هى الاسكندرية ، وقد وقع اختياره على موقع متميز محاط ببحيرة المريوطية من جهة وبالبحر المتوسط من الجهة الاخرى ، فوضع الاسكندر مشروع إنشاء مدينة تكون ميناء على البحر المتوسط ، تمر من خلاله التجارة إلى داخل البلاد من خلال بحيرة المريوطية ، التى ترتبط بأكثر من ترعة من ترع نهر النيل . وقد حرص الإسكندر على الإشراف بنفسه على تخطيط المدينة الجديدة ، وتحديد أماكن الاسواق والمعابد الإغريقية والمعابد المصرية للإلهة إيزيس .

وقد غادر الإسكندر مصر فى ربيع سنة ٣٣١ ق . م . لاستكمال فتوحاته ومواجهاته مع الفرس ، حتى تمكن من القضاء على نفوذهم ، ووصل بجيوشه إلى الهند . وقد مات الإسكندر الاكبر فى بابل سنة ٣٢٣ ق . م .

وقد اختلفت الآراء فى الأسباب التى كانت تكمن وراء فتح الاسكندر لمصر . فيرى البعض أنها كانت ضمن خطة حربية للاستيلاء على سواحل شرق البحر المتوسط ، ويرى البعض الآخر انه فتح مصر لعلمه بثرائها وبشهرتها بأنها « مخزن غلال العالم» ، وبالا ستيلاء عليها يؤمن الغذاء لجيوشه المتجهة إلى الهند .

---

(١) د . إبراهيم نصحى ـ مصر فى مصر البطالمة ـ فى : تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ص ٤ .

ولاشك أن للرأيين وجاهتهما ، والأرجح أن الرأيين يمثلان وجهين لخطة الإسكندر ، الوجه الأول هو الوجه العسكرى ، فلم يكن من الحكمة أن يتقدم بجيوشه من آسيا الصغرى إلى سوريا وفلسطين ، ثم يتجه إلى بابل ومنها للهند ، تاركا مصر فى يد عدوه الفارسى ، الذى يمكنه أن يقطع عليه خطوط إمداداته وطريقه إلى بلاده . أما الوجه الآخر فهو الوجه الاقتصادى ، على الأخص إذا علمنا أن مصر كانت لها علاقات مع الإغريق قبل قدومهم إليها ، فقد وجدت علاقات تبادل تجارى حيث كانت بلاد اليونان تعتمد على القمح المصرى للغذاء والبردى المصرى لصناعة الورق ، بالإضافة إلى الزجاج والخزف والفخار والمرمر ، بينما كان الجيش المصرى منذ نهاية القرن السابع قبل الميلاد يعتمد على الجنود المرتزقة من بلاد الإغريق [١].

تقسيم إمبراطورية الإسكندر :

غداة وفاة الإسكندر اجتمع قواده فى « بابل » لبحث مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية بعد وفاة مؤسسها الذى لم يكن قد وضع لها نظاما لوراثة العرش ، ودون أن يترك وصية يرشح فيها خلفا له . وبعد خلافات اتفق القادة على أن يرتقى العرش شاب معتوه يدعى « فيليب أرهيدوس » Philippe Arhidée كان أخًا غير شقيق للإسكندر ، مع الاعتراف فى ذات الوقت بحق جنين « روكسانا » زوجة الإسكندر الفارسية إذا كان ذكرًا فى مشاركة فيليب المُلك بمثابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية من الناحية الشكلية فقط ، أما من الناحية الواقعية فقد انقسمت بين قواد الإسكندر نتيجة للقرار الذى اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الإمبراطورية فيما بينهم ليحكموا بصفة ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية [٢].

وكانت مصر من نصيب قائد يدعى « بطليموس » الذى أسس حكم أسرة البطالمة التى حكمت مصر من ٣٢٣ إلى ٣٠ ق . م .

وينتمى بطليموس الأول إلى إحدى عائلات النبالة المتوسطة فى مقدونيا ، وكان صديقا أمينًا ومخلصًا للإسكندر ، كما كان له مكانة بين جنود الإسكندر ، وقد حارب بجانبه فى فارس والهند وأنقذ حياته مرتين [٣].

---

(١) د . مصطفى العبادى – المرجع السابق – ص ١٠

(٢) د . ناصر الأنصارى – المرجع السابق – ص ٤٠

(٣) Manuel de l'histoire d' Egypte - Alexandrie 1911.p 61

الفصل الثاني

أسرة البطالمة

٣١٣ - ٣٠ ق . م.

أسرة البطالمة أسسها « بطليموس » ابن لاجوس الملقب بالمُنقذ ، وقد حكم بطليموس وخلفاؤه حوالى ثلاثة قرون . من ٣٢٣ ق . م إلى ٣٠ ق . م .

ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وهى فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق . م . وهى فترة رخاء وثراء وقوة

المرحلة الثانية : وهى من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق . م تبدأ خلالها البلاد فى التخلف ، أو هى بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسها بسبب طموحات بعضهم الزائدة ، مما أدى فى النهاية إلى كثرة تدخل الرومان فى أحوال مصر الداخلية .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق . م . وهى التى وصلت البلاد فى نهايتها إلى الانهيار الكامل . وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكام يلجأون إلى الرومان للتدخل لإبقائهم على العرش ، وبالطبع يأتى الرومان للنجدة ، ولكنهم ينتهون بطرد آخر البطالمة ويقضون على هذه الأسرة فى معركة أكتيوم ٣١ ق . م

حكام البطالمة :

- بطليموس الأول « المنقذ » :

وقد تولى حكم مصر غداة وفاة الإسكندر بالنيابة عن أسرة الإسكندر ، وقد حصل على بعض الاستقلالية فى مصر ، وأصبح ملك مصر منذ ٣٠٥ ق . م .

سار بطليموس الأول فى سياسته الداخلية على نهج الإسكندر ، من إظهار وده للمصريين واحترامه لهم ، وحافظ على امتيازات المعابد والكهنة . وعاش المصريون وإلى جوارهم اليونانيين واليهود جنبا إلى جنب خاصة خلال حكمه ومن تلاه من أوائل البطالمة وبعلاقات حسنة [1] .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

وحتى لاتتركز الأعمال فى العاصمة الإسكندرية أسس بطليموس مدينة جديدة فى مصر العليا (الصعيد) بين سوهاج وجرجا ، وأطلق عليها اسمه « بطلمية أو بطوليميس» Ptolemais واعتبرها العاصمة الثانية لمصر من الناحية الإدارية .

وقد أجرى تقسيما إداريا جديدا يختلف عن ذلك الذى كان سائدا فى المقاطعات الفرعونية ، وأطلق على كل مقاطعة "Nem" وكل مقاطعة على رأسها حاكم Stratege ولكل مجموعة مقاطعات يوجد « حاكم أول » "Epistratege" .

أما الإسكندرية فكان لها تنظيم مختلف .

وفى سياسته الخارجية لم يمنع اهتمام بطليموس بالأمور الداخلية ، وتنظيم البلاد من الطموحات الخارجية وتقوية جيوشه ، وخلال الفترة من ٣٢٠ إلى ٣١٢ ق . م . تمكن بطليموس من هزيمة فلول الأسرة المقدونية ، وقادتهم الذين حاولوا مهاجمة مصر ، فهزمهم فى صور وغزة وجنوب سوريا والقدس [(١)].

ثم عقد معاهدة صلح بينه وبين « انتيجون » و«ديمتريوس » تم له بموجبها الاعتراف بولايته على مصر وبعض مدن ليبيا والجزيرة العربية على أن يترك سوريا .

وتمكن البطالمة من الاستيلاء على جزيرة قبرص ، وظلوا يحكمونها مع مصر حتى سنة ٥٨ ق . م . ومن الناحية الغربية تم ضم كل منطقة « برقة » أما جنوبا فقدوصلوا حتى « كردفان » و«دارفور » .

وقبل وفاته بعامين تنازل بطليموس الأول عن الحكم لابنه « بطليموس الثانى فيلادلفوس » بعد أن حكم مدة طويلة اتسمت فيها سياسته بالحكمة والمهارة ، وترك لابنه البلاد صلبة ومنظمة ومنتعشة [(٢)].

ـ بطليموس الثانى فيلادلفوس (المحب لإخوته) :

حكم من ٢٨٥ إلى ٢٤٧ ق . م . وقد اختاره أبوه دون إخوته ، حتى الأكبر منه سنا ، وقد خلق ذلك بين إخوته عداء فسببوا له فيما بعد اضطرابات داخلية وخارجية ، مما نشأ عنه حرج كبير له ، فحاربهم وحارب من انضموا إليهم فى « قبرص » ووصل به الأمر إلى عقد المعاهدات مع أعدائه للتغلب على إخوته ومن ناصرهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ .

فعقد معاهدة مع روما سنة ٢٧٣ ق . م ، وهى أشهر معاهداته مع الرومان . ويلاحظ أنه أول تاريخ يظهر فيه ذكر الامبراطورية الرومانية فى مصر ، وهى هنا من موقف المساواة مع بطليموس الثانى ، بينما سوف تظهر بعد قرنين من الزمان مع «بطليموس الحادى عشر» من موقع السيطرة التامة فى حكم الامبراطور «بومبى» .

وقد تمكن بطليموس الثانى فيلاد لفوس من السيطرة على سوريا وحتى بحر إيجة ، بالإضافة إلى بعض الجزر اليونانية ، وخلال هذه الحروب ظهرت قوة الأسطول البحرى المصرى ، الذى كان أقوى الأساطيل البحرية فى المنطقة [١] .

ولكن بطليموس الثانى فيلاد لفوس انهزم بهذا الأسطول القوى سنة ٢٥٧ ق . م . أمام ملك مقدونيا «أنتيجون» وعلى إثر هذه المعركة الخاسرة فقد بطليموس الثانى سيطرته على بعض الأقاليم فى سوريا والجزر اليونانية . وقرب نهاية حكمه الذى تميز بالحرب شبه المستمرة حاول أن يضع نهاية لهذه الحروب بأن زوج ابنته لأنطيوخوس حاكم سوريا [٢].

وكان لدى بطليموس الثانى فيلاد لفوس طموحا كبيرا فى أن يجعل من الإسكندرية أشهر مدن العالم من الناحيتين الفنية والتجارية، ومن أجل تنفيذ ذلك أجرى تحسينات كبيرة على الميناء ومن بينها بناء فنار الإسكندرية الذى يعد من عجائب الدنيا القديمة السبع .

كما طمح بطليموس الثانى إلى زيادة التبادل التجارى مع آسيا ، وفى سبيل ذلك عبر الطرق المؤدية من ميناء «كوبتوس» على النيل بالقرب من قنا إلى ميناءى «برنيس» و«القصير» على البحر الأحمر ، مما فتح للمنتجات المصرية الطريق إلى الهند ، كما أصلح قناة البحرين من خلال البحيرات المرة حتى تصل التجارة إلى جزيرة العرب من خلال السويس .

كما أنشأ بالفيوم مستوطنة يونانية ـ مقدونية زرع فيها العنب والزيتون . واهتم هذا الحاكم بالزراعة ووسائلها [٣].

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ .

ـ بطليموس الثالث « يوارجتيس »
من ٢٤٧ ـ ٢٢٢ ق . م .

بعد موت بطليموس الثانى فيلادلفوس تولى حكم مصر ابنه بطليموس الثالث الذى لقبه المصريون « يوارجتيس » (المحسن) .

وقد ورث عن والده جيشا قوامه مائتى ألف مقاتل من المشاه ، وأربعين ألفا من الفرسان ، وثلاثمائة فيل ، وألفى عربة حربية ، وأسلحة لثلاثمائة ألف محارب ، وألفى وسيلة انتقال خفيفة ، وألفا وخمسمائة سفينة حربية ، وثمانمائة يخت ذهبى ، بالإضافة إلى دخل سنوى كبير .

وبهذه الإمكانات الحربية الكبيرة اتجه بطليموس الثالث إلى الفتوحات الحربية ، ففتح سوريا وآسيا الصغرى وبعض المناطق المحيطة فى سنة ٢٤٦ ق . م ، دون مقاومة تذكر ، كما قضى على محاولات أخرى فى حرب ثانية فى سوريا انتهت بعقد اتفاقية عدم اعتداء لمدة عشر سنوات سنة ٢٤٠ ق . م بينه وبين الملك « سليوقس الثانى » وأصبحت معاهدة سلام بينهما [١].

وبناء على هذه المعاهدة احتفظ بطليموس الثالث بالمناطق المفتوحة فى آسيا الصغرى وطرابلس ودمشق وبجزيرة قبرص .

وقد نتج عن هذين الفتحين الكبيرين مجد عسكرى ومنفعة مادية ، وانعكس ذلك على حب المصريين له ، واستحق معه لقب « يوارجتيس » (المحسن) .

وبانتهاء حكمه تنتهى الفترات المزدهرة من حكم البطالمة (٣٢٣ ـ ٢٢٢ ق . م .) .

ـ بطليموس الرابع « فيلوباتور » : (المحب لأبيه) :

وقد خلف والده سنة ٢٢٢ ق . م . وحاول السير على نهجه بالمحافظة على المجد الخارجى لمصر فى حروبه فى أسيا الصغرى ، وقد توفى سنة ٢٠٤ ق . م . بطريقة مريبة ولم تعلن وفاته إلا بعد عام كامل .

ـ بطليموس الخامس « ابيفانس » :

بدأ حكمه سنة ٢٠٣ ق . م تحت حماية مجلس الشيوخ الرومانى (الناتو) ، وتحت وصاية اثنين من الأوصياء الفاسقين كانا المحركين الحقيقيين للقصر .

وفى عهده قامت الحروب بين ملوك مقدونيا من جهة وروما من جهة ثانية وسوريا

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .

من جهة ثالثة . وكان التفوق لروما ، وقد فقدت مصر في عهده بعض مناطق نفوذها في فينيقا وفلسطين .

وقد مات بطليموس الخامس ابيفانس في سنة ١٨١ ق . م . [1] وكان هذا الملك قد تزوج من كليوباترا الأولى ابنة انطيوخوس الثالث الملك السليوقي في سوريا [2].

ـ بطليموس السادس « فيلو ماتور » (المحب لامه):

من (١٨١ إلى ١٤٥ ق . م) وهو ابن سلفه بطليموس الخامس ، وكان حكمه مضطرباً ، ففي الداخل اضطر لاقتسام ملكه مع أخيه يوار جتيس الثاني . أما في الخارج فكان في صراع مستمر مع ملك سوريا « انطيوخوس الرابع » حتى أنه وقع أسيرا له سنة ١٧٠ ق . م . فقام أهل الإسكندرية بتولية أخيه يوارجتيس الثاني مكانه ولجأ البطالمة إلى روما لمساعدتهم في القضاء على الجيوش السورية ، وتم ذلك سنة ١٦٨ ق . م فرضخ انطيوخوس الرابع ، وانسحب إلى سوريا ، وحكم الأخوان مصر مناصفة ، ثم انفرد الأخ الأكبر بالسلطة مرة أخرى إلى أن مات في معركة أخرى انتصر فيها على السوريين على شاطئ الفرات سنة ١٣٥ ق . م .

ـ بطليموس السابع ابن السادس :

تولى سنة ١٤٥ ق . م . الحكم أشهر قليلة بوصاية أمه الملكة كليوباترا إلى أن عاد عمه يوارجتيس الثاني EVEGETEII من برقة وكان هذا العم قد قاسم بطليموس السادس حكم مصر في وقت ما .

ـ بطليموس الثامن ابن الخامس (يوارجتيس الثاني) :

وقد حكم مصر مناصفة مع أخيه بطليموس السادس فيلو ماتور حوالي سنة ١٦٩ ق . م . كما حكم من سنة ١٦٣ إلى ١٤٥ ق . م . إقليم « برقة » ثم عاد لحكم مصر منفردا من ١٤٥ ق . م إلى سنة ١١٦ ق . م .

وفي الفترة من ١٤٥ إلى سنة ١٢٩ ق . م حكم هذا الملك مصر بعنف شديد ، حتى أنه في سبيل بقائه في الحكم لم يتخلص فقط من أعدائه ، بل من ابن أخيه بطليموس السابع ومن ابنه هو ! .

أما في الفترة من سنة ١٢٩ إلى أن توفي سنة ١١٦ ق . م . فقد غير من سلوكه مع

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٢) د. ناصر الأنصاري ـ المرجع السابق ص ٤١

عائلته ، فصار حكيما وحريصا على النظام ، وعدوا للمزايا غير القائمة على أساس العدل الممنوحة للمقدونيين .

ويعتبر هذا الحاكم هو آخر من حكم مصر مستقلا[1] وبموته وقعت مصر فريسة للفوضى والاضطرابات .

فوقعت بين ملوك البطالمة المحدثين اغتيالات ونفى ، وكان الرومان لايكتفون بمراقبة مايحدث عن قرب ، بل إنهم كانت لهم أياد فى ذلك وكانوا يتدخلون أحيانا للتحكيم أو كقضاة بين المتخاصمين .

تدخل روما فى السياسة المصرية :

أصبحت الإمبراطورية الرومانية بعد استيلائها على قرطاج سنة ٢٠٢ ق . م . لاتطيق أن يكون أحد شعوب البحر المتوسط خارج دائرة نفوذها . فعلى كل شعب وعلى كل حاكم أن يلجأ إليها طالبا حمايتها أو التحالف معها وإلا يعد عدوا يجب القضاء عليه ، وبالتالى كانت روما تتدخل فى السياسة الداخلية لكل الدول ، وإذا لم تتمكن من ذلك تتذرع بأى سبب لمحاربة هذه الدولة وتضمها إليها كمقاطعة رومانية . وهكذا سقطت على التوالى مقدونيا واليونان وسوريا وبونتا .

وبدأت مصر تفقد موقعها المتميز ورفعتها التى تمتعت بها فى عهد البطالمة الأوائل ، ولم تحول معاهدة التحالف التى عقدها بطليموس الثانى فيلادلفوس مع الرومان دون محاولات روما وضع يدها على مصر .

ـ بطليموس التاسع ـ (المنقذ الثانى) ١١٦ ـ ١٠٧ ق . م :

وهو ابن بطليموس الثامن ، وقد حكم بالمشاركة مع أمه الملكة كليوباترا الثالثة .

ـ بطليموس العاشر : اسكندر الأول ١٠٧ ـ ٨٨ ق . م .

وهوأيضا ابن بطليموس الثامن واشترك أيضا فى الحكم بعد وفاة سلفه مع أمه كليوباترا الثالثة إلى أن ماتت هى سنة ١٠١ ق . م . فانفرد هو بالحكم .

ـ بطليموس التاسع : للمرة الثانية ٨٨ ـ ٨١ ق . م

مكث هذه المرة فى الحكم إلى أن توفى

ـ الملكة برنيقة :

بعد وفاة بطليموس التاسع لم يكن له وريث ، فتولت حكم مصر زوجته برنيقة الثالثة إلا أنه تم العثور على ابن للملك الاسبق بطليموس العاشر ، وكان فى روما ، فعاد

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧ .

إلى مصر وتزوج برنيقة وحكم تحت أسم بطليموس الحادى عشر (الإسكندر الثانى) وقتل سنة ٨٠ ق . م .

ـ بطليموس الثاني عشر : ٨٠ ـ ٥٠ ق . م . :

وهو ابن غير شرعي لبطليموس التاسع (سوتير الثاني) واتخذ لقب رسمى هوديونيسوس الصغير Neos Dionysos واشتهر بلقب « الزمار » Aulette ، وقد تزوج من كليوباترا السادسة . وفى عهده أزداد نفوذ روما على مصر حتى أن يوليوس قيصر زعيم الحزب الشعبي وقنصل روما وضع فى سنة ٥٩ ق. م مسألة ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية ضمن برنامجه السياسى .

وسعى بطليموس الزمار لكى يثنى قيصر عن خطته نحو مصر ، ودفع نظير ذلك ستة آلاف تالنتوم ، وهو يعادل حوالى نصف دخل مصر ، وبذلك أعلن قيصر اعتراف روما بالزمار ملكا على مصر .

ـ كليوباترا السابعة : (٥١ ق . م ٣٠ ق .) :

نشب صراع على السلطة فى مصر بين كليوباترا وأخيها آخر البطالمة ، ووقف قيصر إلى جانب كليوباترا ووصل إلى الإسكندرية بأسطوله الذى أحترق فى الميناء مما أضطره إلى البقاء بعض الوقت حتى سنة ٤٧ ق . م حتى حصل على مدد من جيشه فى سوريا وقضى على بطليموس لصالح كليوباترا [١].

وقد قتل قيصر فى منتصف مارس ٤٤ ق . م . بعد انتصارات متتابعة ، وكانت كليوباترا قد رزقت منه بطفل « قيصرون » كانت تعده لعرش البطالمة . ولكن التاريخ لم يمهلها . خاصة بعد التمزق الذى أصاب الجمهورية الرومانية عقب مقتل قيصر وانقسام القادة إلى فريقين ، أحدهما يضم قتلة قيصر وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس ، والثانى يضم أصدقاءه أو كتافيوس وليبيد ، وفى ذلك الوقت كان نجم القائد الرومانى ماركوس انطونيوس فى صعود ، نظرا لانتصاراته على كل من بروتس وكاسيوس ، ثم التقى بكليوباترا فى شتاء سنة ٤١ / ٤٠ ق . م . ولم يبق معها سوى بضعة أشهر فقد ظل مشغولا بحرب الفرس حتى سنة ٣٧ ق . م ، وكان فى ذلك الوقت قد تزوج شقيقة غريمه « أوكتافيوس » ، ولكنه تركها من أجل كليوباترا .

ونتيجة لذلك لم يسلم انطونيوس من مواجهات مع أكتافيوس .

وتم له القضاء على انطونيوس فى معركة « أكتيوم » فى سنة ٣١ ق . م .[٢]

وبهذه النهاية ينتهى حكم أسرة البطالمة لمصر وتصبح مصر للمرة الأولى فى تاريخها مجرد ولاية فى أمبراطورية أخرى هى الامبراطورية الرومانية .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ٨٤ .

الفصل الثالث

مؤسسات الحكم البطلمية

أنشأ البطالمة أداة حكومية قوية ، كانت ترتكز فى أول الأمر على ما كان سائدا فى مصر الفرعونية من نظم ، ولكنها مع الزمن أصبحت فى مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، وإن وصل بها الحال فى أواخر العهد البطلمى أن أصبحت أداة فاسدة ، لاهم لها إلا جمع الأموال بأية طريقة .

ونعرض فيما يلى لأهم المؤسسات التى كان البطالمة يمارسون الحكم من خلالها ،

الملـــك :

كان ملوك البطالمة يعتبرون أنفسهم خلفاء للفراعنة ، فخلعوا على أنفسهم صفة الألوهية ، واتخذوا الأسماء التقليدية المراسمية التى كان يحملها ملوك مصر السابقين . وبهذه الوسيلة أصبح من السهل عليهم إقناع المصريين بحقهم الإلهى فى الحكم ، مما قوى مركزهم فى العرش وبالتالى فى الحكم ، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة فى مواجهة رعاياهم من الإغريق لأن فكرة ألوهية الملك غريبة على ثقافتهم الهيلنستية ، مما ألجأ الملوك البطالمة إلى الاحتفاظ بأسمائهم وألقابهم الإغريقية فى مواجهة الإغريق وكذلك فى وثائقهم ، أما فى الوثائق المصرية وعند مواجهة المصريين فكانوا يظهرون بألقابهم وأسمائهم المصرية (١).

---

(١)- P. Jouguet l'Egypte sous - les - ptolemées. dans. precis de l'histoire égyptienne I.F.A.O .le Caire. p. 435

-P. G.Elgood . Les ptolemés d'Egypte. Paris- 1943- p 97

- E.Bevan.. History of Egypt under the ptolemaic dynastie, London - 1927- p. 135

ـ د . إبراهيم نصحى ـ تاريخ مصر فى مصر البطالمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٠.

ـ د . عبد المجيد الحفناوى ـ تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ـ الإسكندرية ـ بدون تاريخ

ـ د . شفيق شحاته ـ التاريخ العام للقانون فى مصر القديمة والحديثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٣.*

وكان الملك يعد صاحب مصر وله مطلق السلطات على رعيته ، وهو رئيس السلطة المركزية . والرئيس الديني للدولة ، وهو كبير القضاة ، والقائد الأعلى للجيش والأسطول.

وهو الذى يعلن الحرب ، ويعقد المعاهدات ، ويستقبل السفراء الأجانب ، ويبعث بسفرائه للدول الأجنبية .

كما أنه صاحب السلطة التشريعية ، فهو الذى يصدر القوانين التى تخضع لها البلاد كلها .

وبذلك كان الملك هو صاحب الكلمة العليا فى المملكة يرأس كل الإدارات ، والمصالح الرئيسية ، يعاونه كبار الموظفين التابعين له مباشرة على كل إدارة أو مصلحة هامة .

وقد سار البطالمة بالنسبة لوراثة العرش على القواعد التى كان يخضع لها الميراث العادى فى القانون الإغريقى . فالحق فى العرش ينتقل من ذكر إلى ذكر مع تطبيق قاعدة أولوية الإبن البكر ، وكان يحدث أن يشرك الملك معه ابنه البكر فى الحكم ، كما كان يحدث فى عصر الفراعنة . وفى وقت لاحق سمح للبنات بتوارث العرش فى حالة عدم وجود ذكور (١).

أما عن البلاط الملكى فقد حاكى البطالمة فى ذلك البلاط الفرعونى من حيث العظمة والأبهة ومنح الألقاب لكبار العاملين فيه (٢) ، ومع أواخر عهد البطالمة كان هذا البلاط يمتص جزءاً كبيراً من دخل البلاد .

الحكومـــة :

وجد البطالمة نظاما ما إداريا سائدا فى مصر منذ العصور السابقة عليهم ، وقد تفادوا إجراء تعديلات جوهرية فى أول الأمر على هذا النظـــام الذى تمكن من إحـكام

---

* ـ د . صوفى أبو طالب ـ مبادئ تاريخ القانون ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ .
ـ د . محمد الشقنقيرى ـ مذكرات فى تاريخ القانون المصرى . القاهرة ١٩٨٣ .
ـ د . محمود سلام زناتى ـ موجز تاريخ القانون المصرى ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .
ـ د . مصطفى العبادى ـ مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

(١) د . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢١ .

(٢) Dr. Nasser El Ansary . le Protocole dans le Droit Public égyptien - Thése Pour le doctorat d' Etat. Aix- en Provence - 1985 - p .130.

السيطرة على البلاد لآلاف السنين قبل وصول البطالمة . وإن كان هذا النظام ـ سبق أن أصيب ببعض التفكك والضعف قبيل فتح الإسكندر نتيجة للثورات الداخلية ولفترة الحكم الفارسي .

ولما كان الملك هو رئيس الإدارة الحكومية فقد استعان ببعض كبار المعاونين لتسيير هذه الاداة ، وكان أهم هؤلاء المعاونين هو موظف كبير يطلق عليه «ديويكيتس» "Dioi-ketes" واختصاصاته ذات الطابع الاقتصادي والمالي ، وصلاحياته الواسعة تجعل بعض المؤرخين يعتبرونه بمثابة وزير المالية والساعد الايمن للملك [1] . ويعاون هذا الموظف في أداء عمله جهاز كبير من الموظفين والمحاسبين يقومون بإعداد الإحصاءات السنوية وتقدير الضرائب .

وكان يوجد أيضا موظف كبير آخر يطلق عليه أرخيد يكاستس Archidikastes يمكن اعتباره بمثابة وزير العدل ، فهو على رأس نظام القضاء في مصر البطلمية ، وكان الجهاز الذى يشرف عليه معقدًا بعض الشيء ، نظرا لوجود أكثر من نوع من القوانين : فهناك القانون المصرى القديم ، ويطبق على المصريين . وقانون خاص باليونانيين والأجانب ، وقانون ثالث خاص بالمدن اليونانية . وبالتالى وجد قضاة مصريون وقضاة يونانيون ومحاكم خاصة لكل [2].

ووجد أيضا منصب هام آخر هو وزير الحرب ، الذى يشرف على تجنيد الجيوش ، ودفع مرتبات الجنود ، وتوزيع الإقطاعات الزراعية التى كان الملك يمنحها لهؤلاء الجنود [3].

ومن كبار الموظفين أيضا مايوازى وزير الاشغال « ارخيتكتون » Architecton كانت مهمته تحسين نظام الرى وصيانة وسائله [4].

وكان للملك البطلمي بصفته رئيس الجهاز التنفيذى أمانة أو سكرتارية تتكون من ثلاث إدارات رئيسية . الأولى خاصة بالمراسلات الملكية الواردة إلى الملك أو الصادرة

---

(١) د . إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ص ١٦

د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ١٢٠ .

د . محمود سلام زناتي ـ المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٢) د . محمد الشقنقيرى ـ المرجع السابق ص ١٨٠

د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣) د . إبراهيم نصحي المرجع السابق ص ١١٢ .

د . محمد الشقنقيرى . المرجع السابق . ص ١٨١ .

(٤) د . إبراهيم نصحي . المرجع السابق . ص ١١٤

عنه، والثانية خاصة بتلقى الشكاوى والتظلمات والالتماسات وعرضها على الملك ، والعمل على تنفيذ مايراه بشأنها ، والثالثة خاصة بالأوامر الملكية ، مهمتها صياغة القوانين والمراسيم التى يرغب الملك فى إصدارها ، والإعلان عنها لتنفيذها (١).

الإدارة المحليــــة :

احتفظ البطالمة بالنظام الذى كان يقسم البلاد إلى قسمين كبيرين ، مصر العليا ومصر السفلى ، وقُسِّم كل قسم من هذين القسمين إلى مديريات ، ولكنهم لم يحتفظوا بأسمائها أو عددها ، ووضعوا على رأس كل مديرية موظفا كبيرا أطلقوا عليه « القائد » أو الحاكم Strategos ، وكان هؤلاء القادة يستمدون سلطتهم من الملك ، فهم وكلاء عنه ينفذون إرشاداته وتعليماته . وكان هؤلاء القادة غالبا من الإغريق ، وكان لهم اختصاصات عسكرية أساسا إلى جانب الإشراف على الإدارة والشئون المالية وربما بعض الاختصاصات القضائية (٢).

وكانت كل مقاطعة تنقسم إلى عدد مختلف من الاقاليم Topoi . على رأس كل منها رئيس يطلق عليه توبارك ، ويضم كل إقليم عددا من المراكز أو القرى Komoi وعلى رأس كل منها رئيس يطلق عليه كومارك . وكانت هذه الوظائف فى أول الأمر توكل إلى المصريين ، لكن البطالمة لم يلبثوا أن اضعفوا هذه المناصب وانتهى بها الأمر إلى الاختفاء(٣).

ولابد من الإشارة إلى أن هناك مدن ثلاث اختصها الإغريق بنظام مستقل يختلف عن باقى المدن المصرية وهى الإسكندرية ونقراطيس وبطلمية أو بطوليميس .

فالإسكندرية هى العاصمة الجديدة للبلاد ، بها مقر الحكم ، وقصر الملك ، والإدارات الرئيسية للحكومة ، وكان اغلب سكان الإسكندرية من الإغريق ، وأقلية من اليهود . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح سكانها خليط من مختلف الأمم نظرا لمركزها التجارى ، ومن الناحية الإدارية كانت الإسكندرية تخضع للإدارة الملكية .

---

(١) - Jouguet - op. cit. p. 20
د . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٢ .

(٢) - Bevan . op. cit. p. 135
د . إبراهيم نصحى ـ المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) د . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٤ .

وفي عهد البطالمة الأوائل وجدللاسكندرية مجلس شورى Boulé وجمعية شعبية ، ولكن هاتين المنظمتين ألغيتا في عهد لاحق [1].

أما مدينة نقراطيس فهي مدينة إغريقية كانت قد تأسست في عهد الملك ابسمتيك الأول [2] ، وكانت هذه المدينة تعد موطنا للإغريق المقيمين في مصر . ويبدو أن هذه المدينة كان لها قانون خاص ، وكانت تطبق نظما أقرب ماتكون إلى نظم المدن الإغريقية.

إما مدينة بطلمية أو بطوليميس التي أنشأها بطلميوس الأول في صعيد مصر قرب أخميم ، لتكون موطنا للإغريق الموجودين فيه ، فكانت تتمتع بنظام سياسي مماثل لتلك النظم المألوفة في بلاد الإغريق ، فقد كان لها مجلس شورى Boulé ، وجمعية شعبية ، ومحاكم مستقلة ، وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين ، وكان المواطنون فيها ينقسمون إلى قبائل وأحياء .

الجيش والأسطـــول :

اتخذ بطليموس الأول من القوات التي كان الإسكندر قد تركها في مصر نواة لبناء جيش كبير . وكان الجيش البطلمي يتألف من ثلاث فئات رئيسية الفرق النظامية والفرق المصرية . وكانت الفرق النظامية قسمين : المشاة والفرسان .

ووجه البطالمة اهتمامهم أيضا نحو بناء أسطول بحري ضخم .

النظـــام الاقتصـــادي :

عني البطالمة بالنواحي الاقتصادية المختلفة ففي الزراعة اهتموا بضبط مياه النيل ، وحسن استغلالها ، وذلك بشق القنوات وإقامة الجسور وصيانتها واستصلحوا مساحات كبيرة من الأرض ، خاصة في الفيوم ، واهتموا بالإكثار من زراعة الحبوب ، وغرس الكروم والفاكهة . أما عن الصناعة فقد عملوا على توفير مايلزم من أدوات من أجل رفع مستوى الإنتاج الصناعي ، وتنظيم الحرف والصناعات تنظيما دقيقا ، وتقدمت صناعات كبيرة مثل صناعة النسيج واستخراج الزيت والملح واستغلال المناجم والمحاجر وإدارة المصارف المالية .

---

(١) د . إبراهيم نصحي . المرجع السابق ـ ص ٣٢ .
د . محمود سلام زناتي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢٨ .
(٢) انظر ماسبق ص ٥٠ .

كما عنوا بتجارة مصر الخارجية ، وتمكنوا من السيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، وأصبحت الإسكندرية أهم المدن التجارية في العالم القديم ، ووصلت منتجات مصر شرقا حتى الصين ، وغربا حتى أسبانيا ، وشمالا حتى بريطانيا ، وجنوبا حتى أواسط أفريقيا . إلا أن الظروف السياسية التي أحاطت بالبطالمة في نهاية دولتهم أدت إلى تدهور الزراعة والصناعة وانكماش النفوذ التجاري[1].

---

(١) د. إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤٠

الباب الثالث

الرومان

كانت في إيطاليا بلاد تعرف قديما باسم « لاسيوم » مؤلفة من ثلاثين مدينة مستقلة في إدارتها وشئونها الداخلية ، ولكنها متحدة مع بعضها في دفع الأعداء عنها . وكانت أهم تلك المدن هي : روما التي أنشئت سنة ٧٥٣ ق . م . واشتقت اسمها من اسم مشيدها « الأمير روميليوس » ، وكانت الحكومة الرومانية ملكية مطلقة ، تمكن ملوكها تدريجيا من إخضاع كل مدن « لاسيوم » وتوحيدها في دولة واحدة ما لبثت أن قويت وازدهرت وتوسعت إلى أن تمكنت من حكم جزء كبير من العالم المعروف يومئذ لمدة حوالي سبعمائة سنة فيما يعرف بالامبراطورية الرومانية .

وكانت مصر آخر أقطار المنطقة التي سقطت في أيدي الرومان ، وذلك عندما تمكن «أوكتافيوس» من الانتصار على قوات البطالمة في موقعة « أكتيوم » في سبتمبر سنة ٣١ق.م . ثم دخوله مصر وإخضاعها للامبراطورية الرومانية في اغسطس سنة ٣٠ق.م.

وكان نفوذ روما قد بدأ يتغلغل في مصر منذ عصر بطليموس الخامس في القرن الثاني قبل الميلاد ، وزاد مع وفاة بطليموس التاسع سنة ٨٠ ق . م . حيث كان الحكام البطالمة يلجأون إلى روما لتقوية مركزهم نتيجة للاضطرابات الداخلية وتنازعهم على الحكم ، حتى أصبح الملك البطلمي لا يستقر على عرشه دون رضاء روما عنه ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الإسكندرية [1].

وعندما ارتقت كليوباترا السابعة عرش مصر سنة ٥١ ق . م . قام صراع بين دولة البطالمة والرومان ، حاولت فيه تلك الملكة أن تستميل قلب يوليوس قيصر ومن بعده انطونيوس ، ولكنها اكتسبت كراهية الرومان ، فعقدوا العزم على التخلص منها ومن انطونيوس ، إلى ان تمكن أوكتافيوس (الإمبراطور أغسطس فيما بعد) من ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق . م .

---

(١) د . مصطفى العبادي ـ مصر من الإسكندر الاكبر إلى الفتح العربي ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص١٥١ ـ ١٥٢

وكانت مصر تتمتع بموقع جغرافي هام ، وثروة طائلة ، وكانت أهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية تتمثل في عامل اقتصادي هو القمح المصري الذي كانت روما تعيش عليه منذ وقت طويل .

وعمل أغسطس بعد فتحه لمصر على إزاحة كل ما يمكن أن يعوقه في الحكم ، فقتل انتيليوس ابن انطونيوس كما قتل قيصرون ابن كليوباترا من قيصر . أما الأبناء الثلاثة لكليوباترا من انطونيوس فكانوا أصغر سنا فأودعهم عند الزوجة الرومانية لانطونيوس ، وهي أخته أكتاف ، والتي كان انطونيوس قد هجرها من أجل كليوباترا ، وقد مات الصبيان بعد حين بينما تزوجت الفتاة أحد أمراء الولايات الرومانية .

ونعرض في الفصل الأول تطور الحكم الروماني لمصر على مدى حوالي ثلاثة قرون ، ثم نعرض في الفصل الثاني أهم النظم التي استحدثوها في السياسة والإدارة .

الفصـل الأول

مصر ولاية رومانيـة

باستيلاء أغسطس على مصر وقضائه على حكامها البطالمة يبدأ عهد جديد في البلاد ، تصبح بمقتضاه مصر ، ولأول مرة في تاريخها الطويل ، تابعة لإمبراطورية أخرى ، هي الإمبراطورية الرومانية ، ويختلف المؤرخون في الوضع القانوني لمصر داخل هذه الإمبراطورية الرومانية . فمصر بما كانت تتمتع به من تاريخ قديم ، وشأن متميز بين الأمم ، وموقع استراتيجي ، وقوة ومنعة وثروة واسعة ، لايمكن أن تصبح مجرد ولاية رومانية ، مثلها مثل باقي الولايات ، ودون الدخول في تفاصيل الجدل الفقهي الذي دار بين المؤرخين الأقدمين عن وضع مصر [1] يمكن الجزم بأن مصر كانت لها وضعا متميزا وفريدا بين ولايات الإمبراطورية الرومانية الأخرى . فقد وضع فيها أغسطس قوات رومانية لتأمين سلامتها ، ووضعها تحت إشرافه المباشر . وفي سنة ٢٧ ق . م قسمت الولايات الإمبراطورية إلى ولايات خاضعة للسناتو ، وولايات خاضعة للإمبراطور ، وكانت مصر من الولايات الخاضعة للإمبراطور مباشرة ، أما حاكم مصر من قبل الرومان فلم يكن كغيره من الحكام الذين كانوا يعدون نوابا للإمبراطور تحت اسم قائمقام قنصل proconsul أو قائمقام برايتور propraetor ، وإنما كان لقبه برايفكتوس praefectus أي (وال) أو حاكم عام . وكان لقبه الرسمي « حاكم عام الإسكندرية ومصر » كما وضع الإمبراطور قاعدة ألا يزور مصر أحد من رجال السناتو أو من طبقة الفرسان إلا بإذن خاص منه [2].

وأصبح الامبراطور الروماني هو الملك الرسمي للبلاد ، يتمثل في شخصه ماتمثل في شخص فرعون من قداسة وتاليه ، وكانت تخلع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة [3].

---

(١) راجع في تفاصيل ذلك : دكتور إبراهيم نصحي مصر في عصر الرومان في تاريخ الحضارة المصرية المجلد الثاني ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ص ١١١ ومابعدها .

(٢) - Manuel de l'hstoire de l'Egypte - Alexandrie - 1911 p 1oo

د . إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ١١٢ .

(٣) د. مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ص ١٦١

وقد ترتب على ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية فقدانها لاستقلالها السياسي ، وارتباط مصيرها بمصير الدولة الرومانية ، وذلك على خلاف ماكان عليه الحال في العصر البطلمي ، حيث كانت مصر دولة مستقلة تحكمها أسرة حاكمة من أصول مقدونية ، ولكنها تتشبه بفراعنة مصر الاقدمين في كل شيء .

أما من وجهة النظر التاريخية فإن تاريخ مصر السياسي تحت حكم الرومان يختلف تمام الاختلاف عن تاريخها في العصر البطلمي ، فلم يعد لها سياسة مستقلة أو تاريخ مستقل .

وتمتد فترة الحكم الروماني لمصر حوالي ثلاثة قرون ، ابتداء من ضمها للامبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور أغسطس سنة ٣٠ ق . م إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) إلى غربية عاصمتها روما ، وشرقية وعاصمتها بيزنطة (القسطنطينية فيما بعد) ووقوع مصر في نفوذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية .

وعلى امتداد هذه القرون الثلاثة اعتمد الرومان في توطيد سلطانهم في مصر على القوة . فاقاموا الحاميات العسكرية في الأماكن الرئيسة التي تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد ، في الإسكندرية وفي بابليون وفي طيبة وفي أسوان . ولم يكتف الرومان بالقوة العسكرية ، ولكنهم لجأوا إلى الأساليب السياسية بتأليب عناصر السكان المختلفةمن المصريين والرومان والإغريق واليهود على بعضهم ، ليضمنوا لأنفسهم إخضاع البلاد ، مما جعل الحياة السياسية في مصر خلال العصر الروماني تتميز بكثرة الفتن وشيوع الاضطرابات التي تباينت أسبابها ، واختلفت مظاهرها تبعا للعهود [1] . ولم يكد يمضي عام على الفتح الروماني حتى شبت ثورة في طيبة بسبب ضرائب جديدة كان الإمبراطور أغسطس قد فرضها قبل مغادرته لمصر عائدا إلى روما . وامتدت هذه الثورة إلى الدلتا ولكن الوالي الروماني تمكن من إخمادها بالعنف .

وفي عهد الإمبراطور كاليجولا (٣٧ ـ ٤١ م) بدأت سلسلة من الفتن كان أساسها الصراع بين اليهود والإغريق تم إخمادها والقضاء عليها ، ولكنها تجددت في عهد الإمبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) . وقد حاول بعض الأباطرة الرومان ، ومنهم تيتوس

---

(١) د . إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ص ١١٥

ـ د . مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ص ١٦٤ .

ـ د محمود سلام زناتي ـ موجز تاريخ القانون المصري ـ القاهرة ١٩٨٦ ص ٣٢٠ .

(٧٩ ـ ٨١م) وميتيانوس (٨١ ـ ٩٦م) أن يكتسبوا ود أهل مصر ، بإظهار الإجلال والاحترام للآلهة المصرية ، وفعلا نعمت مصر ببعض السكينة والهدوء في عهد الإمبراطور نرفا (٩٦ ـ ٩٨ م) وأوائل عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) ولكن مالبثت نار الفتنة بين الإغريق واليهود أن ثارت مرة أخرى ، وتطورت الأمور بسرعة ، وأصبحت المواجهة بين اليهود من جهة والسلطة الرومانية نفسها من جهة أخرى . فقد قام اليهود بثورتهم الكبرى سنة ١١٥م . التي ظلت نارها مستعرة قرابة العامين قتل خلالها الكثير من الرومان والإغريق والمصريين ، وعمدوا إلى تدمير الطرق والمعابد والمباني وإلى تخريب الممتلكات والحقول . وانتهت الثورة مع بداية حكم الإمبراطور هارديان (١١٧ ـ ١٣٨ م) الذي وجه عنايته إلى إصلاح ماأتلفته تلك الثورة وساد مصر بعض الهدوء في عهود الأباطرة الرومان التاليين وهم :

انطونينوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١م) وماركوس أورليوس (١٦١ ـ ١٨٠م) وكومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢م) وبرتيناكس (١٩٣م) وسفروس (١٩٣ ـ ٢١١م) [١].

ويعتبر القرن الثالث الميلادي من الفترات الهامة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، لما يتميز به من أنه فترة انتقال من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى ، وما أحاط بذلك من تغيرات جوهرية في ظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، ومن أبرز أحداث هذه الفترة : كثرة الانقسامات السياسية ، والتنازع حول العرش ، وتدخل الجيش لتعيين أو عزل أو قتل الأباطرة . وكان للمصريين نصيب من هذه الأحداث ، وكان موقفهم بصفة عامة هو مناصرة كل دعُى للعرش أو ثائر على السلطة المركزية في روما ، وذلك لاظهار كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني [٢].

وتعتبر الفترة التاريخية الممتدة من عهد الإمبراطور كراكلا (٢١١ ـ ٢١٧م) إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) من الفترات العصيبة التي كثرت فيها المحن والمؤامرات والانقسامات السياسية والحروب الأهلية في معظم أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وبالطبع لم تشذ مصر عن غيرها من الولايات فقد كان لها نصيبها من هذه الأحداث .

---

(١) راجع في تفصيل ذلك د . إبراهيم نصحي المرجع السابق ص ١٢٠ . وما بعدها ود. مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) د . مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ، ص ١٩١ .

وفى منتصف القرن الثالث لاحظ الإمبراطور ديقيوس (٢٤٩ ـ ٢٥١م) أن المسيحية قد زاد انتشارها وبدأ أنصارها يظهرون كقوة لها حسابها فى الحياة العامة فقرر القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء مبرمًا فى أنحاء الإمبراطورية . وشهدت مصر اضطهادا للمسيحيين بالتعذيب والصلب والقتل حتى لم ينج منهم إلا من فر إلى الصحارى أو التجأ إلى المقابر والكهوف [١].

وكانت الفترة التى أعقبت عهد هذا الإمبراطور من (٢٥٢ ـ ٨ ٢٦م) فترة تطاحن بين أدعياء العرش فى روما ، بينما ساد بعض الهدوء فى مصر مما سهل للملكة زنوبيا ملكة تدمر [٢] (بالميرا) الاستيلاء على مصر (٢٦٩م) لمدة عامين فقط ثم نجح الامبراطور اوريليانوس (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) فى القضاء على نفوذ تدمر فى مصر ، بل واستولى على تدمر نفسها .

وغادر الإمبراطور أوريليانوس مصر وعهد بها إلى أحد قواده ، وهو بروبوس ، لإخضاع قبائل البلميس ، الذين كانوا قد توغلوا فى جنوب مصر . وظل بروبوس واليا على مصر قرابة الخمس سنوات ثم نادى به الجيش المصرى امبراطورًا على روما [٣] (٢٧٦ ـ ٢٨٢) ولكنه قتل بواسطة جنود الجيش الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة التالين له ، خلال عامين إلى أن تمكن من الأمر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) .

ورغم أن عصر الإمبراطور دقلديانوس يدرسه بعض المؤرخين على أنه واقع فى حقبة الحكم البيزنطى لمصر [٤] . إلا أن أغلب الآراء على أن هذا العصر هو نقطة التحول بالإمبراطورية الرومانية ، لأنه هو الذى أدخل إصلاحات عديدة على النواحى المختلفة فى الدولة ، من أهمها أنه رأى أن يتولى الحكم اثنان من الأباطرة فى نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب [٥] . وحدث فى عهده أن خرج عن طاعته واليه فى الإسكندرية ، فسار إليها وحاصرها ثمانية أشهر ، ثم فتحها عنوة ، وأطلق جنوده فيها ينهبون ويقتلون ويحرقون .

---

(١) هند إسكندر عمون ـ تاريخ مصر ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص ـ ٨٣ .

(٢) تدمر (بالميرا) إمارة كانت تقع فى الصحراء الفاصلة بين بابل وسوريا تميزت بنشاطها التجارى الكبير وكانت من الولايات الرومانية ولكن طموح إحدى ملكاتهم وهى زنوبيا جعلها تفكر فى إقامة امبراطورية من الولايات الشرقية ومنها مصر .

(٣) د . مصطفى العبادى المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) د . مصطفى العبادى . المرجع السابق ص ٢٩٠ .

(٥) د . إبراهيم نصحى المرجع السابق ص ١٩٨ .

ومن محاولات دقلديانوس فى إعادة تنظيم الإمبراطورية انه رأى فى القضاء على المسيحية نجاة من الاختلافات والانقسامات فى الرأى ، فاعتبر المسيحية فى عصرها الأول حركة مناهضة للنظام الإمبراطورى المتوارث وبدأ تنفيذ فكرته هذه بوسائل سلمية ، ولكنه لم ينجح فلجأ إلى الاضطهاد ، وهو أقسى اضطهاد عرفه المسيحيون فى سنة ٣٠٣ م . وأقام المذابح للمسيحيين وأحرق الكتب المقدسة ودمر الكنائس وصار هذا التاريخ يؤرخ به عند مسيحيى مصر . وهو تاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية ... وإستمر اضطهاد المسيحيين على أيدى أباطرة الرومان بعد دقلديانوس حتى سنة ٣٢٣ م عندما تولى الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧م) وأصبح أول امبراطور مسيحى للامبراطورية الرومانية واعترف رسميا بالديانة المسيحية . وبتولى هذا الإمبراطور أمور الإمبراطورية الرومانية الشرقية حسب تقسيم دقلديانوس يبدأ فى مصر عهد جديد ، هو العهد البيزنطى .

الفصــل الثــانــى

نظام الحكم والإدارة لدى الرومان

صارت مصر بالفتح الرومانى إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية . وكان الامبراطورية يختار لمصر الولاة لتدبير الأمور ، وكان الوالى يستعين فى إدارة شئونها بعدد من كبار العاملين فى الإدارة المركزية وفى الأقاليم . ولم يترتب على دخول مصر فى الدولة الرومانية تغيرات هامة فى إدارة البلاد ، لأن سياسة روما بوجه عام فى خلال فتوحاتها فى الشرق ، كانت تقضى بتجنب التدخل قدر الإمكان فى نظم البلاد التى كانت فيها إدارة منظمة ، ولذلك فقد سارت الإدارة الرومانية على النظام الذى كان البطالمة قد وضعوه ، اللهم إلا بعض التعديلات ، وبعض التطوير مع مرور الوقت ونعرض لنظام الحكم والإدارة فى العصر الرومانى بدراسة سلطات الإمبراطور والوالى والإدارة المركزية والإدارة المحلية وتطوراتها خلال القرون الثلاثة من الحكم الرومانى لمصر .

الإمبراطــور :

كان الإمبراطور الرومانى يعد بالنسبة لمصر الملك الشرعى للبلاد ووريث الفرعون . وأصبحت صورته تظهر على المعابد فى زى الفراعنة ، مثلما كان يفعل البطالمة ، وعلى رأسه التاج المزدوج للوجهين القبلى والبحرى ، واسمه محفور داخل خرطوش بالهيروغليفية . لكن الإمبراطور لم يكن يدير شئون مصر بنفسه وإنما كان يعهد بإدارتها إلى موظف يختاره كان يسمى والى مصر[1].

الــوالى :

وكان والى مصر يحمل لقبا لم يحمل مثله حاكم أية ولاية أخرى وهو «برايفكتوس "praefectus" أى (وال) أو حاكم عام ، وكان ذلك بقصد تمييز مصر عن غيرها من ولايات الإمبراطورية الرومانية . فكان والى مصر يعد أهم وال من طبقة الفرسان فى الإمبراطورية كلها .

---

(١) د . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٢

و د. مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٧.

ويعتبر والى مصر هو نائب الإمبراطور ، وهو الحاكم الفعلى للبلاد ، وكان يستمد سلطانه من الإمبراطور ، حيث كان يخضع له خضوعا تاما فيما يتعلق بتعيينه وعزله ، وكان الوالى يقيم فى العاصمة الإسكندرية .

والوالى هو الرئيس الأعلى للإدارة والعدالة والجيش والشئون المالية ، ورغم أن لقبه الرسمى كان وال أو حاكم ، إلا أنه كان يمارس السلطات التى مارسها من قبله ملوك البطالمة ، وكانت سلطاته مطلقة وغير مقيدة .

ومن اختصاصاته كرئيس أعلى للإدارة المدنية أنه كان يتولى تعيين كبار الموظفين الذين يستعين بهم فى إدارة شئون البلاد ، وإن كان الإمبراطور يتدخل أحيانا لتعيين بعض كبار الموظفين كمعاونين للوالى ومراقبين له فى ذات الوقت . وكانت اختصاصاته على النواحى المالية للبلاد هى أبرز مهامه ، فعليه جباية الضرائب التى يحددها له الإمبراطور ونقلها إلى روما . وهو الذى يشرف على كيفية إنفاق الدخل المخصص لمصر.

ومن اختصاصاته العسكرية أنه يعتبر قائد الجيش الرومانى فى مصر ، وكان فى بادئ الأمر يقود الجيش بنفسه ، ويشرف على نظام التجنيد ، والنظر فى مسائل الأحوال الشخصية الخاصة بالجنود[1].

أما اختصاصه القضائى فيتمثل فى أنه كان يعتبر القاضى الأول للولاية ، وأحكامه نهائية ، وله الحق فى النظر فى القضايا المدنية ، بل وفى بعض الأحيان فى المسائل الجنائية . وفى بعض الأحيان يفصل الوالى بنفسه فى القضايا التى ترفع إليه ، ومستعينا بمجلس قضائى ، أو يفوض بعض معاونيه من رجال الإدارة للفصل فيه .[2]

معاونــو الوالــى :

كان الإمبراطور يتولى تعيين بعض كبار الموظفين من الرومان لمعاونة الوالى فى المناصب الرئيسية ، وأهم هذه المناصب هى المساعد القضائى ، وكان يدعى بالإغريقية « ديكايودوتس "dikaiodotes" وباللاتينية « يوريديكوس "juridicus" وكان بمثابة المستشار القانونى للوالى حتى لاتتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادئ القانون فى روما[3] . وكان يحل محل الوالى عند غيابه ، أو عند وفاته فى انتظار وصول الوالى الجديد

---

(١) د . محمد الشقنقيرى ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٣ .

(٢) د . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٤ .

(٣) د . إبراهيم نصحى ـ المرجع السابق ـ ص ١٢٥ . ود . محمود سلام زناتى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٥ .

أما في الشئون المالية فكان يعاون الوالي : المشرف المالي « الديوكيتس dioketes" وهو الذي حل محل المشرف المالي في العصر البطلمي ، الذي كان اختصاصه كاختصاص وزير المالية ، وقد فقد بعض أهميته في العصر الروماني ، وأصبح مجرد معاون للوالي في الشئون المالية لإعداد عناصر تقدير الضريبة والإشراف على جبايتها.

وبجانب المشرف المالي وجد منصب آخر ذو اختصاصات مالية ، هو مراقب الحسابات الخاصة « ايديولوجوس idiologos" وكانت من واجباته تحصيل الغرامات ، وتنفيذ المصادرات ، والإشراف على إدارتها كما كان عليه الفصل في القضايا الخاصة بالخزانة (١).

كما وجدت مجموعة من المعاونين يطلق عليه المشرفون المتخصصون « بروكيراتور procurator" للإشراف على إدارات فرعية معينة ، وفي مقدمتهم المشرف على مخازن الغلال ، وكان يتولى الإشراف على جمع الغلال ونقلها إلى الإسكندرية ، حيث كانت تخزن تمهيداً لنقلها إلى روما ، وكذلك المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة ، والمشرف على التموين ، والمشرف على المناجم والمحاجر ، والمشرف على الفنار في الميناء .

ووجد أيضا رؤساء إداريين يعدون حكام المناطق الثلاث التي قسمت إليها البلاد ، وهي الدلتا ومصر الوسطى والصعيد . وعلى رأس كل منها « ابيستراتيجوس Epistrategos" يتولى الإشراف على شئون منطقته ، ولم يكن له أي اختصاص عسكري ، وإنما اقتصرت اختصاصاته على أعمال الإدارة . وكان هؤلاء الحكام يقيمون غالبا في الإسكندرية ، ويقومون بجولات تفتيشية في مناطقهم من وقت لآخر ، ويكتفون بالتقارير التي ترد إليهم من موظفيهم المحليين بصفة منتظمة ، وكان عليهم بدورهم أن يقدموا تقريراً عن أعمال ادارتهم إلى الوالي . وقد إختفت هذه المناصب بعد إصلاح دقلديانوس الذي قسم مصر إلى ثلاث ولايات على رأس كل منها حاكم مستقل (٢).

الإدارة المحليـــة :

استمر الحال خارج العاصمة الإسكندرية على ما كان عليه في العصر البطلمي من

---

(١) د إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٣ .

د . محمد الشقنقيري ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٤

د . محمد سلام زناتي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٦ .

(٢) د . محمود سلام زناتي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤٧ .

تقسيم البلاد إلى أقاليم ، على رأس كل إقليم حاكم يمثل الوالي يعاونه عدد من الموظفين . وقد اعترف الرومان لعواصم الأقاليم ببعض الاستقلال في إدارة شئونها الخاصة .

وكان حاكم الإقليم ويطلق عليه « ستراتيجوس Strategos" يختار من بين الإغريق أو المصريين المتاغرقين ، ويمارس وظيفته لمدة ثلاث سنوات ، وكان اختصاصه نشر أوامر الوالي ، والإشراف العام على شئون الإقليم ، وبعض الاختصاص القضائي البسيط . ويعاون هذا الحاكم الكاتب الملكي ، وهو الذي ينوب عنه عند غيابه [1] وكانت أهم اختصاصاته في الشئون المالية [2] ، وهو يحتفظ بالسجلات والوثائق والحسابات الخاصة بالإقليم [3].

إلى جانب هذه الوظائف ، التي كانت تمثل السلطة المركزية في الإقليم ، وجدت منذ بداية العصر الروماني وظائف أخرى ، ذات صبغة محلية في عاصمة كل إقليم ، وكان الغرض الأساسي من هذه الوظائف هو أن يهتم مواطنو كل إقليم بشئون مدينتهم الخاصة ، مثل الإشراف على تموين المدينة من المواد الغذائية الأساسية من القمح والزيت، والإشراف على السوق ، والإشراف على الجمناز يوم الذي كان يعد مركزاً للحياة الاجتماعية ومعهدا للتربية الرياضية والعقلية .

أما الوحدة الإدارية التالية للإقليم ، فكانت القرية ، وكاتب القرية هو أكبر الموظفين فيها ، وهو المسئول عن إمداد الإدارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية ، فيما يتعلق بالضرائب ، أو الخدمة الإجبارية ، وهو المسئول عن عمل قوائم بأهل القرية ،وعدد الرجال البالغين فيها ، ومقدار ملكية كل شخص ، وما يقع عليه من ضرائب أو خدمات إجبارية ، مثل بناء الجسور ، وحفر الترع ، وتطهير القنوات ، وما إلى ذلك . وهو يرفع تقريرا سنويا عن حالة الأرض في القرية ، وحالة الفيضان ، وأنواع المحاصيل ، حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية عنها [4].

المـــدن الإغريقيـــة :

المدن الثلاث الإغريقية ، التي كانت موجودة منذ عهد البطالمة ، وهى الإسكندرية ،

---

(١) د . محمود زناتي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤٩ .

(٢) د . إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ١٢٤ .

(٣) د محمد الشقنقيري ـ المرجع السابق ـ ص ٢١٨ .

(٤) د . مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣١ .

وبطلمية أو بطلوميس ، ونوقراطيس ، ظلت قائمة في العصر الروماني ، وأضيفت إليها مدينة رابعة سنة ١٢٠م هي انتينوبوليس في الصعيد ، وقد أبقى الرومان بالنسبة لمدينتي نوقراطيس وبطلوميس على نظامها السابق . فكان لكل منها حكام منتخبون ، ومجلس شورى ، ولها مواطنتها الخاصة . أما الإسكندرية فقد اختفى منها مجلس الشورى في أوائل العصر الروماني ، ولكنهم أبقوا على مواطنتها الخاصة بها . أما المدينة الرابعة وهي انتينوبوليس فقد كان نظامها مشابها لنظام نوقراطيس [١].

وفي أول القرن الثالث زار الإمبراطور سبتميوس سفيروس مصر سنة ١٩٩ / ٢٠٠ ورأى أن موارد البلاد قد بدأت في الاضمحلال ، وأن الإدارة المحلية متداعية ، فأدخل بعض التعديلات على نظام الإدارة المحلية أهمها منح الإسكندرية وعواصم الأقاليم مجالس للشورى ، وقد أدى إنشاء مجالس الشورى إلى إنشاء مناصب إدارية جديدة ، كان أهمها منصب رئيس المجلس ، ومنصب أمين المدينة ، ومنصب المستشار الدستوري ، ومنصب رئيس الشرطة [٢].

الجيش والأسطـول :

عندما فتح الإمبراطور أغسطس مصر كانت الحامية الرومانية في مصر تتألف من ثلاث فرق رومانية ، وتسع كتائب مساعدة من المشاة ، وثلاث فصائل من الفرسان ، وتم توزيعها على أنحاء البلاد والمراكز ذات الطابع الاستراتيجي فيها ، لضمان حمايتها من الاعتداءات الخارجية ، ولنشر السكينة والنظام في البلاد . ومع الوقت تم تخفيض هذه الحامية ، وعلى مر الأيام اتجه الرومان إلى التجنيد محليا .

وكان يحرس شواطئ الدلتا أسطول مهمته الأولى الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الإسكندرية إلى روما ، ومع الوقت أصبح له مهمة خاصة بحراسة النقل المائي في نهر النيل [٣].

---

(١) د . إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ١٢٩ .

د محمود سلام زناتي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٥٤ .

د . مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٣ .

(٢) د إبراهيم نصحي ـ المرجع السابق .

(٣) د ابراهيم نصحي ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٤

الشـــرطـة :

سار الرومان في أول الأمر على ما سار عليه البطالمة من الاستعانة بحراس مسلحين phylakitai لحفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد . وبقي هذا النظام متبعا في بعض المناطق حتى القرن الثاني . لكن يبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا به نظاما مزدوجا ، ألغيت بمقتضاه تبعة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالي كل منطقة وكان يتعين على هؤلاء الحراس أن يؤدوا يمينا للخدمة بأمانة ونزاهة ، وأن يقدموا للإدارة ضامنين يضمنون حسن أدائهم لمهمتهم [1].

وقد صحب إنشاء مجالس الشورى في عواصم الأقاليم تنظيم قوة للشرطة في عاصمة كل إقليم مستقلة عن شرطة الإقليم ذاتها .

النشـــاط الاقتصـــادي :

بذل الرومان جهودا كبيرة في سبيل إنعاش البلاد اقتصاديا خاصة وأن جزءا كبيرا من فوائد ازدهار الحياة الاقتصادية في مصر كان يذهب إلى روما ذاتها ، سواء عن طريق الضرائب ، أو عن طريق أرباح المستثمرين الرومان . لذلك فقد شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي ، كما شجعت سياسة الاقتصاد الحر في الصناعة والتجارة ، أما المناجم والمحاجر فقد ظلت محتكرة بواسطة الدولة . وازدهرت صناعات النسيج وورق البردي والطوب والجعة . وقد شجع الازدهار الاقتصادي عدة عوامل منها سياسة الرومان والسلام الذي ساد لمدة قرنين من الزمان ، بالإضافة إلى موقع مصر المتوسط بين الولايات الرومانية ، وموقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، وعادت الإسكندرية لتصبح أكبر مركز للصناعة والتجارة في الإمبراطورية الرومانية كلها، كما وجدت صناعات أخرى للاستهلاك المحلي بجانب الصناعات التصديرية ، مثل صناعات الأخشاب والمطاحن والزيوت والخمور والمعادن [2].

---

(١) د . ناصر الأنصاري ـ أنظمة الشرطة في مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ ـ ص ١٧ .

(٢) د . مصطفى العبادي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥٣ .

الباب الرابع

البيزنطيون

تعد فترة الحكم البيزنطي لمصر امتدادا للحكم الروماني لها ، فما اصطلح على اطلاق اسم « بيزنطة » عليه في التاريخ ليس إلا الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية ، التي أعاد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) تنظيمها ، لبث الروح فيها ، بعد أن كادت الخلافات الداخلية تمزقها ، وتؤثر عليها تأثيرا سلبيا . لذلك نجد أن فقهاء تاريخ النظم القانونية لا يدرسون الفترة البيزنطية في مصر في فصل مستقل ، بل يضمونها إلى فترة الحكم الروماني ، تأسيسا على أن تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى غربية عاصمتها روما ، وشرقية عاصمتها القسطنطينية ، ليس إلا أمرا تنظيميا يخص الإمبراطورية ذاتها ، ولا يؤثر على الولايات التابعة لها ، ومنها مصر [1] . بينما يتجه فقهاء التاريخ العام ، والتاريخ الاجتماعي ، إلى دراسة هذه الفترة كفترة مستقلة ، نظرا لما تتمتع به من تحول هام في الفكر الديني في مصر ، من الديانة المصرية القديمة ، التي ظلت سائدة آلاف السنين ، إلى المسيحية ، التي كان أباطرة الرومان يقاومونها أشد مقاومة ، ولكن مع اعتلاء الإمبراطور قسطنطين العرش (٣٢٣ ـ ٣٣٧م) ، والذي كان أول امبراطور مسيحي

---

(١) د . شفيق شحاته ـ التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة ـ القاهرة.

ـ د . صوفي أبو طالب ـ تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ـ القاهرة .

ـ د . عبد المجيد الحفناوي ـ تاريخ النظم الاجتماعية والقانون ـ الإسكندرية .

ـ د . فتحي المرصفاوي ـ تاريخ القانون المصري ـ القاهرة

ـ د . محمد الشقنقيري ـ مذكرات في تاريخ القانون المصري ـ القاهرة .

ـ د . محمود السقا ـ تاريخ القانون المصري ـ القاهرة .

ـ د . محمود سلام زناتي ـ موجز تاريخ القانون المصري .

فقد اعترف بهذه الديانة الجديدة ، وسمح باعتناقها ، وأوقف اضطهاد معتنقيها [١] . والواقع أن كلا الفريقين على صواب ، ذلك أن النظم القانونية التي كانت سائدة لم يصبها تعديلات جوهرية في الفترة البيزنطية ، اللهم إلا بعد التطوير الذي كان يدخله من حين إلى آخر أحد الاباطرة على النظم دون إخلال بالفكرة الأصلية فيها . وبالنسبة للفريق الثاني فقد أدى انتشار المسيحية إلى آثار كثيرة ، خاصة في العلاقة بين الكنيسة الشرقية والغربية ، وظهور المذاهب ، والانقسامات الكثيرة ، وترسيخ الأفكار الدينية التي ساهمت فيها الكنيسة المصرية بالكثير .

لذلك فسوف ندرس هذه الفترة في فصلين ، يضم الأول لمحة عن التطور التاريخي للبلاد ، بينما يتناول الفصل الثاني أهم التطورات على النظم الإدارية .

---

(١) د. السيد الباز العريني ـ مصر البيزنطية ـ القاهرة .

د. مراد كامل ـ حضارة مصر في العصر البيزنطي (في تاريخ الحضارة المصرية جـ ٢) القاهرة .

د. مصطفى العبادي ـ مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي ـ القاهرة .

-Germaine Rouillard L'administration civile de l'Egypte byzantine paris 1928.
- J. Maspero organisation militaire de l'Egypte byzantine - paris - 1912.

الفصل الأول

مصر فى العصر البيزنطى

يبدأ العصر البيزنطى سنة ٣٢٣م بتولى قسطنطين حكم الإمبراطورية ، وقد شيد قسطنطين على أطلال مدينة « بيزنطة » القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه ، وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية . وكان قسطنطين أول امبراطور مسيحى ، ومع اعتلائه للعرش اعترف رسميا بالديانة المسيحية، وترك الحرية لمن يريد اعتناقها . وقد ساعد على انتشار المسيحية فى مصر أن الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) عندما ارتقى العرش أجبر الناس على اعتناق المسيحية فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأصدر أمرا بنشرها قسرا فى كل مكان ونفذ أمره فى مصر دون هوادة [١].

وأصبح للإسكندرية الزعامة الدينية فى الشرق المسيحى . ففى مصر نشأت الرهبنة ، التى أخذها عنها العالم المسيحى ، وفى مصر ظهر كثير من رجال الفكر المسيحى . وكان من نتائج انتشار المسيحية والجهر بها بعض النتائج السلبية ، تتمثل فى ظهور التشيع والانقسامات فى الرأى ، الذى وصل إلى حد جعل هذه المنازعات الدينية سببا فى ازدياد الكراهية والعداء الشديد ، بل والمقاومة العنيفة للحكومة الإمبراطورية فى القسطنطينية ، وبدأ خلاف عنيف بين كنيسة الإسكندرية والكنيسة الرسمية فى القسطنطينية ، وتحول هذا الخلاف الدينى فى مظهره إلى خلاف سياسى أيضا . وظل هذا الخلاف المذهبى هو طابع الحياة فى مصر خلال القرون الثلاثة التالية ، وكثيرا ماتطور إلى نزاع مسلح بين الطرفين ، وعموما لم يكن يمر بسلام فى أكثر الأحيان ، بل يذهب ضحيته كثير من الأفراد ووصل العداء بين الكنيسة المصرية والإمبراطور إلى حد العناد ، فمن ينتخبه المصريون أسقفا لكنيستهم لايعينه الإمبراطور ، ومن يعينه الإمبراطور لايقبله المصريون [٢].

---

(١) د. إبراهيم نصحى . تاريخ مصر القديمة وآثارها ـ المجلد الأول الجزء الثانى من الموسوعة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ٤٥٥ وص ٥٥٨

(٢) د. مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ص ٢٠٥ .

وفى السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطى زاد الخلاف المذهبى واشتد بين «الأرثوذكس» أنصار المذهب الخلقدونى (الملكانيين) وبين المونوفيزيتيين [1].

وقد حاول هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) بعد أن أصبح امبراطورًا أن يحتوى هذه الخلافات ، ولكن المصريين ضاقوا بأسقفة الملكانية رغم محاولتهم الوصول إلى سبيل التفاهم مع الأقباط المصريين .

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى ضعف الوالى ممثل الإمبراطور ، وبالتالى ضعف إدارته المركزية ، وتسرب الفساد والرشوة فظهرت أزمات اقتصادية حادة .

وفى السنة الخامسة من حكم هرقل زحف الفرس على الإمبراطورية واستولوا على «ارضينا» ، ثم « دمشق » و« القدس » ، وتمكنوا من الإسكندرية سنة ٦١٨ م . واحتل الفرس مصر لمدة عشر سنوات وسط سخط المصريين .

وعندما تمكن « هرقل » من الانتصار على الفرس فى معركة « نينوى » سنة ٦٢٧م وقع معهم معاهدة للصلح تم بمقتضاها جلاؤهم عن مصر وعودتها للنفوذ الرومانى.

وكانت البلاد ، نتيجة للانقسامات الكثيرة داخلها ، والاحتلال الفارسى ، وفساد الإدارة ، وضعف حكام البلاد وفسادهم ، قد وصلت إلى حالة من البؤس ، مما دعا الشعب إلى بغض الحكام ، والتطلع إلى الاستقلال والحرية والأمل فى حياة أفضل .

وكان دخول المسلمين مصر فى سنة ٦٤٠م فرصة أحدثت تغيرا شاملا فى السياسة وفى الدين ، ورحب أهل مصر بمن يخلصهم من السلطة الإمبراطورية الرومانية ، التى عانوا منها الكثير فى القرون الثلاثة السابقة ، والتى كانوا على خلاف شديد وكراهية دائمة لممثليها .

---

(١) راجع فى تفاصيل ذلك :

د . السيد الباز العرينى ـ مصر البيزنطية ـ القاهرة ـ ١٩٦١ .

د . مراد كامل ـ من دقلديانوس إلى دخول العرب فى (تاريخ الحضارة المصرية جـ ٢) .

د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق

الفصل الثاني

تطور النظم الإدارية

في القرون الثلاثة من عمر الحكم البيزنطي لمصر ، ساد غالبا التنظيم الإداري الذي كان دقلديانوس قد اتخذه في بداية القرن الرابع والذي وقعت مصر بمقتضاه في دوقية الشرق . وقد قسمت مصر ذاتها إلى ثلاث ولايات أساسية [(١)] . وهي مصر الجوبترية "Aegyptus Jovia" ، وتشمل غرب الدلتا بما فيها الإسكندرية . وولاية مصر الهرقلية "Aegyptus Herculia" ، وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى . وولاية طيبة ، وتشمل مصر العليا . وفي عهد قسطنطين الثاني تكونت في سنة ٣٤١ م مقاطعة رابعة هي «الأغسطمنية» "augustamnica" من المقاطعات الشرقية في الولايتين الأولى والثانية ، وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥) أضيفت ليبيا إلى الصحراء الغربية في ولاية خامسة .

وكانت الولاية التي تشمل العاصمة الإسكندرية تخضع لحاكم يلقب بحاكم مصر Preaefetus Aegypte بينما الولايات الأخرى كان حاكمها يحمل لقب Praeses مما يعني أن الأول سلطاته تزيد عن سلطة حكام الولايات الأخرى ، وإن كانوا جميعا يخضعون لسلطة كونت الشرق Comes orientis وحدث في سنة ٣٨٢ أن تحولت مصر إلى دوقية ، فاستعادت بذلك وحدتها الإدارية ، وأصبحت تخضع لحاكم عام هو الوالي الاوجستالي Praefectus augustalis الذي يقيم في الإسكندرية على أنه نائب للإمبراطور[(٢)].

---

(١) G.Rouillard - L' administration civile de l' Egypte Byzantine. paris - 1928p . 8

د . السيد الباز العريني - مصر البيزنطية . ص ٨٠ .

د . مصطفى العبادي - المرجع السابق - ص ٣١٢ .

د . مراد كامل - المرجع السابق - ص ٢٠٢ .

(٢) - G. Rouillard . op cit p. 10

- د . السيد الباز العريني - المرجع السابق ص ٨٦

- د . مراد كامل - المرجع السابق ص ٢٠٢ .

- د . مصطفى العبادي - المرجع السابق ص ٣١٣ .

ولم يكن لأى حاكم من هؤلاء أية سلطات عسكرية ، فقد تم فصل السلطتين المدنية والعسكرية عن بعضهما ، وتم إسناد قيادة الحامية العسكرية الرومانية كلها لقائد مستقل [1].

وترتب على تقسيم البلاد إلى ولايات إعادة تنظيم الإدارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، إذا ألغى منصب القائد (الاستراتيجوس) الذى كان يحكم المقاطعات خلال العصرين البطلمى والرومانى . وألغى كذلك منصب الكاتب الملكى ، وأصبح أهم الشخصيات المحلية ، هو مراقب جمع الضرائب Exactor، وإليه انتقلت الاختصاصات المالية للقائد ، أما اختصاصاته الأخرى فقد انتقلت إلى حاكم آخر أطلق عليه (لوجيستس Logistes) الذى كان يتمتع بنفوذ لابأس به فى الأقاليم ، ولكن منذ القرن الخامس حل مكان هذا الأخير حاكم آخر أطلق عليه (Defensor) [2].

أما مجالس الشورى فى المدن فقد ظلت قائمة ، وعليها مسئولية الإدارة العامة والإدارة المالية .

ولم تؤد جميع هذه التعديلات إلى أية نتائج طيبة ، وقد أدت زيادة الضرائب وفداحتها إلى أن افتقرت البلاد ، مما ولد سخطا شديداً ، وانتشرت الرشوة والفساد بين الحكام والقضاة، لذلك فلم يكد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) يرتقى الحكم حتى بدأ بإعادة النظر فى جميع النظم الإدارية والمالية السائدة .

فقد أصدر سنة ٥٣٨م قانونه الثالث عشر Edit XIII الذى سعى من خلاله إلى تقوية الإدارة ، فأعاد تقسيم مصر إلى ولاياتها الخمس ، التى كانت فى أول الحكم البيزنطى ، مع تعديل هام ، وهو توحيد السلطة المدنية والعسكرية فى يد حاكم كل ولاية ، لتقوية سلطة الحاكم على ولايته .

إلا أن هذه التعديلات لم تضف كثيرا على أحوال البلاد ، بل أدى هذا التقسيم الجديد إلى تفاقم الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة . مما أدى إلى اضطراب الإدارة ، وضعف الحكومة المركزية [3].

---

(١) د . السيد الباز العرينى ـ المرجع السابق ـ ص ٨٧ .

د . مراد كامل ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٣ .

د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٤

(٢) د . مراد كامل ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٤

(٣)

- C.Diehl - op. cit.p. 459

- G.Rouillard - op. cit. p. 20

ـ د . السيد الباز العرينى ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٢ .

ـ د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢٦ .

النشـــاط الاقتصـــادي :

أما عن الاقتصاد والتجارة فقد استمرت الإسكندرية فى العصر البيزنطى أيضا كأكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، وكانت صادرات مصر هى القمح والكتان والبردى والعاج والعطور والتوابل . أما الواردات فكانت المعادن وخاصة الفضة والصفيح والخمور والحرير والتوابل والعطور التى يتم تصنيعها محليا ويعاد تصديرها . وظلت مصر فى أوائل العصر البيزنطى ذات مكانة دولية فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب . إلا أن سوء الأحوال العامة ، وفداحة الضرائب ، وكثرة الاضطرابات ، أثر فى قدرة البلاد الإنتاجية [1].

---

(١) د . مصطفى العبادى ـ المرجع السابق ـ ٣٢٦ .

الباب الخامس

مصر ولاية إسلامية عربية

استقر رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتح مصر ، واختار لهذه المهمة عمرو ابن العاص ، الذى أسرع نحو مصر ، واستطاع بجيشه الصغير ، الذى يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل ، أن يخترق سيناء دون جهد ، فوصل من رفح حتى بلبيس لم يقابله إلا حاميات قليلة من البيزنطيين ، كان أهمها فى العريش التى استولى عليها فى ذى الحجة ١٨ هـ . / ديسمبر ٦٣٩م . ثم تقدم حتى وصل إلى أقوى الحصون البيزنطية فى شرق مصر عند بلدة الفرما pelusium [١] وهناك وقع التحام بين جيش المسلمين والبيزنطيين ، واستمر القتال شهرا أو شهرين ، حتى اقتحمه المسلمون فى المحرم ١٩ هـ . / يناير ٦٤٠م . وأصبح الطريق مفتوحا إلى قلب مصر ، فاتجه عمرو بجيشه إلى بلبيس .

وقد مال سكان مصر من الأقباط مع العرب على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينية التى سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية فى اضطهاد مسيحيى مصر الاقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحيانا الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم [٢].

فى بلبيس واجه المسلمون حامية بيزنطية وجرى بينهما قتال حوالى الشهر ، كان النصر فى نهايته للمسلمين .

اتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الفعلية للبيزنطيين فى البلاد وهو حصن بابليون ، وتحصن خارجه بقرية أم دنين ، وأرسل فى طلب مدد لجيشه من عمر بن الخطاب ، ولكنه رأى ألا يظل فى مكانه منتظرا المدد ، فتقدم نحو الحصن وبدأ فى حصاره فى جمادى الأولى ٢٩ هـ ./ مايو ٦٤٠م . ووصل المدد الذى ذهب البعض إلى انه كان مكونا من اربعة آلاف مقاتل ، بينما ذهب البعض الآخر إلى انه كان من اثنى عشر

---

(١) وتسمى احيانا تل الفرما ، وكانت موقعا هاما من المواقع المصرية ، وذكرها التاريخ عند مرور جميع الغزاة الآسيويين عليها فى طريقهم إلى مصر من الهكسوس إلى الآشوريين إلى الفرس ثم الإسكندر ، كما مرت عليها أيضا العائلة المقدسة وهى فى طريقها إلى مصر وهى تقع على بعد حوالى ثلاثين كيلو مترا إلى الشرق من بور فؤاد الحالية .

(٢) د . السيد الباز العرينى ـ مصر البيزنطية ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٣٥ .

ألفا [1] . وبعد وصول المدد دخلت معركة حصن بابليون فى دورها الحاسم ، وانتهت بنصر للمسلمين فى رجب ١٩هـ . / يوليو ٦٤٠م ، وأعقبها توقيع معاهدة صلح بين عمرو وزعيم القبط فى مصر المقوقس فى شعبان ١٩هـ . / أغسطس ٦٤٠م.

ولم يبق للبيزنطيين فى مصر بعد وقوع حصن بابليون سوى معقل هام آخر فى الإسكندرية فاتجه عمرو نحوها ، وكان البيزنطيون قد استعدوا استعدادا كبيرا لهذه المعركة الفاصلة مع المسلمين ، وطال وقوف عمرو أمام الإسكندرية ، ثم شدد عليها الهجوم حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ، وهوأمر لم يكن من حق عمرو إجابتهم إليه إلا بإذن من أمير المؤمنين ، لأن البلد الذى يتم الاستيلاء عليها بعد قتال حكمه هو العنوة وليس معاملة الصلح ، ووافق عمر بن الخطاب على اجابتهم إلى مطلبهم، ودخل عمرو الإسكندرية بعد ثلاثة أشهر من القتال والحصار ، وتم الصلح فى ذى القعدة ٢٠هـ./ نوفمبر ٦٤٢م . [2] وبذلك أصبحت مصر جزءا من الدولة الإسلامية .

وأظهر عمرو بن العاص بعد الفتح تسامحا شديدا فى معاملة السكان الأصليين ، فسمح للبطريرك بنيامين بالعودة إلى الإسكندرية ، بعد أن ظل مختبئا حوالى ١٣ سنة فى عهد البيزنطيين ، ومما أدى إلى لم شمل الأقباط الذين حصلوا على حرية كاملة فى إقامة شعائرهم ، فلم يحفل المسلمون بالخلافات الدينية بين المسيحيين ، والتى كانت تميز فترة الحكم البيزنطى ، ولم يعد الأقباط يخشون إظهار عقيدتهم ، فقامت الكنيسة القبطية بأنشطتها الدينية دون تدخل من السلطة الحاكمة [3].

وأصبحت مصر جزءا هاما من الوطن الإسلامي الكبير ، يجرى عليها ما يجرى على غيرها من أحكامه وظروفه ، فكان للمصريين دور فى أزمة عثمان بن عفان ، كما شاركوا فى النزاع بين على ومعاوية ، وكان لهم شأن كذلك فى النزاع بين الأمويين وعبد الله بن الزبير ، الذى ادعى الخلافة فى الحجاز ، وكان للمصريين دور كذلك فى الصراع النهائى بين الأمويين والعباسيين بعد ذلك . فتاريخ مصر إذا منذ الفتح لايمكن فصله عن تاريخ الدولة العربية الإسلامية الكبيرة . وظل الولاة يتوافدون على مصر من قبل الخليفة بعد موت عمر بن الخطاب فى عهد عثمان بن عفان من ٢٣ هـ./ ٦٤٤ م إلى ٣٥هـ./ ٦٥٦ م ثم فى عهد على بن أبى طالب من ٣٥هـ./ ٦٥٦م إلى ٤٠ هـ / ٦٦١م (٤) . والذى

---

(١) د. حسين مؤنس ـ تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون . فى تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى ـ القاهرة بدون تاريخ ـ ص ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٢

(١) د. السيد الباز العرينى ـ المرجع السابق ص ٤٣٦ .

(٤) د. ناصر الأنصارى ـ موسوعة حكام مصر ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ ص ٤٤ .

بوفاته انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، وانتقل الحكم إلى معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس الدولة الأموية ، والذى اتخذ من دمشق عاصمة لها . ويستمر الحكم فى الأسرة الأموية من ٤١هـ . / ٦١١م إلى ١٣٢ هـ . / ٧٥٠م . وتتأسس دولة جديدة تتخذ من الكوفة ثم بغداد حاضرة لها ، وهى الدولة العباسية وتؤول إليها جميع الممالك الإسلامية ، التى كانت تحت لواء الدولة الأموية المنهارة ، ومنها مصر بطبيعة الحال .

وتعتبر فترة الحكم الأموى فترة استقرار ونظام ورخاء بالنسبة لمصر ، وكان أغلب ولاة مصر يتسمون بالعدل والقدرة وحسن الخلق ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسى وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهى فترة تتسم بالقلق السياسى والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعددها ، ويشكو المصريون الظلم ، وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد (١) .

التنظيم الإدارى :

اقتصر الجهاز الإدارى فى مصر بعد الفتح العربى على وال يعتبر حاكما وممثلا لأمير المؤمنين أو الخليفة ، وتدخل فى اختصاصه كل الأمور الهامة ، فهو الحاكم الإدارى الأعلى، وهو إمام الصلاة وقائد الجيش ، والمسئول عن شئون المال ، ويخرج من اختصاصه فقط شئون القضاء التى يتولاها قاض يعينه الخليفة مباشرة .

وكان هذا الوالى يسمى العامل أو الأمير ، أو أمير الصلاة ، أو أمير الجند . وكان يحدث أحيانا أن يعين الخليفة موظفا خاصا لجباية الخراج يسمى عامل الخراج ، أو يترك ذلك للوالى .

وكانت مسئولية الأمن الخارجى والداخلى ملقاة على عاتق الوالى ، فهو قائد الجيش الذى يتولى حماية حدود البلاد وتأمينها برا وبحرا . أما الأمن الداخلى فهو مسئوليته أيضا ، وإن كانت قد جرت العادة على أن يعين الوالى موظفا مسئولا عن الأمن ، يسمى صاحب الشرطة ، ويعتبر الشخصية الثانية فى البلاد ، وينوب عن الوالى عند غيابه ، وفى أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالى فى منصبه إذا مات أو عزل أو تنحى عن عمله (٢) .

ومن الوظائف الهامة أيضا وظيفة متولى البريد ، وكانت هذه هى الوظائف التى احتفظ بها العرب لأنفسهم فى أعقاب الفتح بينما تركوا لأهل البلاد بقية شئون التنظيم الداخلى .

---

(١) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤٨ .

(٢) د . ناصر الأنصارى ـ نظم الشرطة فى مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ القاهرة ١٩٨٩ ـ ص ٣٧ .

وكانت مصر مقسمة إلى قسمين كبيرين، هما الوجه القبلي والوجه البحرى ، وفي حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منها عاملا تابعا له . وكانت البلاد مقسمة منذ العهد البيزنطى إلى تقسيمات إدارية ومالية تسمى « كور » يصل عددها إلى حوالى ثمانين كورة، وكان يحكم كل منها « صاحب كورة» من أهل مصر ، وهو مسئول عن شئونها أمام العامل مباشرة ، ويعاون صاحب الكورة موظف مختص بشئون المال ... أما مدينتا الفسطاط والإسكندرية فلم تكن داخلة في الكور ، بل كانت كلا منهما تعتبر وحدة إدارية قائمة بذاتها .

المسال :

وكان العمل الاساسي لأصحاب الكور ، إلى جانب الأعمال الإدارية ، هو جباية الجزية، وتسليمها إلى العامل أو صاحب الخراج ، وقد تناقصت مبالغ الجباية مع الزمن بسبب دخول الناس في الإسلام ، ولسبب آخر هو تطرق الفساد إلى النظم القائمة ، ويمكن للباحث أن يلاحظ فرقا كبيرا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، عنها أيام العباسيين ، فقد اهتم الولاة الأمويون بالانشاء والتعمير ، وبناء الأساطيل ، إلى جانب اهتمامهم بشئون الأموال والجباية ، بينما اتجه جل اهتمام الولاة في العصر العباسي إلى الجباية . وإن كانت تلك الملاحظة لاتنطبق على مصر وحدها ، بل تنطبق على جميع الأقطار ، وذلك بسبب أن الحكام الأمويين كانوا أميل إلى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت إدارتهم بسيطة ، لاتشكو كثرة الموظفين ، وثقل رواتبهم ، كما صار إليه الحال أيام العباسيين [١].

وكانت أهم المنتجات الزراعية في مصر هي القمح يليها الكتان والبردى ، أما الصناعات فكانت أهمها النسيج يليه صناعة السفن وصناعة الأوراق من نبات البردى ، كما وجدت صناعات تقليدية أخرى كالنجارة والحفر على الخشب والخزف والزجاج وصناعة المعادن ، وأغلبها كانت صناعات متوارثة من العهود السابقة . وكانت مصر تصدر الحبوب وتستورد الخامات عن طريق موانيها في دمياط والإسكندرية ورشيد والقلزم (السويس) ، مما يدل على وفرة النشاط التجارى .

---

(١) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٤ .

الباب السادس

الأسرة الطولونية

كانت الديار المصرية ، منذ الفتح الإسلامي إلى مقدم أحمد بن طولون وتأسيسه للدولة الطولونية لاتعدو أن تكون إمارة تابعة للخلافة الإسلامية . وكان الخلفاء العباسيون في بغداد مثل أسلافهم الخلفاء الأمويين في دمشق ، يرسلون إلى مصر الأمراء لتوليها ، وكان اعتمادهم على خراج مصر كبيرا في تعمير بيت المال للدولة الإسلامية ، وفي سنة ٨٦٨م ٢٥٤ هجرية عين الخليفة واليا على مصر هو « باكباك » الذى آثر أن يبقى في عاصمة الخلافة ، وأرسل صهره نائبا عنه إلى مصر ، وهو أحمد بن طولون ، وكانت الولاية إذ ذاك لاتخرج عن ضمان الخراج ، أي أن باكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره أحمد بن طولون وكيلا عنه ، يدير البلاد ، ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد .

وقد استطاعت الأسرة الطولونية لأول مرة في تاريخ مصر بعد الفتح الإسلامي أن تحكم مصر حكما وراثيا شبه مستقل عن دولة الخلافة العباسية في بغداد لمدة ثمانية وثلاثين عاما ، ونعرض في الفصلين التاليين لتطور الأمور في عهد الأسرة الطولونية ، وفي فصل ثان لأهم التعديلات التي أدخلوها على نظام الحكم والأنظمة الإدارية .

الفصل الأول

ابن طولون وأولاده

دخل أحمد بن طولون الفسطاط في رمضان ٢٥٤هـ / سبتمبر ٨٦٨م . ولم يلبث شهوره أن توفي فصارت إليه الولاية . وسنحت له الفرصة لتكوين جيش خاص به عندما عهد إليه الخليفة في أن يخرج لمواجهة آخر الثوار في الشام ، فإستأذن في أن يجمع جيشا لهذه المهمة ، فأذن لـه فأسرع بتكوين فرقة قوية من الجند ، كانت نواة جيشه ، الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية ، والذي وصل عدده فيما بعد إلى مائة ألف جندي من الاتراك والسودان والروم وغيرهم [1].

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على جميع منافسيه في مصر وخارجها ، حتى أرهب الخليفة نفسه ، الذي آثر عدم التعرض لابن طولون ، بل كان أحيانا يطلب منه الدعم عسكريا أو ماديا . ولم يمض على مقدم أحمد بن طولون إلى مصر اثني عشر عاما إلا وكانت مملكته قد اتسعت جنوبا ، فضمت النوبة ، وشرقا فضمت الشام ، وغربا فضمت برقة .

ويرجع توفيق ابن طولون إلى إدراكه أن مصر بلد غني كثير الخير أسيئت إدارته فوجه همه الاكبر إلى ضبط النظم الإدارية والمالية ، وإصلاح أحوال الرعية ، فكانت النتيجة أن كثر المال في يدي ابن طولون فاقبل على شراء الجند وتقوية الجيش وتسليحه ، كما أهتم بالمباني فأنشأ جامعه الباقي إلى يومنا هذا شاهدا وعلما من معالم تاريخ العمارة الإسلامية ، كما بنى لنفسه قصرا على طراز قصور الخلفاء في بغداد وسامراء . وكان أحمد ابن طولون قد سكن أول قدومه إلى مصر « العسكر » فلما زاد عدد جنوده بنى لهم ضاحية من الفسطاط سميت « القطائع » .

واشتهر ابن طولون بالنفقات في أوجه الخير فكان يوزع الاطعمة والصدقات على الناس.

ووصل أمر ثراء ابن طولون من حسن وتنظيم الإدارة في مصر إلى أنه خلف عند وفاته في خزائنه من الذهب عشرة ملايين دينار ، ومن المماليك سبعة آلاف .

---

(١) د. حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٣٩٠

وكان ابن طولون قد أوصى لابنه خمارويه[١] بالإمارة . من بعده وبايعه الجند بعد وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠هـ / مايو ٨٨٤م . وكان الخليفة العباسي قد حاول استعادة مصر إلى الدولة العباسية ، وتنحية الأسرة الطولونية عنها ، إلا أن الأحوال استقرت فيما بعد بين الجانبين ، وتأكد الصلح بعد وفاة الخليفة المعتمد وتوليه المعتضد الذي خطب لنفسه قطر الندى بنت خمارويه ، وكان صداقها مليون درهم ، وزالت الوحشة بين الخليفة وخمارويه بعد هذا الزواج ، ووصل الامر أن ولاّه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال على أن يحمل خمارويه إلى المعتضد في العام مائتي ألف دينار عما مضى ، وثلاثمائة ألف دينار عن المستقبل[٢].

ومات خمارويه قتيلا على أيدى خدمه وحواريه في دمشق في ذي الحجة ٢٨٢ يناير ٨٩٦ ، وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف حوله طائفة من الغلمان فأفسدوه ، وزينوا له قتل عمه فقتله ، فنفر منه الجند وقادتهم ، وانتهى أمره بأن قتل هو الآخر ، وخلفه أخوه هارون بن خمارويه في جمادى الآخرة ٢٨٢هـ . / سبتمبر ٨٩٦م الذي لم يكن بأحسن حالا منه ، وحاول إجراء بعض الإصلاحات إلا أن الامور كانت قد استفحلت فساء أمره ونفر منه الجند أيضا ، ووصلت الأخبار إلى الخليفة في بغداد ، الذي طمع في استعادة مصر ، فندب لذلك محمدبن سليمان وكلفه بالقضاء على الطولونيين . وبينما كان جنود العباسيين يستولون على أملاك الطولونيين في الشام وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه في صفر ٢٩٢هـ . / نوفمبر ٩٠٤م . وفي ذلك الوقت كان جنود جيش الدولة الطولونية قد يئسوا من الأمر ، فبدأوا ينضمون جماعة بعد جماعة إلى جيش الخليفة العباسي ، بقيادة محمد بن سليمان ، إلى أن تمكن هذا الأخير من الجيش الطولوني المتداعي ، ، ودخل القطائع فأحرقها ، ونهب الفسطاط ، وانتهت دولة بني طولون بعد أن حكم شيبان مدة تسعة أيام فقط .

وكانت البلاد قد أمنت في أيام الأسرة الطولونية وعم الرخاء والثراء ، وكفوا عنهم نهب الولاة العباسيين ، ولكن هاهي ذي البلاد تعود إلى القبضة العباسية مرة أخرى ولكن لمدة قصيرة .

---

(١) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٢٩٨ .

د . سيدة كاشف ود . حسن أحمد محمود ـ مصر في عصر الطولونيين والإخشيد القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٩ .

(٢) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٤٠٠ .

ورغم قصر المدة التي حكمت فيها الأسرة الطولونية مصر ، وهي التي لم تتجاوز ثمانية وثلاثين عاما ، إلا أن العمران والبناء والتشييد ، وتنظيم إدارة البلاد وماليتها، وتأسيس جيشها القوى ، قد جعلها ملء الأسماع والأبصار ، واتسعت أملاكها ، حتى كانت الدولة المصرية تملك من أراض وبلاد أكثر مما يقع في قبضة الخليفة العباسي ذاته في بغداد ، أما الجيش المصري فهو الأداة الرئيسية لصد عدوان المغيرين على الدولة كلها ، أما الخزانة المصرية فهي المعين الذي لاينضب لتمويل بيت مال المسلمين في دار الخلافة .

الفصل الثاني

تأسيس دولة مستقلة

لم تأت هذه القوة وهذه المنعة للدولة المصرية من فراغ ، ولكنها جاءت نتيجة لاستيعاب عقلية أحمد بن طولون لموقع مصر ومركزها وتاريخها وحضارتها المتميزة عن غيرها من الأقطار ، ثم بدأ ابن طولون يستخدم عبقريته الفذة فى التنظيم والإدارة فى مصر، وكان العائد مجزيا للطرفين معا ، فمصر لم تعد ولاية تابعة للإمبراطورية العربية الإسلامية ، بل أصبحت إمارة لها شبه استقلال عن الخلافة ، ولها جيش قوى وقوة ومنعة واتسعت حدودها اتساعا كبيرا ، شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، وأصبحت خزائنها عامرة ، وانعكس ذلك كله على الشعب المصرى . أما الحاكم فقد وصل الأمر بأحمد بن طولون من الثراء والقوة مبلغا كبيرا كما أنه جعل إمارة مصر وراثية فى أسرته من بعده للمرة الأولى منذ البطالمة .

ومن دراسة بعض النظم التى وضعها أحمد بن طولون يمكن إيضاح سبب هذا التقدم الذى حدث فى عهد حكمه

الأميـر :

بينما كان كل عمل والى مصر الأساسى ، هو الإشراف على جباية الضرائب وإرسالها إلى الخليفة فى بغداد ، فقد بدأ أحمد بن طولون بتغيير هذا المفهوم ، وبدأ ببسط نفوذه الكامل على مصر ، وأشرف إشرافا مباشرا على البريد والخراج ، وعلى الولايات والمقاطعات الأخرى التابعة لمصر ، وهو مالم يفعله أسلافه ، وتمكن بذكائه وحنكته من تنحية كل من وقف فى طريقه من عمال الخليفة الآخرين ، الذين حاولوا الخروج عن طاعته ، اعتماداً على اتصالهم المباشر بالخليفة .

وأصبح ابن طولون أميرا على مصر ، وليس مجرد نائب لإقطاعى مقيم فى بغداد ، أو مجرد إمام للصلاة ، أو قائد لحامية إسلامية تعسكر فى مصر ، كما فعل من سبقوه .

وفى سبيل تأكيد إمارته على مصر بدأ بترسيخ نظم ودواوين تحاكى مثيلاتها فى

عاصمة الخلافة ، بل إنه انتقل من الجوهر إلى المظهر ، فقد شيد عاصمة جديدة له ، هي القطائع «بناها على غرار بغداد وسامراء ، وبنى لنفسه قصرا يليق بالأمراء [١]. وكان يتخذ لنفسه موكبا عظيما ، يتقدمه صبيان الركاب وبجانبه أفراد حرسه الخاص ، مرتدين الملابس المزركشة حاملين أسلحتهم ودورعهم ، ورافعين الأعلام السوداء ، نسبة إلى الدولة العباسية .

ومن اهتمامه بالنواحي الشكلية أيضا العرش الذى اتخذه لنفسه ، والأبهة التى كان يحيط بها الاحتفالات التي يحضرها ، والمآدب التى كان يقيمها فى مختلف المناسبات ، ومما يؤثر عنه أيضا كرمه الشديد تجاه الشعب . وتجدر الإشارة أن هذه النواحي الشكلية لم تكن هى شاغله الأوحد ، ولكنها كانت تتمم أعماله الهامة ، وتؤثر فى العامة لتعطيه ما أراد من محاكاة الخليفة .

الحاجب :

لما كانت الحجابة من الوظائف الهامة والجليلة فى الخلافة الإسلامية ، سواء الأموية أو العباسية ، فقد اتخذ أحمد بن طولون لنفسه حاجبا يتولى الأعمال التنظيمية والمراسمية فى البلاط الأميرى ، ووصل من أمر هذه الوظيفة أن شبه البعض من يتولاها بالأمين العام للإمارة ، أو المستشار الخاص للأمير ، بل اعتبره البعض مشابها للوزير الأول [٢]. خاصة وأن الحاجب كان يتخذ لنفسه بعض المعاونين يطلق عليهم «السعاة» ، ولكن من الناحية العملية فقد كان دور الحاجب ومعاونيه متواضعا بالنسبة لدور الحاجب فى دار الخلافة . ورغم ذلك نجد أن واحدا ممن حمل هذا اللقب ، وهو نسيم الحاجب ، يلعب دورا فى البلاط الطولونى ، يجمع فيه بين عمل مدير المراسم والمفتش العام وأمين السر ، كما قام فى إحدى الحالات برئاسة بعثة للتفاوض مع الخليفة العباسي.

الـــوزيـــر :

لم يساير أحمد بن طولون الخطة التى وضعها لنفسه فى محاكاة الخلافة بالنسبة لمنصب الوزارة ، فلم يتخذ لنفسه وزيرا ، وقد يكون ذلك راجعا لما شاهده فى شبابه فى

---

(١) فى تفاصيل وصف القصر وعظمته يمكن الرجوع إلى . - البلوى - سيرة أحمد بن طولون . تحقيق محمد كرد على - دمشق ص ٧٥ .

و د . زكى حسن Les Tulunides باريس ١٩٢٢ ص ٣١ .

(٢) G. Wiet . Precis de l' histoire d'Egypte. tome II le Caire - 1932- p. 103

بغداد وسامراء من استبداد الوزراء الترك وطغيانهم ، حتى أصبح الخليفة ذاته ألعوبة فى أيديهم فى بعض الأحيان . لذلك آثر أحمد بن طولون إبقاء جميع السلطات فى يده مع تكليف بعض الثقات بمهام مؤقتة من حين إلى آخر ، دون تولى منصب دائم وهام كالوزارة .

صاحب الشرطة :

وهذا المنصب لم يستحدثه ابن طولون ، فقد وجُد أيضا منذ عصر الولاة ، ولكن صاحب الشرطة بدأ فى هذا العصر يفقد بعض سلطاته السياسية التى كان يتمتع بها من قبل ، عندما كان ينوب عن الوالى حال مرضه أو سفره (١) . وإن كان أحمد بن طولون قد أبقى على هذا المظهر السياسى الهام لصاحب الشرطة فى أول ولايته ، ولكن لم يلبث به الأمر عندما زاد نفوذ ابن طولون ، وأصبح لدولته شبه استقلال عن الخلافة أن جرد صاحب الشرطة من هذا الاختصاص السياسى ، واقتصر عمله على حفظ الأمن والنظام، وتنفيذ مايصدر إليه من أوامر الحكام والقضاه (٢).

ومن جهة أخرى فقد وجه اهتمامه لوظيفة صاحب الشرطة فأوكل إليه أعمالا إضافية ، مثل النظر فى الأحباس (الأوقاف) ، والإشراف على أرزاق الجند ، وإخضاع السلطات الإدارية المختلفة لإشرافه المباشر ، نظرا لتفكك الأجهزة الإدارية ، وتفشى الفوضى فى البلاد (٣).

كما كان يوكل إلى متولى هذه الوظيفة مهاما أخرى تخرج عن اختصاصه ، مثل خروج إبراهيم بن يلبرد صاحب الشرطة فى سنة ٢٦٧هـ . على رأس جيش إلى برقة ليتصدى لاضطرابات وقعت هناك تنفيذا لأوامر ابن طولون (٤).

ومن ناحية أخرى نجد ابن طولون يستأثر ببعض اختصاصات صاحب الشرطة لنفسه ، مثل إشرافه المباشر على جهاز الأمن ، بغية إقرار السكينة والأمان بعد الفوضى التى كانت سائدة ، والقضاء على عصابات اللصوص ، التى كانت تغير على القرى

---

(١) إبراهيم الفحام ـ تاريخ الشرطة من الدولة الأيوبية . مقال فى مجلة الأمن العام العدد ١٤ ص ٤٧ .

(٢) د . ناصر الأنصارى ـ تاريخ أنظمة الشرطة فى مصر ـ القاهرة ١٩٨٩ . ص ١٥.

(٣) أحمد عبد السلام ناصف ـ الشرطة فى مصر الإسلامية ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ١٣٥ / ص ١٦٢

(٤) إبراهيم الفحام ـ المرجع السابق ـ ٤٨ .

وتنهب القوافل ، حتى روى أنه عندما مات كان فى سجونه نحو ثمانية عشر ألفا من قاطعي الطرق والعصاة [١].

كما استحدث ابن طولون بعض الاساليب الامنية ، مثل تكوين جهاز للشرطة السرية ، مثل بعض العيون التى كان يبثها خفية لتقصى الاخبار من كل مكان ، بل إنه كان يخرج هو نفسه متنكرا فى الطرق والاسواق ، لاستطلاع الأمور بنفسه [٢].

كما استحدث ابن طولون أيضا نظام سجلات السفر ، وهو قريب من جوازات السفر الحالية ، وإصدار أوامره بالقبض على كل من يسافر من مكان لآخر دون سجل يدرج فيه اسم المسافر ومن يرافقه [٣].

كـاتب الســـر :

من وظائف البلاط المستحدثة فى هذا العصر ، هى وظيفة كاتب السر ، وكان يُختار من المقربين من الأمير . وكان دوره يتمثل فى الوجود الدائم مع الامير فى المقابلات ، والاستماع لكل ما يدور فيها من حوار دون أن يراه أحد ، ثم يقوم بتدوينه فى محضر . وكان الأمير يستعين بهذه المحاضر فى متابعة ومراقبة عماله . وما من شك فى أن كاتب السر من الوظائف الهامة فى البلاط الطولونى ، والتى كان لها تأثير غير مباشر فى تسيير دفة الأمور [٤].

الجيـش والأســطول :

للمرة الأولى منذ عدة قرون يصبح لمصر جيش قوى مستقل . كونه ابن طولون حتى لا يعتمد على الخلافة فى الدفاع عن إمارته . وقد اتخذ سياسة حكيمة فى تكوين هذا الجيش من خليط من العناصر بدلا من الاعتماد على عنصر واحد ، مخافة أن يتفقوا ضده، فأشرك الترك والسودان والعرب وبعض العناصر الوطنية فى الجيش الذى بلغ عدد أفراده، بعد سنوات قليلة ، مائة ألف فرد ، مدربين تدريبا شاقا ، ومسلحين بمختلف أنواع الأسلحة المعروفة فى ذلك العهد .

---

(١) الكندى - ولاة مصر - تحقيق حسين نصار - المرجع السابق - بيروت بدون تاريخ ص ٢٤٩ .

(٢) البلوى - المرجع السابق - ص ١١٥ .

(٣) د. ناصر الانصارى - المرجع السابق - ص ٥٣ .

(٤) د. ناصر الانصارى Le protocole dans le droit puplic egyptien - aix - en - provence - 1985- p. 190

وأحكم ابن طولون السيطرة على طوائف الجيش المختلفة ، وفى المقابل حرص على توفير سبل الراحة لأفراده ، بالتقرب إليهم والإغداق عليهم ، كما أن الفتوحات الكثيرة التى تمت فى عهده كانت تفتح للجيش الآمال فى الثروة والجاه [1].

ذات الاهتمام وجهه ابن طولون نحو الأسطول فى مرحلة لاحقة ، خاصة عندما توسعت الفتوحات فى بلاد الشام ، وأصبح من المحتم مواجهة الهجمات البيزنطية ، وحماية شواطئ البلاد ، والحفاظ على طريق الاتصال البحرى بين بلاد الشام ومصر [2]. وقد وصل عدد قطع الأسطول فى عهده مائة سفينة كبيرة ومائة سفينة حربية ، بخلاف القطع الصغيرة الأخرى ، وقوارب الخدمة [3].

وبهذه القوات الضخمة تمكن من القضاء أول الأمر على الثورات العلوية المناوئة للعباسيين ، مثل عصيان بغا الصغير فى برقة والاسكندرية فهزمه وقتله . وبهذا الجيش أصبح لمصر موقعا فريدا ومتميزا عن دولة الخلافة ، حتى اتسعت رقعتها ، وزادت مساحتها عن مساحة الخلافة ، فقد ضم ابن طولون برقة وطرابلس والنوبة والشام حتى حدود العراق الحالية ، وكذلك انطاكية وجبال طرسوس ، وتمكن من الدفاع عن دولة الخلافة بصد عدوان دولة بيزنطة .

الإصلاحات الاقتصادية :

لم يكن لابن طولون أن يقيم هذه الدولة القوية المتسعة الأطراف ومؤسساتها دون أن يقوم بإصلاح أحوال البلاد الاقتصادية السيئة والمتردية قبل وصوله إليها . فبدأ بتخفيف المغالاة التى كانت تتبع فى جباية الخراج ، وكف عماله عن الجبايات الظالمة ، ثم بإصلاح النظام النقدى بإصدار الدينار الطولونى الذى امتاز بثقل وزنه ، وخلوه من الغش والفساد . كما عمل على حماية الفلاح وبث الطمأنينة فى نفسه بالإصلاحات الإدارية ، والقضاء على الفتن والاضطرابات والفوضى ، وبتوفير موارد المياه له . كما استخدم

---

(١) د . سيدة كاشف ود . حسن أحمد محمود - المرجع السابق - ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق - ص ٧٩ .

(٣) البلوى - المرجع السابق - ص ٢١٩ .

النصارى وعمل على كسب ودهم أيضا حيث كانوا من الأقليات الكبرى التى لها وزنها ، فاستخدم منهم أهل الفن والصناعة فى بناء جامعه وتخطيط ، القطائع ، وصناعة السفن والنسيج وغيرها ، وكذلك فعل مع اليهود .

وانعكس أثر هذه الإصلاحات الاقتصادية والإدارية الحاسمة فى مضاعفة الإنتاج فى ميادين الزراعة والصناعة وازدهار التجارة ، فظهرت معالم الثراء على البلاد وأهلها[1].

---

(١) د . سيدة الكاشف . ود . حسن أحمد محمود ـ المرجع السابق ـ ٩٠ .

الباب السابع

الأسرة الإخشيدية

عادت مصر تابعة تبعية كاملة للخلافة العباسية ، وزالت عنها شبهة الاستقلال التى ميزت فترة الحكم الطولونى ، فعلى إثر سقوط الدولة الطولونية فى سنة ٢٩١هـ./ ٩٠٥م . على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب [١] ، الذى كتب للخليفة العباسى المكتفى بالله يبشره بفتح مصر ، وأمر بالدعاء للخليفة وحده على المنابر [٢]. وأمر محمد بن سليمان بإحراق القطائع ، ونهب جنده مدينة الفسطاط ، واستباحوا النساء ، وأتوا بالكثير من الفظائع والمنكرات [٣] . واعتقل الباقين من أسرة ابن طولون وقواده وأرسلهم إلى بغداد مكبلين بالاغلال [٤].

وكانت الدولة العباسية تمر فى ذلك الوقت بعواصف من الإضطرابات وعدم الاستقرار ، هددتها بالتشقق والتصدع ، حتى أصبح كل أمير يسيطر على أحد الأنحاء يستقل به إذا أمكن والسبب الرئيسى الذى أدى إلى ذلك كان ضعف الخلفاء ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم ، نظرا لاستبداد الأتراك بالسلطة [٥].

وكان الدرس الذى تلقته الدولة العباسية على أيدى الأسرة الطولونية ماثلاً فى الأذهان ، فقد نبه الخلفاء إلى أن مصر قاعدة اقتصادية وعسكرية كبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير ومتصل ، وبهذا المال يستطيع أن يقطع مطامع أهل الدولة ، ويقيم لنفسه ملكا يدوم معه ، بل وربما أورثه لذريته . فحاول الخلفاء العباسيون السيطرة على مصر من خلال كثرة تعيين الولاة وتغيرهم ، واقتطاع جزء من اختصاصاتهم ومنحه إلى صاحب الخراج الذى يعينه الخليفة مباشرة ولا يتبع للوالى

---

(١) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ مصر فى عصر الإخشيديين ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ص ١٧.

(٢) الكندى ـ الولاة والقضاة ـ ص ٢٧٤ ويذكر الكندى أن الدعاء قبل ذلك كان للخليفة والأمير الطولونى معه.

(٣) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ١٧

(٤) المرجع السابق ص ١٨

(٥) د . حسن إبراهيم ـ المجمل فى التاريخ المصرى ـ القاهرة ١٩٤٢ ـ ص ١٥٢ .

وتظهر هذه السياسة بوضوح في عدد الولاة الذين تولوا مصر خلال ثلاثين عاما ، هي المدة من سقوط الدولة الطولونية إلى تولية الإخشيد ، فقد توالى على مصر أحد عشر واليا[1] ، ووصل الامر إلى تغيير أربع ولاة في سنة واحدة . كما وصلت المنافسة بين الولاة وعمال الخراج إلى حد أن بعض عمال الخراج كان يتحكم في تغيير الوالي عن طريق الخليفة العباسي في بغداد .

وكان الأذكياء من ولاة مصر يحاولون تثبيت اقدامهم فيها ، وأعينهم على الماضي القريب لابن طولون وذريته ، وأكثر من حاول ذلك كان القائد التركي أبو منصور تكين ، ثم محمد بن طغج الإخشيد . أما الاول فقد تولى مصر في هذه الفترة ثلاث مرات ، كما تولاها ابنه محمد بن تكين مرة واحدة . وكانت في مجموعها حوالي ستة عشرة عاما ، وهي مدة ليست قليلة في المدة الفاصلة بين الدولتين الطولونية والإخشيدية ، وهي ثلاثين عاما ، كما أنها مدة غير يسيرة إذا ما قورنت بالدولة الطولونية التي لم يزد عمرها عن ٣٨ سنة، والدولة الإخشيدية التي لم يزد عمرها عن ٣٤ سنة[2] . ولكن محمد بن طغج الإخشيد نجح فيما فشل فيه تكين ، وتمكن من أن يؤسس في مصر دولة شبه مستقلة ، ذات قوة لايستهان بها ، وأورثها لاربعة من أسرته .

---

(١) الكندي – ولاة مصر – تحقيق د . حسين نصار – بيروت بدون تاريخ ص ٢٧٠ وما بعدها – ود . ناصر الانصاري – موسوعة حكام مصر – القاهرة ١٩٨٧ ص ٨٢ .

(٢) الكندي المرجع السابق ص ٢٣٩ و د . حسين مؤنس تاريخ الحضارة المصرية – المجلد الثاني – القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٠٥ .

ود . ناصر الانصاري – المرجع السابق ص ٨٣ .

الفصــل الأول

الإخشيــــــــد

الإسم الأصلي للإخشيد هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف . وكان جده جف من الرجال المقربين للخليفة العباسي المعتصم ، ومن بعده الخليفة الواثق ، ثم المتوكل ، ولكن وقعت أحداث أدت بطغج بن جف وولداه محمد وعبيد الله إلى السجن حيث توفى الأب وأطلق سراح الولدان بعد فترة (١) .

واتجه محمد بن طغج إلى الشام حيث دخل في خدمة واليها ابن بسطام . ولما ولى ابن بسطام مصر صحب معه محمد بن طغج ، وأصبح من قواد الجيش ، ولما مات ابن بسطام تولى مصر تكين ، فحارب محمد بن طغج تحت قيادته ، وأبلى بلاء حسنا في إحدى المعارك ضد الفاطميين ، فتوثقت الصلة بينهما وولاه تكين مدينة الإسكندرية (٢) في تلك الأثناء كان الفاطميون قد أسسوا دولتهم في بلاد المغرب ٢٩٦هـ . / ٩٠٩م ، وكانوا يطمعون في الاستيلاء على مصر ، لاتخاذها مقرا لخلافتهم ، ومركزا لنشر دولتهم، ولبسط نفوذهم على الشرق ، ولم تسلم مصر من غزواتهم ، وفي سنة ٣٢١هـ . / ٩٣٣م حاول الفاطميون غزو مصر مرة أخرى ، فصدهم محمد بن طغج ، وانتصر عليهم ، فعهد إليه الخليفة العباسي « المتقى » بولاية مصر في سنة ٣٢٣هـ . / ٩٢٥م ، كما أمر الخليفة بزيادة لقب « الإخشيد » إلى اسمه وهو اللقب الذي كان يطلق على ملوك «فرغانة»(٣).

وكان محمد بن طغج الإخشيد يحاول التشبه بأحمد بن طولون وإن كان الفارق بينهما كبيرا ، فالصفات والمزايا والإمكانات التي أوتيت لابن طولون كانت تفوق ما أوتى الإخشيد ، الذي يذكر عنه المؤرخون أنه لم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلا م السياسي والديني والثقافي والاجتماعي جـ ٢ ط ١٠ ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ ص ١٤٩ .

(٢) د . حسن إبراهيم حسن ، مجمل التاريخ المصري ـ ١٥٢

(٣) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٢ .

ود . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٧.

بعيد ، بل كان بخيلا أميل إلى الجبن وسوء التصرف والجشع إلى المال ، وإن كان شديد التقى والورع [1].

كل تلك الصفات لم تمنع الإخشيد من السيطرة على زمام الأمور ، بل إنه أعاد النظام والسكينة إلى مصر ، ووطن مركزه في مصر والشام ، وصد غزوات الفاطميين المتكررة . وحاول أعداء الإخشيد الإيقاع به عند الخليفة العباسي ، ولكن مركز الإخشيد لم يكن من السهل زعزعته . خاصة وأن الخليفة « المتقي » لم يجد بدأ من الاستنجاد بالإخشيد عندما تنازع الأتراك على الاستئثار بالسلطة دونه في بغداد ، وعندما تم النصر للخليفة بمساعدة الإخشيد أراد أن يظهر له وفاءه وشكره فأقره على ولاية مصر والشام وأولاده من بعده ثلاثين سنة [2].

خلفـــاء الإخشيـــد :

توفي محمدبن طغج الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ . / ٩٤٦ م ، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لولديه أونوجور وعلي ، وقرر أن تكون الوصاية عليهما لغلامه كافور[3].

وكان أبو القاسم أونوجور بن الإخشيد في الرابعة عشرة من عمره عند وفاة أبيه وتقلده زمام الأمور ، وقد أقره الخليفة المطيع لله ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من ولاية [4].

ونظرًا لصغر سن أونوجور فقد سيطر كافور على زمام الأمور ، ولم يكن كافور إلا عبدا حبشيًا أو نوبيا من عبيد الإخشيد ، أخلص له بشدة فرفعه وعهد إليه بتربية ابنيه أونوجور وعلى [5].

واستطاع كافور طوال مدة حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقي للبلاد ، ولما توفي أونوجور سنة ٣٤٩هـ . / ٩٦٠م نودي بأخيه على بن الإخشيد أميرا على مصر ، وكان ذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الإخشيد . وكان عمره آنذاك ثلاثا

---

(١) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٤٠٩ ـ ٤١١

(٢) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٣) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ٩٣ .

(٤) أبو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٤ ص ٢٩١ .

٥) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٤١٣

وعشرين سنة ، وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين [١].

ورغم عدم حداثة سنه فإن الأمور في عهد الأمير علي أيضا ظلت كلها في يد كافور ، كما كانت في عهد أخيه . وتوفي الأمير علي سنة ٣٥٥ هـ . / ٩٦٦م وظلت مصر بغير أمير أياما بعد وفاته ، وكان كافور يدير أمور مصر والشام ، ومالبث أن أعلن ورود كتاب من الخليفة بتقليده مصر ، فدعي له على المنابر . ورغم أن كافورا لم يكن صاحب حق شرعي في حكم مصر ، فهو ليس من أسرة الإخشيد، إلاأنه يبدو أن الخلافة في بغداد كانت قد اعتادت أن ترى بيده تدبير الأمور في مصر في عهد أونوجور وعلي ، وكانت تطمئن إليه[٢]. وأصبح كافور أمير مصر ، إلا أنه كان يكتفي بلقب « الاستاذ » فكان يقال له « الأستاذ أبو المسك كافور » [٣].

وصمد كافور في الحفاظ على كيان الدولة الإخشيدية ، وصد عنها العدوان الفاطمي أكثر من مرة ، وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية . وتمتد المدة الفعلية التي حكم فيها مصر منذ وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م إلى وفاته سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م . وقد سقطت مصر في أيدي الفاطميين بعده بعام واحد [٤].

وبعد وفاة كافور اجتمع كبار القواد ورجال البلاد وعقدوا الولاية لأحمد بن علي بن الإخشيد ، وكان صبيا في الحادية عشرة من عمره ، فعينوا أبن عم أبيه : الحسن بن عبيد الله بن طغج وصيا عليه ، ولكنه استبد بالأمر وأساء معاملة الأهالي ، فسخطوا عليه واضطر إلى ترك مصر والشام . وكان وزير الدولة جعفر بن الفرات أيضا سيئ التصرفات والسياسة [٥].

وانتهز المعز لدين الله الفاطمي ذلك الاضطراب وعدم الاستقرار الموجود في مصر ، بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسية في بغداد ، لانشغالها بصد غارات البيزنطيين ، الذين توغلوا في البلاد ، فبعث جيشا لغزو مصر بقيادة جوهر الصقلي في سنة ٣٥٨هـ . ٩٦٩م . وتمكن بهذا الجيش من إقامة الدولة الفاطمية في مصر .

---

(١) د سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ٩٧ .

(٢) المقريزي ـ الخطط ـ جـ ١ ص ٣٣٠ .

د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ود . حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي جـ ٢ ـ ط ١٠ ـ القاهرة ١٩٨٢ ص ١٥٤ .

(٣) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ٩٨ .

(٤) د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ص ٤١٤ .

(٥) د . حسن إبراهيم حسن ـ المجمل سنة ١٩٤٢ ـ ص ١٥٤ .

د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ١٠١ .

د . حسين مؤنس ـ المرجع السابق ـ ص ٤١٤ .

الفصل الثاني

المؤسسات الإخشيدية

رغم أن مصر في العصر الإخشيدى كانت تتبع الخلافة العباسية في بغداد من الناحية الرسمية ، إلا أنها من الناحية الفعلية كانت تتمتع ببعض الاستقلال إذا ما قيست بالولايات الأخرى ، بل إنها كانت نتيجة للاستقرار الذى نعمت به قد ضمت إليها الشام والحجاز.

وحاول الإخشيديون أثناء حكمهم لمصر أن يتشبهوا بالطولونين من جميع النواحى ، خاصة في مراسم البلاد وفي المواكب الرسمية وفي منظمات الدولة التي نعرض منها :

الــوالـى :

كان الوالى الإخشيدى يتولى كافة شئون الحكم ، وكان يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه في حكم البلاد ، وكان الرئيس الأعلى للقضاء ، وإمام الصلاة ، ومتولى الخراج ، وقائد الجند ، والمسئول عن الأمن . أى أنه يجمع في يده جميع أمور السيادة .

الــوزيـر :

لم تعرف مصر منصب الوزارة في عصر الولاة بحكم تبعيتهم للخلافة مباشرة . والخليفة أو أمير المؤمنين هو الذى من حقه أن يكون له وزير . أما الولاة فلا . ولكن ما إن جاء الطولونيون إلى مصر وأحكموا قبضتهم عليها حتى تشبهوا بالخليفة العباسى في أشياء كثيرة منها اتخاذ وزير للوالى خاصة في أواخر عهدهم .

وقد سار الإخشيد على نفس المنوال ، فاتخذ لنفسه وزيرا ، وكذلك فعل خلفاؤه . وكان الوزير يعاون الوالى في كثير من الأمور ، وكان يصرف الأمور من داره أحيانا ، ومن دار الإمارة في أحيان أخرى . وكان بعض رجال الحكومة يركبون معه في موكبه إذا خرج للصلاة يوم الجمعة (١) .

---

(١) د - سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٩ .

وكان للإخشيد أعوان آخرون ، يقومون بأعمال الوزارة ، دون أن يكون لهم لقب الوزير في بعض الأحيان . لذلك فإن منصب الوزير في العصر الإخشيدي أيضا غير واضح المعالم ، وغير محددة اختصاصاته ، ويرى البعض أنه من المحتمل أن يكون هذا اللقب كان يطلق في بعض الأحيان على أكثر من شخص في وقت واحد (١).

على أية حال كان منصب الوزارة موجودا في الحكومة الإخشيدية ، وكان يفوض من قبل أمير البلاد لمعاونته في تدبير كافة الأمور .

الكـــاتب :

وكان يساعد الوزير في عمله ، ويحرر الرسائل التي يبعث بها الأمير إلى الخليفة ، أو إلى غيره من الملوك والأمراء ، وكان الكاتب يختار ممن نالوا قسطا كبيرا من الثقافة الأدبية، وعرفوا برجاحة الرأي ، حتى يستطيع القيام بعمله على الوجه الأكمل . وكان الأمير يعتمد على الكاتب كل الاعتماد بوصفه رئيس ديوانه (٢).

صـــاحب الطـراز :

نظرا للاهتمام بصناعة النسيج ، كصناعة قديمة في مصر ، فإن الحكومات تكاد تكون قد احتكرت تلك الصناعة ، وكان يشرف عليها موظف كبير ، يسمى صاحب الطراز ، أو ناظر الطراز ، وهو من المناصب الهامة في الدولة الإخشيدية .

متولى دار الضـرب :

كان أحمد بن طولون قد أسس في مصر دارًا لضرب النقود ، وحيث ضربت الدنانير الأحمدية ، التي عرفت بعيارها الجيد ، ولما كانت النقود من علامات الملك فقد اهتم الإخشيد بتعيين موظف كبير يتولى دار الضرب .

عامـل الخـــراج :

من مظاهر استقلال مصر في العصر الإخشيدي أن اجتمعت لمحمد بن طغج الإخشيد ولاية الصلاة ، وولاية الخراج و الأموال ، كما اجتمعت لأحمد بن طولون من قبله ،

---

(١) المرجع السابق ـ ص ١٦٤

(٢) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٦ .

وكان من حق الوالى تعيين عامل الخراج ولا يعينه الخليفة ، وكان عامل الخراج يشرف على جمع الأموال ، وعلى تدبير نفقات الإدارة فى البلاد [١] ، وتكاد اختصاصاته تشابه اختصاصات وزير المالية فى عصرنا الحالى .

الإدارة المحليـة :

لم يغير العرب كثيرا فى أساليب الإدارة البيزنطية فى مصر ، خاصة فى تقسيم البلاد الإدارى على عهدهم ، فظلت البلاد مقسمة إلى كور ، على رأس كل منها « صاحب الكورة» وله اختصاصات الإدارة الكاملة لإقليمه ، وله إقامة الصلاة فى المساجد فى عاصمة كورته . وكان هؤلاء الحكام يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه ، وكانت الحكومة تعتمد عليهم فى جباية الضرائب ، وقد ظل هذا النظام قائما فى عصر الولاة وفى العصر الطولونى كما رأينا ، وفى الفترة الفاصلة بين الطولونى والإخشيدى ، ونظرا لطبيعة البلاد ولأصالة هذا النظام فكان طبيعيا أن يتم الإبقاء عليه فى العصر الإخشيدى أيضا .

ممثـل الأمير فى بغـداد :

كان للإخشيد ممثل فى بغداد ، ووظيفته أن يراقب عن كثب ما يجرى فى بلاط الخليفة ودواوين حكومته وينقل إلى الأمير فى مصر ما يعنيه من الأمور ، كما يعمل على الدفاع عن مصالح الأمير ، ويتلقى أوامره فى هذا الشأن [٢] . فهو أشبه بالسفير فى عصرنا الحالى .

البـلاط الإخشيـدى :

كان البلاط الإخشيدى يضم حاشية الأمير ، وكانت من أهم الوظائف فى القصر الأميرى هى الحاجب والحرس الخاص ، والخازن والطبيب الخاص .

الحـاجـب :

كانت وظيفة الحاجب من الوظائف السامية فى البلاط ، ولم يكن عمله يقف عند إدخال الناس على الأمير فى مواعيد محددة ، بل كان يتعدى ذلك إلى شئون أخرى كثيرة ،

(١) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ـ ص ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ـ ص ١٧٩ .

وكان لوظيفته احترام وهيبة حتى إن الأمراء كانوا يهابونه ، ولما كان الإخشيديون يهتمون بأمور المراسم فى بلاطهم ، فقد اهتموا بتعيين الحاجب ومنحه اختصاصات واسعة .

الحـــرس الخـاص :

اتخذ الإخشيد لنفسه بضعة آلاف من المماليك حرسا خاصا له ، يحرسون قصره وثكنات الحرس . وكان الأمراء الإخشيديون يتشبهون فى ذلك أيضا بالخلفاء وكبار الأمراء فى العالم الإسلامى [١].

الخـــازن :

كانت وظيفة الخازن من الوظائف الهامة فى البلاط الإخشيدى ، وكان يتولى خزانة الأمير ، ويشرف على ما فى قصره ، فضلا عن إدارة ممتلكاته الخاصة .

الطبيـب الخـــاص :

كان طبيب الأمير يقيم بصفة دائمة فى القصر ، كما يصحبه فى أسفاره ، ويشرف على ألوان الطعام المقدم إليه ، ويمنع ما لايصلح له حسب حالته الصحية [٢].

وظائف اخـــرى :

كما وجدت وظائف أخرى ، فكان القصر يضم عددا كبيرا من مختلف الموظفين والخدم والفراشين اللازمين للمطابخ والخزانة والاصطبلات ومختلف الأمور الأخرى.

---

(١) د . سيدة إسماعيل كاشف ـ المرجع السابق ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق .

البـــاب الثـــامن

الأسرة الفاطميـــة

تمثل الفترة الواقعة بين عامي ٧٥٠م/ ١٣٢هـ و٩٦٩م/٣٥٨هـ بالنسبة لمصر فترة تبعية لدولة الخلافة العباسية التي اتخذت من بغداد ثم سامراء ثم بغداد مرة أخرى عاصمة لها .

ولم تكن تبعية مصر لدولة الخلافة تبعية مطلقة كغيرها من الإمارات ، بل كان لمصر دائما استقلالها وتميزها وتفردها . فقد كانت هي الأغنى والأكثر ثراء ، وكان إقليمها هو الأوسع مساحة ، وكان جيشها هو الأقوى ، وكانت أرضها هي الأخصب والأكثر عطاء . وفي أكثر من واقعة تاريخية نجد الخليفة العباسي يستنجد بجيش مصر وجندها لإخماد ثورة هنا أو رد عدوان هناك . كما نراه يستنجد بخزانة مصر العامرة دائما ، أو يطلب العون والمدد من خيرات مصر الوفيرة ، مما أعطى لمصر دائما موقعا فريدا متميزا عن غيرها ، وقد انعكس هذا التميز والتفرد على كل من حكم مصر ، وحاول بعضهم الاستقلال الكامل بها .

ويكفينا دليلا ما شهده القرن الأخير لهذه التبعية من محاولات استقلال . فقد شهد الثلث الأول من هذا القرن الدولة الطولونية ، كما شهد الثلث الأخير منه الدولة الإخشيدية، والتي انتهت مع دخول الفاطميين لمصر وخروجها من التبعية العباسية .

وكما رأينا في البابين السابقين فإن حكم الطولونيين والإخشيد لمصر كان شبه استقلالي ، فلم تكن تبعية البلاد للدولة العباسية إلا تبعية شكلية ، ولا يربطها بدولة الخلافة إلا رباط واهي شكلي ، يتمثل في ذكر اسم الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المساجد أو ضرب العملة باسمه ، ثم أخيرا إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنويا.

وبانتهاء الدولة الإخشيدية على يد الجيش الفاطمي ، خرجت مصر من الدولة العباسية ، ولكن لا لتصبح دار إمارة تابعة للدولة الفاطمية ، بل لتصبح ذاتها حاضرة أو

عاصمة لهذه الخلافة ، فقد أدرك الفاطميون الأهمية السياسية والعسكرية والجغرافية لمصر ، فنقلوا دار خلافتهم إليها بعد فتحهم لها ، وقد صدق إداركهم . فمن مصر أقاموا امبراطورية واسعة قوية ذات حضارة مزدهرة ، ضمت إلى جانب مصر والمغرب الشام والحجاز واليمن وصقلية .

وقبل أن نشرع فى سرد الأحداث التاريخية لمصر إبان الخلافة الفاطمية وأنظمتها أثناءها لابد من المرور سريعا عن نشأة هذه الدولة فى المغرب .

الفصل الأول

أصل الفاطميين

ساد الشعور لدى الشيعة أو العلويين أنهم أصحاب الحق في إمامة الدولة الإسلامية، وأن أمر هذه الإمامة أو الخلافة الذى آل إلى أبناء عمومتهم ، بنى العباس ، قد سلب منهم، كما سبق أن سُلب أمر الخلافة من جدهم على بن أبى طالب في أعقاب وفاة النبى عليه الصلاة والسلام لصالح أبى بكر الصديق ، وكما سلبه معاوية بن أبى سفيان من الحسن بن على بن أبى طالب ، وكما سُلب الأمر في موقعة كربلاء من الحسين بن على بن أبى طالب ، وآل الأمر إلى يزيد بن معاوية . فالخلافة انتزعت واغتصبت وسلبت طوال القرنين ونيف الهجريين من أصحابها (وهم العلويون) .

والعلويون هم أولاد على بن أبى طالب من السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أقاموا دعوتهم على أحقية على وأهله بالخلافة على دعائم فلسفية فارسية ، تؤمن بنظرية الحق الإلهى في الملك ، وحجر الزاوية في هذا المبدأ عقيدتهم في الإمامة . فقالوا إن النبى عليه الصلاة والسلام عند عودته من حجة الوداع توقف في مكان بين مكة والمدينة عند غدير « خم » وآخى بينه وبين ابن عمه وصهره على بن ابى طالب وقال : « على مولاى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » واعتبر العلويون الشيعة من هذا الحديث مبايعة ضمنية إلى على ليصبح بذلك وصى رسول الله ، أوصى له بالإمامة من بعده لشروط خاصة ينفرد بها ، ولعلوم لدنية تلقاها عنه ، وأن الإمامة يجب أن تنتقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر ، لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل في نسل على بطريق الوراثة من الإبن إلى ابنه [1].

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٢٤٢.

ـ د. جمال الدين الشيال ـ مصر في العصر الفاطمى ـ في تاريخ الحضارة المصرية ـ المجلد الثانى ـ القاهرة ـ (١٩٦٣) ص ٤٢١ .

ـ د. حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ط ٤ القاهرة ١٩٨١ ـ ص ٨

وطوال فترة الحكم الأموى نشط العلويون فى نشر مذهبهم وفكرهم ، أحيانا فى العلن، وغالبا فى السر ، وأصبح العداء بين الأمويين والعلويين شديدا وخطيرا .

وقد انقسم العلويون فى أول الأمر شيعا ، البعض منهم يدعو لأولاد الحسن بن على ابن أبى طالب ، والبعض منهم يدعو بالإمامة لأولاد الحسين بن على ، والبعض الثالث يدعو بها لأولاد محمد بن الحنفية ، وهو الإبن الثالث من أبناء على بن أبى طالب . كما ظهر فى ذات الوقت فرع آخر من آل البيت يطالب لنفسه بالخلافة ، وهو فرع بنى العباس ابن عبد المطلب عم النبى عليه الصلاة والسلام . وقد استغل هؤلاء ضعف العلويين الشيعة ، وانقسامهم ، فمكروا بهم وجعلوا الدعوة للخلافة لآل البيت دون تسمية . إلى أن نجح بنى العباس فى القضاء على دولة بنى أمية ، وتولوا الخلافة الإسلامية ٧٥٠م/١٣٢هـ.

ويشعر العلويين الشيعة مرة أخرى بالمكر والخديعة ، واغتصاب الملك منهم ، فيجدون فى الدعوة لهم ، ولكن العباسيين يعنفون بهم ويضطهدونهم ويطاردونهم ويقاتلونهم ، فلا يجد الشيعة بدا من التحول بدعوتهم إلى السرية ، ولكنهم ينقسمون على انفسهم إلى شيعة إمامية وشيعة كيسانية وشيعة زيدية .

وتنقسم الشيعة الإمامية إلى فرق كثيرة ، خاصة بعد موت إمامهم جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب سنة ١٤٨ هـ . وسبب الانقسام إلى فرق هو أن الإمام حسب معتقدات الشيعة الإمامية يكتسب حقه فى الإمامة بطريق الوراثة عن على باعتباره خليفة النبى شرعيا ، ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبى عن ابنته فاطمة الزهراء ، ويغلب فى اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا إلا أنه بموت جعفر الصادق انقسم الشيعة الإمامية إلى فرقتين اساسيتين

الأولى هى « الشيعة الإمامية الموسوية» وهم الذين سموا فيما بعد « الاثناعشرية » وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم الإبن الأصغر لجعفر الصادق .

أما الثانية فهى « الشيعة الإمامية الاسماعيلية » وقد قالوا بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان أكبر الأولاد ، ولكنه مات فى حياة أبيه ، فحول أنصار المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه محمد وهو عندهم الإمام السابع ، لذلك أطلق عليهم السبعية ، تمييزا لهم عن الإثنا عشرية (١)

ومعظم أتباع الشيعة الإمامية الموسوية أو الإثنا عشرية الآن فى إيران والعراق ، أما

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٣٩ .

الشيعة الإمامية الاسماعيلية أو السبعية أو الباطنية ، فمنهم الخلفاء الفاطميون الذين يصل نسبهم عن طريق مؤسس الدولة عبيد الله المهدى ، إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء ، ومنها اشتقوا اسمهم .

تأسيس الدولة الفاطمية فى المغرب :

نشطت الطائفة الإسماعيلية من الشيعة فى الدعوة لأفكارهم الدينية عامة ، وفى فكرة انحصار الإمامة فيهم خاصة . فأرسلوا الدعاة فى أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة وفى الأطراف البعيدة منها عن العاصمة على وجه الخصوص ، مثل اليمن وبلاد المغرب . ومن أشهر الدعاة لهذا الحزب أو هذه الطائفة أبو عبد الله الشيعى ، الذى يعده الكثيرون المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية فى المغرب [١].

وكان أبو عبد الله الشيعى يمنى الأصل من مدينة صنعاء ، وبدأ نشر الدعوة الشيعية فى اليمن، ثم انتقل إلى المغرب حيث زاد انصاره ، وعظم أمره ، ثم حول الدعوة السلمية التى بدأها إلى دعوة مسلحة سنة ٩٠٣م / ٢٩١هـ ، فوقعت فى يده عدة مدن وساعده على ذلك الضعف والانحلال الذى أصاب دولة الأغالبة فى تونس ، حتى أصبح سلطان الشيعة مطلقا فى جميع المدن الواقعة غرب مدينة القيروان [٢] ، ثم أرسل عبد الله الشيعى يدعو إمام الطائفة الشيعية الإسماعيلية « عبيد الله المهدى » للحضور وكان يقيم فى مدينة « سلمية » فى الشام حتى ذلك الوقت .

وفى سنة ٩٠٨م/٢٩٦هـ تم النصر النهائى على الدويلات القائمة فى شمال أفريقيا ، وهى دولة بنى مدرار فى سجلماسة ، ودولة بنى رستم فى تاهرت ، ودولة الأغالبة فى أفريقية (تونس) ، ودخل المهدى مدينة رقاده [٣] ، فرحب به أهلها وأهل القيروان ، وبايعوه بالخلافة ، وتلقب بأمير المؤمنين [٤].

---

(١) ـ د. جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق ص ٤٢٣ .

ـ د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٣٢

(٢) القيروان : عاصمة دولة الأغالبة وتقع فى تونس الحالية .

(٣) رقادة : مقر امارة دولة الأغالبة .

(٤) د . جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق . ص ٤٢٤

د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق . ص ٥٦ .

كان تأسيس دولة خلافة جديدة للفاطميين فى أفريقية (تونس) نقطة انطلاق لهم للوقوف فى وجه دولة الخلافة العباسية فى بغداد ، والتى كانت تتداعى - خارجيًا أمام الدولة البيزنطية وأمام محاولات استقلال الدويلات الفارسية ، وداخليًا أمام مراكز القوى التى نشأت داخل البلاط مثل البويهيون الذين جعلوا الخليفة دمية يحركونها كما يشاءون .

وحاولت الدولة الفاطمية مد نفوذها شرقا وغربا إلا أنها فى الشرق أخفقت عدة مرات فى الاستيلاء على مصر . أما فى الغرب فقد أصاب الفاطميون النجاح ، فأخضعوا القبائل الكبيرة فى المغرب [1] ، واصطدموا بدولة الأدارسة [2] . وقد خلف المهدى فى الخلافة الفاطمية ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم نزار فى ٩٣٤م/ ٣٢٢هـ والذى خلفه المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل فى ٩٤٥م/ ٣٣٤هـ ثم وصل الأمر إلى الخليفة الرابع الذى فُتحت مصر فى عهده وهو المعز لدين الله أبو تميم معد ٩٥٢م/ ٣٤١هـ[3].

وقد أتم المعز لدين الله أعمال أسلافه فى فتح المغرب الأقصى ، والمغرب الأوسط ، فقضى تماما على دولة الأدارسة فى المغرب [4] ، وامتد ملك المعز من تونس إلى المحيط الأطلسي . ثم التفت المعز شرقا إلى مصر ، التى كانت قد استحكمت على أسلافه عدة مرات، أهمها فى عهد المهدى سنة ٩١٣م / ٣٠١هـ وسنة ٩١٩م/ ٣٠٧هـ ، ثم فى عهد القائم ٩٣٣م/ ٣٢١هـ .

---

(١) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا ـ جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ ـ القاهرة ـ ١٢٩٠هـ جـ ٨ ص ٢٨

(٣) د . ناصر الأنصاري ـ موسوعة حكام مصر ـ القاهرة ١٩٨٧ ـ ص ٤٥

(٤) المقريزي ـ المرجع السابق ـ جـ ١ ص ٦٠ .

الفصل الثاني

الفاطميون فى مصر

بعد النجاح الذى حققته الدولة الفاطمية فى المغرب ، بدأت تخطط للاستيلاء على مصر، لتحقيق هدفين معا . أحدهما أبعد أجلا وهو القضاء التام على الخلافة العباسية السنية ، لتحل محلها الخلافة الفاطمية الشيعية ، ولتحقيق هذا الهدف البعيد، كانت تطمع فى هدف أقصر أمدا ، وهو الاستيلاء على مصر القوية الثرية الحصينة ذات القوى المؤثرة . فبا ستيلائها على مصر تسيطر تلقائيا على السودان والشام والجزيرة العربية .

شرع المعز لدين الله فى الاستعداد لفتح مصر منذ ٩٦٧م/٣٥٦هـ فأنشأ الطرق ، وحفر الآبار ، وأقام أماكن للاستراحة فى فترات منتظمة . وندب لهذه المهمة أعظم قواده وهو ، جوهر الصقلى ، الذى خرج من تونس بجيشه ٩٦٩م/٣٥٨هـ ووصل جوهر الإسكندرية ودخلها دون قتال . ولما علم أهل الفسطاط نبأ وصول الجيش الفاطمى إلى الإسكندرية ندبوا الوزير جعفر بن الفرات لمفاوضة جوهر الصقلى فى الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم . فكوّن وفدا من أعيان البلاد ، وجعل على رأسه أبا جعفر مسلم ابن عبيد الله ، وكان من الأشراف ذوى المكانة ونسبه إلى الحسين بن على معروف ، وقيل إن سفيرا من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع الشيعة (١)

أجاب جوهر الوفد إلى ما طلبوه ، وكتب عهدا وأمانا وعدهم فيه بحمايتهم ، والجهاد عنهم ، وتأمين طريق الحج الذى كان قد تعطل بسبب غارات القرامطة ، والقيام بما تحتاجه البلاد من إصلاح ، كما تعهد بإطلاق حرية العقيدة للمصريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم (٢) . ودخل جوهر الصقلى على رأس جيشه الفاطمى الفسطاط فى يوليو ٩٦٩م/ شعبان ٣٥٨هـ .

---

(١) الكندى – ولاة مصر – تحقيق حسين نصار – بيروت بدون تاريخ – ص ٦٠

(٢) د . جمال الدين الشيال – المرجع السابق ص ٤٣٠

د . حسن إبراهيم حسن – المرجع السابق . ص ١٤١.

تاسيس القاهـرة والأزهر :

شرع جوهر فور دخوله إلى مصر في بناء عاصمة جديدة هي القاهرة وأول مابنى فيها القصر الكبير ليكون سكنا للخليفة وحاشيته ،ومقرا لدواوين الحكم ، ثم خطط مدينة القاهرة حوله ، وبعد عام آخر بدأ في بناء الجامع الأزهر ، الذي افتتح للصلاة لأول مرة في شهر يونيو ٩٧٢م/رمضان ٣٦١هـ.

وظل جوهر يحكم مصر حوالي أربع سنوات ، وهو في ذات الوقت يستكمل فتوحاته الشرقية ، فأخضع الشام والحجاز ، ثم أرسل يدعو الخليفة المعز لدين الله الفاطمي للقدوم ، فوصل في يونيو ٩٧٣م/ رمضان ٣٦٢هـ . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مصر مقرا للخلافة الفاطمية ، وأصبحت القاهرة عاصمة لهذه الدولة قرنين من الزمان ، حتى تاسيس الدولة الأيوبية في ١١٧١م/٥٦٧هـ.

الخلفاء الفاطميون :

حكمت الدولة الفاطمية مصر حوالي قرنين من الزمان من ٩٦٩م / ٣٥٨هـ إلى ١١٧١م/٥٦٧هـ. تولى الخلافة فيها أحد عشر من خلفائها . ويمكن أن نطلق على القرن الأول من هذين القرنين عهد الاستقرار ، ففيه تم تنظيم الشئون الداخلية ، ونشر الأمن ، ووضع النظم الإدارية الجديدة ، والعناية بالجيش وتنمية الزراعة ، والنهوض بالتجارة وتشجيع الآداب والعلوم والفنون [(١)] . أما القرن الثاني من حكم الأسرة الفاطمية في مصر فقد بدأت تظهر فيه الخلافات وبدأ الضعف والانحلال يدب في أجهزة الدولة ، وظهر الاضطراب من حين إلى آخر في أحوال البلاد المختلفة ، حتى وصل الأمر إلى أن طمع فيها الصليبيون الذين كانوا وراء سقوط الأسرة الفاطمية وزوال دولتها .

حكم المعز لدين الله :

ولتفصيل ما أجملنا نبدأ من أول الخلفاء الفاطميين في مصر ، وهو المعز لدين الله ، الذي حكمها حوالي ثلاث سنوات ، منذ وصوله من تونس من ٩٧٣م/٣٦٢هـ إلى ٩٧٦م/٣٦٥هـ . وفي عهده تأسست القاهرة واتسعت وازدهرت كعاصمة للخلافة الفاطمية . كما تم بناء الجامع الأزهر الذي قصد ببنائه أن يكون مصلى للخليفة وجنوده قريبا من قصره بدلا من جامعي عمرو بن العاص في الفسطاط وأحمد بن طولون في

---

(١) د . جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق ـ ص ٤٣٨.

القطائع . وكان من أهداف بناء الأزهر أيضا أن يكون مركزا لنشر الدعوة الشيعية ، ورمزا لانتصار الفاطميين على العباسيين ، ثم اتخذ الجامع الأزهر فى وقت لاحق صفته التعليمية الجامعية بالتدريس لطلاب العلم [١] ، والتى لازمته منذ ذلك الحين ، أما صفته كمركز لنشر الدعوة الشيعية فهى صفة زالت عنه بزوال الدولة الفاطمية من مصر .

أما خارجيا فقد امتدت فتوحات الفاطميين فى عهد المعز إلى الشام وفلسطين وأجزاء من الحجاز .

حكم العزيز بالله :

خلف المعز ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار م ٩٧٥م/٣٦٥هـ إلى أن توفى فى ٩٩٦م/٣٨٦هـ . وفى عهده تمت فتوحات الحجاز ، ودعى له على منابرها ، وامتدت حدود دولته من الجزيرة العربية شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا [٢] ، وبذلك تكون قد فاقت الدولة العباسية اتساعا وقوة ومنعة وثروة ونفوذا . وكان يطمع فى القضاء على بقايا الخلافة السنية العباسية فى بغداد، وعلى الخلافة الأموية السنية فى الأندلس ، لتصبح له الخلافة الإسلامية الواحدة الشيعية ، ومن اجل تحقيق ذلك اهتم بتقوية جيشه ، وأسطول سفنه وتنمية ثروة البلاد، وقد انعكس ذلك كله على البلاد رخاء ورفاهية . وطالت مدة حكمه إحدى وعشرين سنة .

الحاكم بأمر الله :

عندما توفى العزيز بالله خلفه ابنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور من ٩٩٦م/٣٨٦هـ إلى أن توفى سنة ١٠٢٠م/٤١١هـ . وعندما تولى كان طفلا لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخادم ، الذى ظل صاحب السلطة الحقيقة فى حكم البلاد إلى ان قتله الحاكم نفسه سنة ١٠٠٠ م/ ٣٩٠هـ ومنذ هذا التاريخ تمتع الحاكم بأمر الله بسلطات مطلقة إلا أنه أساء استعمالها ، فقد كانت شخصيته تجمع متناقضات كثيرة ، مما يجعل البعض يرون أنه كان مصابا بنوع من اللوثة العقلية وعدم اتزان التفكير [٣].

---

(١) د . جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق ـ ص ٤٢٧.

(٢) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٦

M. Canard - l'impérialisme des fatimides. Alger. 1942- p. 60

(٣) د . جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤٠

واتصف عهده بالقسوة والعنف وسفك الدماء والقرارات المتضاربة المتناقضة ، فهو أحيانا شجاع مقدام ، وتارةأخرى جبان متردد ، وهو سخى معطاء ، وفى أحيان أخرى بخيل جدا ، حتى إنه ظل يلبس الصوف سبع سنين ، وامتنع عن دخول الحمام . وقد كتب على المساجد يذم ويسب أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة ، ثم محا ما كتبه بعد سنتين ، كما أمر بقتل الكلاب ثم نهى عن ذلك ، ومنع صلاة التراويح عشر سنوات ثم أباحها ، ومنع بيع العنب وقطع الكروم خشية صنع النبيذ ، وهو الذى منع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا . وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وهدم الكنائس ، ثم أمر بإعادة بنائها . وعلى الرغم مما أوقعه بأهل الذمة فإنه قد قلد بعضهم منصب الوزارة .

وانتهى الأمر بالحاكم وأفكاره المتطرفة أن أدعى الألوهية ، وظهرت طائفة جديدة تدعو بذلك هى طائفة الدروز . وقد أثارت تلك الدعوة النزاع بين الحاكم والسنيين مما انتهى بقتله سنة ١٠٢٠م / ٤١١هـ . وإن كانت الروايات قد اختلفت فى وفاة الحاكم ، فيقول البعض إن أخته « ست الملك » هى التى دبرت قتله لسوء تصرفه . بينما يعتقد الدرزية أنه اختفى ويعود إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم [١].

حكم الظاهر والمستنصر :

خلف الحاكم بأمر الله ابنه الظاهر لإعزاز دين الله من ١٠٢٠م/٤١١هـ إلى ١٠٣٥م/ ٤٢٧هـ . وكان عمره حوالى ستة عشر عاما فتولت عمته ست الملك الوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه إلى أن توفيت ١٠٢٤م/٤١٥هـ . وقد تميز الظاهر على عكس أبيه بالعقل والاتزان ، وحسن السياسة ، وبالتسامح مع أهل الذمة ، فتمتعوا فى عهده بالحرية الدينية . ووجه عنايته إلى ترقية شئون البلاد ، وتحسين حالة الزراعة ، وضبط الأمور فى البلاد وخارجها ، وحكم مايقرب من ستة عشر عاما ، ومات شابا نتيجة لمرض ألم به .

خلف الظاهر ابنه المستنصر بالله أبو تميم معد م ١٠٣٥م/ ٤٢٧هـ إلى ١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ . وكان فى السابعة من عمره وحكم مايقرب من الستين عاما هى أطول فترة حكم للخلفاء الفاطميين ، ويمكن تقسيم فترة حكمه إلى جزئين :

فى الجزء الأول نعمت مصر بالرخاء والطمأنينة والاستقرار ووصلت الفتوحات

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٨.

الفاطمية إلى بغداد ذاتها ، حتى دعى للمستنصر على المنابر فى بغداد عشرة أشهر سنة ٤٤٨ هـ .

أما الجزء الثانى فقد حدثت فيه أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كادت تقضى على الخلافة ، وهى وإن لم تقض عليها فعلا فقد بدأ بها عهد انحطاط الدولة الفاطمية ، فحدثت سلسلة من المجاعات أدت إلى قحط عظيم فى البلاد نتج عنها غلاء شديد ، وانتشار الأوبئة وظهور الفتن والسرقات وأعمال السلب والنهب . أما خارجيا فقد توالى انفصال أجزاء الدولة لانقطاع ما كانت ترسله مصر من مؤن وغلال ، فقطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة ، وانفصل شمال أفريقيا . وتفاقمت الأحوال واضطربت أمور مصر ، واختلت موازينها ، وأطلق على تلك الفترة « الشدة العظمى » من كثرة ما مر بمصر من أمور شديدة . وعجز المستنصر عن علاجها فاستدعى واليه على عكا « بدر الجمالى » وعينه وزيرا من أجل ضبط الأمور وأعطاه الكثير من سلطاته سنة ١٠٧٣م/ ٤٦٦هـ .

انفرد بدر الجمالى الوزير الفاطمى بالأمور ، ويمكن اعتبار تاريخ تولى بدر الجمالى الوزارة خطوة انتقالية فى حياة الدولة الفاطمية أصبح فيها الوزراء هم أصحاب السلطة الحقيقية فى الحكم بينما أصبح الخلفاء ذوى سلطة شكلية ، وهمهم الأكبر هو الحفاظ على الرسوم الدينية للخلافة ، والاهتمام بأمورهم الشخصية من أبهة وزينة . وتحول الوزراء منذ عهد بدر الجمالى من وزراء تنفيذ ينفذون أوامر الخليفة صاحب السلطة الحقيقية إلى وزراء تفويض تكون أمور الدولة كلها مفوضة إلى الوزارة وليس للخلافة فيها أمر ولا نهى . وكان الوزراء قبل بدر الجمالى ومن أرباب القلم وهم رجال الفكر والدين . أما بدر الجمالى فكان من أرباب السيف وهم حملة السيوف المقاتلون فى صفوف الجيش ولهذا كان من بين ألقابه « أمير الجيوش » [1] فأصبح الوزراء منذ ذلك العهد وزراء تفويض من أرباب السيف .

وللدلالة على اتساع اختصاصاتهم يصفهم المقريزى فى خططه بقوله : « وصار وزير السيف فى عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة ، من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية .. »[2].

---

(١) د . محمد جمال الشيال ـ المرجع السابق . ص ٤٤٥

د . عبد المنعم ماجد ـ نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ ص ٦٢.

(٢) جـ ٢ ص ٢٠٥

ورغم ما ينسب للوزير بدر الجمالي من ضبط لأمور الدولة ، وإعادة الأمن والاستقرار للبلاد ، إلا أنه يعاب عليه زيادة العنصرية داخل جيش الدولة أكثر مما كانت عليه قبله .

فقد كان الجيش الفاطمي يتكون في أول الأمر من المغاربة ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك ، واستخدم الكثير منهم في جيشه . ثم استعان الحاكم بأمر الله بالسودانيين في جيشه وزاد عددهم في عهد المستنصر لأن أمه كانت منهم .

أما بدر الجمالي فقد كان في الأصل أرمنيًا فاستكثر من هذا العنصر في الجيش لثقته فيهم ولحمايته .

وأدى هذا التعدد في العناصر المكونة للجيش الفاطمي من مغاربة وعرب وأتراك وسودان وأرمن وغيرهم إلى النزاع فيما بينهم ، انعكس سلبيًا على أمور الدولة وأمنها ومنعه جيشها فضعف الجيش ، وبالتالي ضعفت الدولة .

سقوط الأسرة الفاطمية :

اتفقت عدة عوامل على الاتجاه بالدولة الفاطمية نحو نهايتها . وكان أول هذه العوامل ذو الأثر الرئيسي هو ضعف الجيش ، أما العامل الثاني فهو قوة الوزراء والصراع الذي يخلفه ذلك بينهم وبين الخلفاء ، حتى أدى في وقت من الأوقات إلى قيام المؤامرات لقتل أحدهم الآخر . وثالث هذه العوامل هو أن معظم خلفاء العصر الأخير من الدولة الفاطمية قد تولوا الحكم وهم بعد أطفال صغار فقد ولى الأمر بأحكام الله وهو ابن خمس سنوات، أما الفائز فكان عمره حوالي أربع سنوات عندما تولى أمور الخلافة ، حتى إنه كاد يموت روعًا يوم استخلافه [1] . وتولى العاضد الخلافة وله إحدى عشرة سنة من العمر [2].

وأدى صغر سن الخلفاء إلى محاولة الوزراء الاستقلال بالأمور ، وبالتالي إلى ارتباك الأمور بصفة عامة . أما العامل الرابع وهو الذي يمكن أن يعد نتيجة لاجتماع العوامل السابقة معا فهو الحروب الصليبية ، التي كانت تهدد دائماً حدود الدولة . وتمكن الفرنج في عهد الآمر بأحكام الله من الاستيلاء على عدد من مدن الشام منها طرابلس وبانياس وصور ، وعامل آخر لا يقل أهمية عما سبقه وهو زوال ثراء الدولة الفاطمية في

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٦ .

(٢) د . جمال الدين الشيال ـ المرجع السابق ـ ص ٤٤٧ .

د . عبد المنعم ماجد ـ المرجع السابق ـ ص ٧٧ .

مصر نتيجة للأزمات المتتابعة ، مما جعل بعض الأقطار تنفصل عنها لانقطاع ما كانت ترسله من مدد . فبعد أن كانت سلطة الدولة الفاطمية فى مصر تشمل الشمال الأفريقى والشام واليمن والحجاز والموصل بل دُعى للخليفة الفاطمي على منابر بغداد حاضرة الخلافة العباسية المنافسة لمدة تبلغ العام ، فقد بدأت هذه الأقطار فى الانفصال الواحد تلو الآخر نتيجة للعوامل السابقة التى أدت بالدولة الفاطمية إلى الانحلال .

وكانت الشام من الأقطار التى انسلخت من الدولة الفاطمية ووقعت تحت سلطتين ، الأولى هى سلطة السلاجقة الأتراك متمثلة فى قوة نور الدين محمود بن زنكى . أما السلطة الثانية فهى للصليبيين وتتمركز فى الساحل وفلسطين .

ويؤدى تدهور أحوال الدولة الفاطمية إلى أن تتجابه هاتين القوتين على أرض مصر نتيجة للجوء أحد أطراف الصراع فى مصر وهو الوزير المخلوع شاور إلى نور الدين فى الشام ولجوء الآخر وهو الوزير ضرغام إلى « عمورى » ملك بيت المقدس الصليبى ، الذى كان يخشى أن يحاصَر من الشمال والجنوب بقوات نور الدين . وتتكرر المجابهات بين القوتين ثلاث مرات فى سنوات قليلة وكان النصر النهائى فيها لقوات نور الدين محمود بقيادة « أسد الدين شيركوه » وأثناء تلك المدة قُتل الخصمان الوزيران الفاطميان شاور وضرغام ولم يجد الخليفة الفاطمى العاضد من يعينه للوزارة سوى أسد الدين الذى ما لبث أن توفى ، فاختار العاضد صلاح الدين ابن أخ أسد الدين ليوليه الوزارة فى مصر .

ووقع صلاح الدين فى حيرة فهو قائد من قواد جيوش دولة السلاجقة التى تدين بولائها للخلافة العباسية فى بغداد ، والتى هى على خلاف تقليدى وعقائدى مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، التى تعين صلاح الدين وزيرا لها ، ولكنه تعامل مع الجانبين بالحكمة، وكان نور الدين يحض صلاح الدين على إجابة الخليفة العباسى إلى طلبه بالقضاء على الدولة الفاطمية الشيعية لصالح الدولة العباسية السنية ، وآثر صلاح الدين التمهل واتخذ خطوات تمهيدية للقضاء على أعوان الخليفة الفاطمى أولا من قادة الجيوش والقضاة ورجال القصر . ولما تمت له السيطرة على الأمور كلها دَعى على أحد المنابر للخليفة العباسى دون الخليفة الفاطمى ، وتلك أحد الرموز الهامة للتبعية ، ولما لم يعترض أحد أمر صلاح الدين بتعميم هذا الدعاء على جميع منابر المساجد فى الجمعة التالية ، ويقال إن الخليفة الفاطمى العاضد قد توفى قبل هذه الجمعة ، وبوفاته انتهت الدولة الفاطمية فى مصر .

الفصل الثالث

النظم السياسية والإدارية

للمرة الأولى منذ الفتح العربي الإسلامي تصبح مصر دار خلافة ، بعد أن كانت دائما ولاية تابعة لدار الخلافة ، سواء في المدينة المنورة أو في دمشق أو في بغداد . فقد أسس الفاطميون دارًا للخلافة الشيعية واتخذوا مصر حاضرة لها لتنافس الخلافة العباسية السُّنِّية . وكان من الطبيعي أن يستتبع تحول مصر من إمارة إلى دار الخلافة أن يحدث تغيير في النظم القائمة ، سواء السياسية منها أو الإدارية ، وإن كان لابد من الإشارة إلى أن النظم الإدارية في مصر وصلت في بعض الأحيان ، خاصة إبان حكم الطولونيين والإخشيديين إلى تقدم واضح نظرا للاستقلال شبه الكامل الذي كان يتمتع به حاكم مصر عن دار الخلافة .

ونستعرض فيما يلي أهم النظم السياسية والإدارية في مصر أثناء خلافة الفاطميين ، فنبدأ بالخلافة والخليفة ، واختصاصاته ، ونظام ولاية العهد ، ثم الوزارة ، والكتابة ، والحجابة ، ثم نستعرض دواوين الدولة الهامة ، ووظائف القصر ، وأخيرا الجيش والشرطة .

الخلافـــة :

رأينا كيف كان النزاع على الحكم بين الفاطميين والعباسيين يعتمد أساسا على محاولة إحلال المذهب الشيعي محل المذهب السني . وعلى أحقية الفاطميين بالحكم من غيره ، وقد لقيت نظرية الحق الإلهي في الحكم ، والتي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، فأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله على الأرض ، وله شخصية مقدسة ، وراجت في مصر فكرة تقديس الخلفاء الفاطميين (١).

---

(١) - M. Canard . op . cit - p. 104

- د . حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق - ص ٢٦٦ .

وفي سبيل ترسيخ فكرة القدسية للحاكم في أذهان المحكومين كان الخلفاء الفاطميون يتخذون لأنفسهم الكثير من صفات التقديس ، ويظهر ذلك من عبارة المعز لدين الله : «أنا كلمات الله الأزليات وأسماؤه التامات وأنواره الشعشعانيات وأعلامه النيرات ومصابيحه البينات وآياته الباهرات وأقداره النافذات لايخرج منا أمر ولايخلو منا عصر... »[1].

أما ألقاب الخليفة فكثيرة ، منها الخليفة الفاطمي ، أو الخليفة العلوي أمير المؤمنين . وكان يطلق على الفاطميين « العبيديين » نسبة إلى أول خلفائهم في المغرب « عبيد الله المهدي » كما كانوا يسمون « العلويين » نسبة إلى علي ابن أبي طالب ، أو « الفاطميين » نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه وتعالى بأسمائهم مثل المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله ، والمستعلي بالله ، والآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله ، والظافر بأمر الله ، والفائز بنصر الله ، والعاضد لدين الله [2].

وامتازت الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة ، وكانت مظاهر هذه الأبهة تتمثل في احتفالات صلاة الجمعة ، خاصة في شهر رمضان ، وصلاة العيدين حيث كان موكب الخليفة في تلك الأيام يعد من الأحداث المشهودة التي يتجمع الناس لمشاهدة ماتتضمنه من استعراض لقوة الخليفة وثرائه وغناه ، وهي الوسائل التي تضمن له ولاء أنصاره ، وإرهاب أعدائه ، وهو نفس الأثر الذي تؤديه العروض العسكرية في العصور الحديثة.

كما كان الخليفة يخرج للاشتراك في الاحتفال بوفاء النيل ، والاشتراك في احتفالات الطوائف غير الإسلامية .

ومن أهم الأحداث التي كان مؤرخو تلك العصور يسهبون في وصفها علاوة على المواكب السابقة ، الخروج لتوديع الحملات الحربية [3].

---

(١) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٦ .

(٢) د . عطية مصطفى مشرفة ـ نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ٥٨ .

(١) المقريزي ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . القاهرة ١٩٧٨ جـ ٣ ص ١٦٢.

ولاية العهـــد :

يقضي نظام وراثة العرش عند الشيعة الإسماعيلية بأن تكون الإمامة في نسل علي ابن أبي طالب باعتباره خليفة النبي شرعا دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب إلى الابن[١] .على العكس من الخلفاء السُّنِّيين الذين سبقوهم من الأمويين والعباسيين ، والذين كانوا يبيحون انتقال الخلافة إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سناً فلم يكن من شروط الخلافة عندهم أن يكون ابنا للخليفة السابق . وذلك نتيجة لاعتقاد راسخ لديهم بأن الخليفة أثناء حياته يلقن ابنه المرشح للخلافة بعض أسرار الحكم ، فكان من الشروط الهامة لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية الوصية أو النص ، أي أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده ، ويعتبر هذا النص بمثابة أمر التعيين في الخلافة [٢] . ولابد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته حتى لايخلو العالم من إمام .

الوزيـــر :

كانت الوزارة في العهد الفاطمي الأول وزارة تنفيذ ، أي أن السلطات كلها بيد الخليفة، وليس الوزير إلا أكبر المعاونين الذين ينفذون سياسة وتعليمات وأوامر الخليفة.

كما كان الوزراء في هذا العهد من أرباب القلم ، وهم الكتاب الذين يحسنون الكتابة ، وتدبيج الرسائل والأوامر والتقاليد التي يصدرها الخليفة ويوقعها [٣].

أما في العهد الفاطمي المتأخر فقد اختلف وضع الوزراء ، فأصبحوا من أرباب السيوف ، أي من كبار قادة الجيش ، وقد يكونون من أرباب السيوف والأقلام معا ، فأصبحت صفات العسكرية من فروسية وشجاعة وإقدام وقوة مطلوبة إلى جانب حسن الأدب والكتابة وتدبير الأمور .

كما أصبح اختصاص الوزراء أعظم كثيرا عندما أصبحوا وزراء تفويض لاتنفيذ ، فقد تقلص اختصاص الخلفاء لصالح الوزراء الذين أصبح يجوز لهم مباشرة الحكم

---

(١) د . جمال الدين الشيال ـ مجموعة الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ٢٠ .

(٢) د . جمال الدين الشيال ـ مصر في العصر الفاطمي الأول . ص ٤٤٧ .

(٣) M. Canard . les instituations des fatimides en Egypte - Alger - 1957 -p. p.302 - 330

والنظر في المظالم ، وتقليد الولاة وتسيير الجيوش ، وتدبير أمر الحروب ، والتصرف في أموال بيت مال المسلمين [1].

وفي العصر الفاطمي تولى الذميون الوزارة ومنهم يعقوب بن كلس اليهودي وعيسى ابن نسطورس المسيحي .

وفي بعض الأوقات ضعفت الوزارة وتحولت إلى مايسمى « الوساطة » ولكن لم يلبث أن عاد منصب الوزارة مرة أخرى .

أما عن ألقاب الوزراء ، فكما رأينا أن الخليفة كان يختار لنفسه لقبا منسوبا إلى الله ، أو إلى دين الله ، فإن الوزراء كانوا ينسبون إلى الدولة مثل أمين الدولة ، أو عميد الدولة أو أمين الأمناء أو ذي الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة . أو ينسب الوزير نفسه إلى الخليفة مثل الوزير الاجل صفي أمير المؤمنين وخالصته ، أو تاج الملّة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين [2].

ومع زيادة سلطة الوزير في العصر الفاطمي المتأخر أضيف إلى ألقابه ألقاب أخرى ، تدل على هذا التوسع في الاختصاصات ، حتى أن بدر الجمالي وزير المستنصر أمر بأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة مع الخليفة واختار لنفسه ألقابا منها :

« ناصر إمام الحق ، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، وولي النعم ورافع الجور عن الامم ، ومالك فضيلتي السيف والقلم »(٣) .

الكتابـة والحجابـة :

كانت الكتابة في العهد الفاطمي تأتي في مرتبة تالية لمرتبة الوزارة ، وكان يشترط فيمن يتولى الكتابة المقدرة في فن الإنشاء ، وسعة الاطلاع في الأدب ، ومعرفة واسعة وعلم وكفاية وقدرة على معالجة الأمور بالكياسة المطلوبة [4].

وأكبر الكتاب هو كاتب الإنشاء أو صاحب الإنشاء ويسمى أحيانا كاتب الدست

---

(١) الماوردي ـ الاحكام السلطانية ـ ص ٢٦ .

(٢) د . حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٦ .

(٣) المرجع السابق ـ ص ٢٧٩ .

ـ عبد المنعم ماجد ـ المرجع السابق ـ صص ٧٠ .

(٤) M. Canard - le céré moniall fatimide et le cérémoniall Byzantin. 1952. pp. 104- 110

الشريف ، أو كاتب السر ، وأحيانا كاتم السر [١] وهو المسئول عن المكاتبات الواردة للخليفة ، فيتسلمها ويصنفها حسب موضوعها ، وقد يعرض فيها رأيه ، ثم يعرضها على الخليفة لاتخاذ مايراه فيها [٢].

ومن مراتب الكتاب التالية لكاتب الإنشاء ، صاحب القلم الدقيق الذى يوقع على المظالم ، ويجالس الخليفة فى خلوته ليذاكره مايحتاج إليه من كتاب الله ، أو يروى له من سير الأنبياء والخلفاء والعظماء ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، وقد يعلمه تجويد الخط . ثم يليه صاحب القلم الجليل ، وهو يتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ويضعها فى الصيغة القانونية لعرضها على الخليفة ، لأخذ التصديق عليها [٣].

أما حُجَّاب العصر الفاطمى فلم يكن لهم النفوذ الذى كان يتمتع به حجاب العصرين الأموى والعباسى ، وإن كانوا من أصحاب الوظائف الهامة فى البلاط الفاطمى ، بدليل ذكرهم فى مجالس المُلك . « صاحب بيت المال ، والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة»[٤].

الإدارة المحلية فى الأقاليم :

منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر على يد عمرو بن العاص لم يحدث تغيير ذو بال فى الأقاليم المصرية - عما كان متبعا خلال حكم الرومان - حتى جاء الفاطميون فأخذوا بتقسيم مصر إلى أربع ولايات كبرى هى :

- ولاية قوص: وتضم معظم بلاد الوجه القبلى .
- ولاية الشرقية : وتضم بلبيس وقليوب وأشمون .
- ولاية الغربية : وتضم المحلة ومنوف وأبيار .
- ولاية الإسكندرية : وتضم مدينة الإسكندرية ومنطقة البحيرة .

---

(١) ومنها أخذت التسمية الفرنسية secrétaire أى السكرتير .

(٢) Dr. Nasser El Ansary - le protocole dans le droit public egyptien - thése de doctorat d'Etate. aix - en - provence. 1985 - pp. 212 - 215.

(٣) القلقشندى - صبح الأعشى جـ ٣ - ص ٤٩٠ .

- عبد المنعم ماجد - المرجع السابق - ص ١٠٥ .

(٣) القلقشندى - المرجع السابق - جـ ٣ - ص ٤٨٥ .

وفضلا عن هذا التقسيم إلى ولايات فقد وجدت وحدات إدارية أصغر هي الكُوَر ، وكانت البلاد مقسمة إلى أربع وعشرين كورة هي :

الشرقية والمرتاحية والدقهلية وقويسنا والغربية والسمنودية والدنجاوية والمنوفية وبنى نصر والتستراوية والبحيرة وحوف رمسيس والكفور الشاسعة وفوة والمزاحمتين والجيزة والإطفيحية والبوصيرية والفيومية والبهنساوية والأشمونية والاسيوطية والاخميمية والقوصية (١).

الدواويـن :

أهم دواوين العصر الفاطمي هي ديوان الجيش ، وديوان الكسوة والطراز ، وديوان الاحباس (الأوقاف) ، وديوان الرواتب ، وديوان خاصة الخليفة ، وفى بعض الأوقات كانت تضاف دواوين لمتابعة التوابع الخارجية للدولة مثل ديوان الشام ، وديوان الحجاز(٢).

البـــلاط:

كان عدد العاملين فى البلاط الفاطمي كبيرا منهم ذوى الوظائف الهامة المقربة من الخليفة ، وهؤلاء يفترض فيهم الإخلاص المطلق ، ومنهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة الذى يحمل رسائل الخليفة إلى الوزير وكبار العاملين ، وصاحب بيت المال ، وقاضى القضاة المختص بالنظر فى الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ويليه داعى الدعاة المسئول عن نشر الدعوة الشيعية فى المساجد ودور العلم ، ثم المحتسب ويختص بالنظر فى الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل وضبطها ، والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة (٣).

الجيش والأسطــول :

اهتم الفاطميون بتكوين الجيش ، ليكون درعا لهم ضد أعدائهم ، ويعينهم فى تحقيق مآربهم بالفتوحات فى الاقاليم الأخرى ، وبهذا الجيش الفاطمي تم فتح مصر أولاً ثم الشام والحجاز واليمن .

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق ـ ص ٢٩٢ .

(٣) د . عبد المنعم ماجد ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٩ .

Dr. Nasser El Ansary - op. cit - p.. 217

وكان الجيش يتكون من الأمراء وطوائف من الجند والتي زاد عدد عناصرها في العصر الفاطمي المتأخر ، حتى بلغ عددا كبيرا أدى إلى الصراع فيما بينهم ، وضعف الجيش والدولة كما رأينا .

وكان الخلفاء يوجهون اهتمامهم بالجيش ، فيخرجون لتوديع الحملات الحربية خاصة المتجهة إلى بلاد الشام وفلسطين ، لقمع بعض ثورات الأهالي هناك ، أو تلك المتجهة لملاقاة الأعداء من جيش الصليبيين . وفي هذه الاحتفالات كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدي الخليفة ، فيخلع عليه خلعه مزركشة بالذهب ، وكان الجند إذا رأوا وجه الخليفة يخرون مقبلين الأرض أمامه [١].

كما وجه الفاطميون بعد فتح مصر والشام اهتمامهم نحو إنشاء أسطول لحماية سواحل البلاد من غارات البيزنطيين . وأنشأ الفاطميون في المقس قرب الإسكندرية دارًا لصناعة السفن . وقد قام الأسطول المصري في ذلك العهد بدور هام في الحرب التي قامت بين القرامطة والفاطميين سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م [٢].

وكان تشكيل قوات الأسطول من عشرة قواد كبار تحت رئاسة قائد القواد أو « أمير البحار » [٣].

الشــرطــة :

قبل مقدم الفاطميين كانت الشرطة في مصر تنقسم إلى شرطة سفلى ومقرها مدينة «الفسطاط » وشرطة عليا ومقرها « العسكر » شمالي الفسطاط ، ولذلك سميت شرطة عليا . وبعد بناء جوهر الصقلي مدينة القاهرة نقلت إليها الشرطة العليا [٤].

وكان منصب الشرطة يخضع لتعديلات في الاختصاص الجغرافي ، فنجد أحيانا اثنين يتوليان معا رئاسة الشرطة السفلى ، أو نجد أن الشرطتين العليا والسفلى تسندان لشخص واحد [٥].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن - المرجع السابق - ص ٣٠٢ .
د . عطية مشرفة - المرجع السابق - ص ١١٧

(٢) القلقشندي - المرجع السابق - جـ٣ ص ٤٢٠ .

(٣) المقريزي - اتعاظ الحنفا - جـ ١ ص ١٣٢ .

(٤) د . ناصر الانصاري - تاريخ أنظمة الشرطة في مصر - القاهرة ١٩٨٩ ص ٥٧.

(٥) إبراهيم القمام - تاريخ الشرطة من الدولة الطولونية إلى الدولة الأيوبية في مجلة الأمن العام - العدد ١٤ - ١٠٥.

وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يضاف لصاحب الشرطة اختصاص آخر مثل القضاء أو الحسبة ، فنجد أن « غبن » قد تولى الشرطتين والحسبة فى عهد الحاكم بأمر الله(١).

وكان أصحاب الشرطة يعينون من الأعوان المقربين ذوى الجاه والنفوذ ، ويزداد نفوذهم بهذا المنصب ويتضح ذلك من الألقاب التى يتخذونها ، ومنها على سبيل المثال ماكان يطلق على « غبن » صاحب الشرطة فى عهد الحاكم بأمر الله من أنه « قائد القواد وأستاذ الأستاذين »(٢).

وكانت مهام صاحب الشرطة عظيمة أهمها أن يشمل الرعية باهتمامه ، ويعمهم بالأمن ، وينشر العدل ، ويساوى فى الحق ، ويقيم الحدود ، ويمنع الفساد ، ويطوف ليلا. وكان صاحب الشرطة هو أداة تنفيذ أوامر الخليفة وأحكام القضاة (٣).

ومن المهام الرئيسية للشرطة فى ذلك العهد أيضا إطفاء الحرائق ، والقضاء على الفساد ، ومحاربة الخمور ، والحفاظ على الآداب العامة ، والتصدى للفتن والاضطرابات والثورات(٤).

كما وجد فى ذلك العصر نوع من الشرطة السرية مهمتها معرفة الأخبار للسيطرة على الأمور (٥).

---

(١) د . عطية مشرفة ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٢٢٢.

(٤) د . ناصر الأنصارى ـ المرجع السابق ـ ص ٦١ .

(٥) ـ ابن إياس ـ تاريخ مصر ـ جـ ١ ص ٥٣ ـ ٥٤ .

ـ إبراهيم القمام ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣ .

ـ د . ناصر الأنصارى ـ المرجع السابق ـ ص ٦٣ .

البـــاب التـــاســـع

الأســـرة الأيوبيـــة

فى وقت واحد تعددت دول الخلافة الإسلامية ، فوجدت دولة الخلافة العباسية التى اتخذت من بغداد عاصمة لها ، وسيطرت على الممالك الإسلامية الشرقية ، ووجدت دولة الخلافة الفاطمية التى تأسست فى الشمال الإفريقى ، ثم مالبثت أن اتخذت من القاهرة عاصمة لها ، وسيطرت على الممالك الإسلامية المطلة على البحر المتوسط فى قارتى آسيا وإفريقيا .

كما وجدت دولة خلافة أموية صغيرة فى الأندلس . وقد عاشت فى جوف الدولة العباسية دولة السلاجقة . وهى التى اكتسحت فى طريقها جميع الإمارات الإسلامية التى تكونت وانتشرت بالشرق الأدنى. ولما بدأ الضعف والوهن يتسرب إلى الدولة العباسية لجأ خلفاؤها إلى الاعتماد على هؤلاء السلاجقة فى حكم الإمارات البعيدة لإخضاعها . وكان السلاجقة من السُنِّيين المغالين فى تعصبهم للمذهب السُنِّى ، وكانوا يعتقدون أنه من أهم واجباتهم أن يعيدوا إلى هذا المذهب الأقطار التى استولى عليها الشيعة الفاطميون .

وفى هذا الباب نعرض لفصول ثلاثة . أولها فصل الفترة الانتقالية من الأسرةالفاطمية إلى حكم الأسرة الايوبية ، بينما نعرض فى الثانى للمحة تاريخية عن تأسيس الأسرة الايوبية وحكامها ، أما الفصل الثالث فنخصصه لبعض النظم والمؤسسات التى استحدثتها هذه الأسرة فى مصر .

الفصل الأول

انهيار الأسرة الفاطمية

كان بنو أيوب من قبيلة كردية ونشأوا في بيت « زنكي الأتابك » وهو من الرقيق الذين تربوا في البلاط السلجوقي حتى أصبح من الأمراء الأقوياء ذوي السلطة فيه ، وقد جمع حوله بعض رجاله المخلصين الأقوياء ،والذين كان من بينهم الأخوان : «نجم الدين أيوب» و « أسد الدين شيركوه » ، وبحكم شخصيته وأملاكه أصبح زنكي زعيما للمسلمين في النزاع القائم بينهم وبين الصليبيين ، وشيئا فشيئا برز السلطان نور الدين محمود بن زنكي فقلده الخليفة العباسي المسترشد بالله حكم الشام ، وفي هذا الجو السني المعادي للصليبين بالدرجة الأولى وللشيعة الفاطميين في درجة تالية ، نشأ الأخوان المؤسسان للدولة الأيوبية ، أيوب وشيركوه ، وكانا في معية السلطان نور الدين محمود بن زنكي عندما شرع في مناوأة أعدائه من الصليبيين والفاطميين والشيعة متحينا أية فرصة للانقضاض على الصليبيين في بيت المقدس أو الفاطميين في مصر ، خاصة وأن أطماع الصليبيين قد اتجهت نحو الاستيلاء على القاهرة فلم يجد الخليفة الفاطمي ووزراؤه الضعاف في ذلك الوقت أمامهم إلا دفع مبلغ من المال سنويا للصليبيين لتحويل أطماعهم عن مصر . ولكن الحملات الصليبية لم تتوقف ، ولم يكن أمام الوزراء الفاطميين طلائع بن رزيك وابنه رزيك ومن بعدهما شاور إلا الالتجاء إلى حاكم الشام القوي نور الدين محمود بن زنكي للاستعانة به في صد الحملات الصليبية فأرسل لهم أحد قواده « أسد الدين شيركوه » ومعه ابن أخيه « صلاح الدين يوسف بن أيوب » اللذين تمكنا من هزيمة الصليبيين عند الإسكندرية بخطة حربية بارعة في ١١٦٧م/ ٥٦٢هـ ، وعُقِدت في أعقاب ذلك معاهدة بين الوزير الفاطمي « شاور » والقائد السلجوقي « شيركوه » وعاد الأخير إلى الشام إلا أنه لم يمكث طويلا هناك ، فقد استنجد الخليفة الفاطمي « العاضد» بالسلطان « نور الدين محمود » لحماية مصر من غزوات صليبية أخرى [1].

---

(١) على البيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر . القاهرة . ١٩٥٢م ص ١٧ .

ولم تكن هذه الاستغاثة إلا الخطوات الأخيرة نحو زوال الدولة الفاطمية بمصر وانهيارها ، وكانت فى الوقت ذاته الفرصة العظيمة لشيركوه للحضور إلى القاهرة للاستقرار فيها هذه المرة ، وإنشاء دولة جديدة على أنقاض دولة الفاطميين المتداعية ، وتم له ما أراد ، فقد انتصر نصرا كبيرا على الصليبيين ، وطردهم وقتل شاور الوزير الفاطمى.

وكانت مكافأة الخليفة الفاطمي « العاضد » أن قلد الوزارة لأسد الدين شيركوه السلجوقى ، إلا أن شيركوه لم يعمر طويلا بعد توليه الوزارة الفاطمية ، فقد توفى بعد شهرين وخمسة أيام فى ١١٦٩م / ٥٦٤هـ [1].

وإذا لم يكن أسد الدين شيركوه أحد ملوك الدولة الأيوبية فى مصر ، إلا أنه بلاشك قد وضع الأسس المتينة لقيامها على أنقاض الخلافة الفاطمية ، فقد اكتسب شعبية كبيرة بانتصاره على الصليبيين ، وكذلك اكتسب رضا الخليفة الفاطمي وارتياحه ، حتى إن الخليفة الفاطمي عندما قلده الوزارة قد أطلق عليه لقب « الملك المنصور أمير الجيوش » وأصدر كتابا بتوليه هذا المنصب قرأه قاضى القضاة على رءوس الأشهاد ، وفى أعلاه وقعه العاضد بخطه بادئًا بقوله : « هذا عهد لاعهد لوزير بمثله ، وتقليد طوق أمانة رآك الله وأمير المؤمنين أهلا بحمله » [2].

صلاح الدين وزيرا فاطميا :

بعد وفاة شيركوه ورثه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب فى جميع مناصبه ، فقد أرسل الخليفة الفاطمى « العاضد » إلى صلاح الدين ، وخلع عليه خلع الوزارة بالعقد والجوهر ، ونعته بالملك الناصر . وكانت الخلعة عبارة عن ثوب أبيض من الحرير بطرازين ذهب وطيلسان محاط بطراز ذهب دقيق ، وعمامة بيضاء مذهبة ، وفى عنقه العقد الجوهر ، وقيمته عشرة آلاف دينار ، وركب فرسا من أفراس الخليفة العاضد ، قيمتها ثمانية آلاف دينار ، وعليها سرج ذهب مجوهر ، وفى عنقها مشدة بيضاء برأسها مائة حبة جوهر ، وفى قوائمها الأربع أربعة عقود من جوهر ، وعلى رأسها قصبة ذهب . وأنواع من الثياب والخيول الأخرى .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٢.

(٢) النص الكامل عند المقريزى إتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء القاهرة ١٩٧٣ ج ٣ ص ٣٠٢ .

أما منشور الوزارة فملفوف في ثوب حرير أبيض بخط القاضي « الفاضل » ومن إنشائه وقرأه قاضي القضاة ، ودون أعلاه بخط العاضد : « هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله سبحانه عليك فأوف بعهدك ويمينك وخذ كتاب أمير المؤمنين ناهضا بيمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله أحسن أسوة ولمن بقي بقربنا أعظم سلوه » [1].

على أن موقف صلاح الدين كان موقفا شاذا محاطا بكثير من المصاعب ، إذا أصبح منذ توليه الوزارة الفاطمية يمثل جبهتين ، التعارض بينهما أكثر من الاتفاق ، فهو نائب للسلطان نور الدين محمود بن زنكي السُنّي المذهب ، وفي الوقت ذاته هو وزير الخليفة الفاطمي العاضد « الشيعي المذهب » وأصبح موقفه يُملي عليه أن يقوم بما تتطلبه هاتان الجبهتان من واجبات ، وأن ينفذ مايصدره إليه كليهما من أوامر قد تتعارض وتتناقض . إلا أن صلاح الدين نجح في اتباع سياسة ترضي الطرفين معا ، فساس الأمور بتعقل ، وتقرب إلى الخليفة الفاطمي العاضد بمايرضيه ، كما تقرب إلى الناس فاستمال قلوبهم . أما السلطان نور الدين محمود فقد أرضاه بأن جعل اسمه يقترن باسم الخليفة العاضد في الدعاء من على منابر المساجد في خطبة الجمعة [2].

وعمل صلاح الدين على تقوية مركزه في مصر وفي البلاط الفاطمي ، فاستبد بأمور الدولة وأضعف الخلافة ، فأرسل إليه السلطان نور الدين محمود يُرَغّبه في إحلال اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة محل اسم الخليفة الفاطمي [3] . غير أن صلاح الدين تردد في أول الأمر في تنفيذ هذه الرغبة ، حتى لايثير الأهالي ، وعندما استوثق من قوته ومن سلطته ، وفي ذات الوقت من مرض الخليفة العاضد وضعفه الشديد ، أبطل ذكره في خطبة الجمعة ، ثم أمر بالدعاء للخليفة العباسي : « أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله » أمير المؤمنين [4] وتوفي الخليفة الفاطمي في يوم « الإثنين التالي مباشرة واعتنى صلاح الدين بتجهيزه ، وأوصى بالايُبتذل أويُهان بعد موته وركب معزيًا لأهل القصر ، وأمربإعلان البلاد بوفاة المعتضد وأن الخطبة استقرت للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله [5].

---

(١) المقريزي . المرجع السابق ص ٣٠٨ .

(٢) المقريزي . المرجع السابق ص ٣١٠ .

(٣) محمد جمال سرور . الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره . القاهرة . ص ٢٧ هامش (١) .

(٤) المقريزي . المرجع السابق . ص ٣٢٣ .

(٥) علي بيومي . المرجع السابق ص ١٧٠ .

وكان صلاح الدين راغبا في إزالة الدولة الفاطمية من مصر ليستقل بها ويكـوّن فيها دولة له ولأسرته ، وكانت رغبة السلطان نور الدين محمود زنكي أيضا في إزالة الدولة الفاطمية ، ولكن مقصده كان متجها إلى القضاء على الشيعة . وبدأ صلاح الدين في تحقيق ذلك خطوة بخطوة ، فقضى على كثير من مظاهر المذهب الشيعي ، فأزال من أذان الصلاة عبارة : « حي عَلَى خير العمل محمد . وَعِلِيّ خير البشر » ثم أمر بأن تذكر أسماء الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان وليس « علي » فقط .

كما عزل صلاح الدين قضاة مصر من الشيعة وولى قاضي قضاة شافعي المذهب[1].

---

(١) المقريزي . المرجع السابق ص ٣١٩

الفصـل الثـانـي
تأسيس حكم الأسـرة الأيوبيـة

نشوء الدولة الأيوبية في مصر:

كان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر هزة فرح عمت أوساط المذهب السني في الشرق الأدنى كله . وسارت البشائر بذلك الحدث الهام . ولما وصلت الأخبار إلى الخليفة العباسي المستضيء بعث بخلعه إلى نور الدين محمود في الشام وصلاح الدين في مصر .

واستمر صلاح الدين في اتباع سياسة حكيمة متوازنة من أجل استقراره بمصر واستقلاله بها فيما بعد . فبالنسبة للفاطميين نجده يشترك في تشييع جنازة الخليفة العاضد ، ويقيم مأتمًا يليق به ، ثم يُخرج آل العاضد وأسرته بطريقة كريمة من القصر ، ويودعهم دارًا فسيحة تحت إشراف « بهاء الدين قراقوش » وحتى لايثير الناس فإنه يبقى في دار الوزارة ولاينتقل إلى قصر الخلافة .

وحتى يرضي أتباعه وأنصاره فإنه يأمر بفتح خزانة القصر ، ويوزع مافيها عليهم ، ويرسل جزءا كبيرا منها إلى السلطان نور الدين محمود . ثم يقرر صلاح الدين أن تسك العملة باسم المستضيء وباسم نور الدين معا فنقش اسم كلا منهما على وجه .. واخيرا أمر بأن تنصب الأعلام السود وهو شعار الدولة العباسية وترفع على منابر الجوامع ، ويرتدي الخطباء الثياب السوداء التي ارسلت خصيصا من بغداد(1).

وبذلك تعود مصر إلى الدولة العباسية بصفة رسمية شكلية ، أما من الناحية العملية فقد كانت تلك خطوة هامة أخرى لصلاح الدين نحو الاستقلال شبه الرسمي بمصر ، وتكوين دولته فيها خاصة بعد وفاة السلطان نور الدين محمود بن زنكي سنة ١١٧٤م ٥٦٩ هـ ووفاة « عموري » ملك القدس .

---

(١) على بيومي ـ المرجع السابق ـ ص ١٧٨ .

الحكام من الإسرة الأيوبية :

تولى الملك من الأسرة الأيوبية فى مصر ثمانية ملوك ، استمرت مدة حكمهم حوالى ثمانين عاما من سنة ١١٧١م إلى ١٢٥٠م (٥٦٧هـ ـ ٦٤٨هـ) .

وكان أولهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، الذى حكم اثنين وعشرين عاماء من ١١٧١م/٥٦٧هـ إلى أن توفى فى ١١٩٣م/٥٨٩هـ وخلفه ابنه الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ، والذى توفى ١١٩٩م / ٥٩٥هـ وقد انفتح بموته باب الفتن ، فقد آل الملك بعده وبعهد منه إلى ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد وكان له من العمر تسع سنوات وبضعة أشهر ، فقام بأمور الدولة الاتابك « بهاء الدين قراقوش » فاختلف عليه أمراء الدولة وراسلوا فى شأنه عمه الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، فقدم وأستولى على الأمور ، ولم يكن للمنصور معه سوى الاسم ، ولكن الأمور لم تستقر على ذلك ، فقد وقعت أحداث بين الأفضل وعمه العادل ، فانتصر العادل ودخل مصر وخلع المنصور واستبد بسلطنة ديار مصر والشام وحكم تسعة عشر عاما ومات ١٢١٩م / ٦١٥هـ ثم خلفه ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمد ، وهو أول من سكن القلعة التى كان صلاح الدين قد وضع أساسها لتصبح مقرا جديدا للحكم (١).

وتوفى الكامل سنة ١٢٣٩م / ٦٣٥هـ وخلفه ابنه الملك سيف الدين أبوبكر وتوفى بعد سنتين ، فاستولى على السلطنة من بعده أخوه الملك الصالح نجم الدين أبو الفتح أيوب بن الكامل ، الذى كانت مدة حكمه تسع سنوات ، ملك فيها مكة وغزا بلاد اليمن ، وأستكثر من شراء المماليك وإعتاقهم وتأميرهم ليكونوا تعزيزا لجيشه ، وكان موته بالمنصورة أثناء الحملة الصليبية السابعة ، قبيل المعركة التى تم فيها أسر الملك الفرنسى لويس التاسع وأودع فى دار ابن لقمان فى المنصورة .

ولما مات السلطان الكامل أحضرته شجرة الدر زوجته وأم ولده خليل إلى قلعة الروضة من غير أن يشعر به أحد ، وأخذت بزمام الأمور من غير أن تظهر موت الصالح ، وسارت الأحوال وتوهم الكافة أن السلطات مريض إلى أن حضر الملك المعظم « توران شاه» ابن الكامل من حصن كيفا قرب العراق ، فسلمت إليه شجرة الدر مقاليد الأمور ، ولكن هذا الأخير أساء تدبير الأمور ، وعكف على السكر والملاهى والملذات ، فنفرت منه

(١) بقيت قلعة صلاح الدين مقرا للحكم قرابة سبعة قرون حتى منتصف حكم أسرة محمد على فى عهد إسماعيل .

قلوب الناس ثم حدث أن قطع عن مماليك أبيه رواتبهم ، وقدّم عليهم من وصل معه من الشام . بل وجردهم من رواتب الشرف ، كما أنه اختلف مع أرملة أبيه شجرة الدر ، ولم يصن جميلها [1] ، فحنق عليه مماليك أبيه وقاموا عليه وقتلوه سنة ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ ولم يقم في السلطة سوى شهرين ، ولم يكن قد دخل قصر السلطان بالقاهرة بعد وبموته انتهت دولة بني أيوب في مصر .

---

(١) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دولة الملوك ـ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٨ جـ ١ ق ١ ص ٣٥٣ .

الفصل الثالث

مؤسسات الأيوبيين ونظمهم

كان للدولة الأيوبية آثارًا هامة من الناحية السياسية ، تتمثل فى القضاء على الدولة الفاطمية بمصر ، والعودة بها إلى نفوذ الدولة العباسية ، ومن الناحية العسكرية تتمثل آثارها فى استعادة قوة البلاد ، والوقوف فى مواجهة الجيوش الصليبية ، أما من الناحية الدينية فكان الأثر الهام هو العودة إلى المذهب السُّنِّى بدلا من المذهب الشيعى الذى كان الفاطميون يحاولون نشره فى مصر .

ولكن من ناحية النظم الكائنة داخل البلاد ، وطريقة إدارتها ، فلم يكن لهم أثر كبير ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أكثر من سبب ، أحدها أن القاهرة التى أصبحت مقرا للخلافة الفاطمية قد شهدت فى فترة حكمهم تقدما فى مجال النظم الكائنة بما يليق بحاضرة الخلافة وببلاط الخليفة ، خاصة مع ميلهم إلى الأخذ بمظاهر العظمة والأبهة ، مما يعنى أن أجهزة الحكم كانت متقدمة مما لم يترك لصلاح الدين الكثير لتطويرها ، بل استفاد منها كما هى تقريبا .

كذلك قد يكون من هذه الأسباب تركيز صلاح الدين وخلفائه حكام الدولة الأيوبية فى مصر على النواحى العسكرية ، بغرض تقوية جيوشهم لمجابهة الجيوش الصليبية ، مما صرفهم بعض الشىء عن إحداث تغييرات فى منظمات الدولة وأنظمتها ، وأخيرا قد يكون أحد هذه الأسباب القِصَر النسبى لمدة دولتهم التى بلغت حوالى ثمانين عاما فقط .

ورغم ذلك فإن عهد الدولة الأيوبية لم يخلو من بعض النظم الجديدة منها :

السلطان :

وهو الرئيس الأعلى للدولة ، والمهيمن على شئون الأمراء العامة والخاصة ، وصاحب الحق فى تدرجهم فى مراتب الترقى ، وفى توزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود ، وتحديد أنصبتهم فيها ، وتعيين كبار موظفى الدولة وعزلهم وتأديبهم ، والنظر فى المظالم ، وقيادة

الجيوش في الحروب [1].

وكان سلاطين بني أيوب هم أول من اتخذ هذا اللقب في مصر ، وقد أخذه عنهم المماليك فيما بعد .

مجلس السلطنة :

رغم السلطة الكبيرة التي كان يتمتع بها السلطان الأيوبي ، فإنه لم يكن مطلق التصرف ، فكان عليه إذا أراد البت في مشروع من مشروعات الدولة الحيوية ، أو إعلان حرب ، أو إبرام صلح أن يعقد مجلس السلطنة المكون من كبار الموظفين للاستئناس بآرائهم قبل الإقدام على تنفيذ أية مشروعات أو خطط ، وكان أحد كبار الأمراء مسئولا عن الأمور الخاصة بمجلس السلطنة ، يطلق عليه اسم أمير مجلس [2] هو بمثابة الأمين العام للمجلس ، يدعوه للانعقاد بأمر السلطان ، ويُعد للاجتماعات ويدونها ويحفظها في سجل خاص .

نائب السلطنة :

وهي وظيفة ابتدعها الأيوبيون وكان نائب السلطنة كما يقول القلقشندي سلطانا مختصرا ، بل هو السلطان الثاني [3] فقد كان يشترك مع السلطان في منح لقب الإمارة ، وتوزيع الإقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض عليه كشفا بأسماء الأشخاص الذين يرى ترشيحهم لهذه المناصب ، فيقره السلطان إلا في القليل النادر .

ومن أعمال النائب أيضا توقيع المراسيم والمنشورات ، وتنفيذ القوانين ، والركوب على رأس فرق الجيش في المواكب الرسمية يحيط به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان [4].

وهناك نوع آخر من النيابة هو نيابة الغيبة ويقوم فيها النائب بمهام الدولة إذا خرج السلطان خارج البلاد ، سواء على رأس الجيش في حرب أو معركة أو إذا خرج للصيد لمدة طويلة [5].

---

(١) علي إبراهيم حسن . مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣) أبو العباس القلقشندي ــ صبح الأعشى في صناعة الإنشا جـ ٤ ص ١٦

(٤) علي إبراهيم حسن ــ المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٥) المقريزي ــ الخطط جـ ٢ ص ٣٠ .

الوزيـر :

اتخذ سلاطين الأيوبيين فى مصر وزراء ، وكانت سلطة الوزير محدودة مع وجود نائب السلطان ، فكان لايزيد عن أنه وزير تنفيذ ، وهو يلى نائب السلطان فى المرتبة ، على أن سلطة الوزير رغم ذلك لم تضعف إلى حد كبير ، وظلت فى نظر بعض المؤرخين أعلى الوظائف وأجلها وأرفعها شأنا [١].

الـــدواوين:

كان السلطان يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين خاصة رؤساء الدواوين الهامة ، ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها .

وكان بمصر عدة دواوين حكومية من أهمها :

(أ) **ديوان الأحباس :** ويتولى صاحبه الإشراف على المساجد والزوايا والمدارس والأراضى والعقارات المحبوسة عليها والإحسان على الفقراء والمعوزين [٢].

وهو يقابل وزارة الأوقاف فى عهدنا الحالى

(ب) **ديوان النظر :** وترجع إليه سائر الدواوين فيما يتعلق بالمسائل المالية ، من إيرادات ونفقات من أموال الدولة ، وله كذلك الإشراف على حساب الدولة ، ومرتبات الموظفين الدائمين والمؤقتين [٣] ، وهو يقابل وزارة المالية فى عهدنا الحالى .

(جـ) **ديوان الإنشاء :** وهو المختص بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة ، وتلقى المكاتبات الموجهة للسلطان ، وتنفيذ تأشيرة السلطان عليها ، وتحرير المطالبات السلطانية للغير داخل وخارج الدولة ، وكان من يتولى رئاسة هذا الديوان من أهم رجال الدولة [٤] ، ويجمع هذا الديوان بين أعمال وزارة الخارجية وديوان رئاسة الجمهورية فى عهدنا الحالى .

(د) **ديوان البريد :** وكان هذا الديوان أصغر من الدواوين الأخرى ، وكان يعد تابعا

---

(١) على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٩٤ .

عطية مشرفة ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٩ .

(٢) على إبراهيم حسن / المرجع السابق ص ٣٨٩

(٣) على الأيوبى / المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٤) على إبراهيم حسن / المرجع السابق ص ٣٩١ .

لديوان الإنشاء ، لأنه كان واسطة الاتصال بين مصر ونيابتها فى الشام وغيرها من الاقاليم[1].

(هـ) دواوين أخرى : كانت هناك دواوين أخرى أقل شأنا من الدواوين السسابقة . مثل ديوان الأهراء المختص بشئون الغلال السلطانية ، وديوان الطواحين الذى يتولى الإشراف على طحن الغلال ، وديوان المرتجعات الذى يشرف على الأمور الخاصة بتركات الأمراء [2].

وكان على رأس كل ديوان موظف كبير ، هو الناظر ، وهو الذى يقوم بمهام الوزير الآن ويليه فى المرتبة مستوفى الصحبة ، ثم مستوفى الدولة ، ويشرفان على موظفى الدواوين والكتاب [3].

الإدارة المركزية والإدارة المحلية :

رغم وجود السلطان وكبار معاونيه فى القاهرة فقد استلزمت شئون الإدارة تعيين وال للقاهرة وهو يُعد من أهم الموظفين الإداريين ، فهو الذى ينفذ الاحكام ، ويقيم الحدود ، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر ويعاقب كلا من هؤلاء على حسب جريمته ، ومن اختصاصه أيضا مراقبة أبواب القاهرة والطواف بالأحياء .

وبجانب والى القاهرة وجد ولاة آخرون أصغر شأنا ، لهم نفس الاختصاصات السابقة ولكن فى ضواحى القاهرة [4] .

أما فى الأقاليم فكانت الإدارة المحلية ممثلة فى الوالى فى كل إقليم ، وكانت مهمته الأساسية العمل على استتباب الامن والنظام ، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم.[5]

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٠

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٦ ود. ناصر الانصارى تاريخ أنظمة الشرطة فى مصر القاهرة ١٩٨٩ ص ٩٧ .

(٥) د. على إبراهيم حسن المرجع السابق ص ٣٩٧ .

الباب العاشر

أسرتا المماليك

تمكن المماليك من حكم مصر مدة تزيد على القرنين ونصف القرن بانفرادهم بالسلطة على أسرتين ، المماليك البحرية من ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ إلى ١٣٨٢م / ٧٨٤هـ . ثم المماليك البرجية او الشركسية إلى ١٥١٧م / ٩٢٣هـ . كما تولى المماليك حكم بعض المناطق فى العراق فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، كما كان للمماليك شأن عظيم فى تقوية جيوش الأمة العربية الإسلامية فى مختلف العصور . بل إن دورهم فى مصر لم ينته بزوال دولتهم وسلطانهم المطلق مع الفتح العثمانى سنة ١٥١٧م . فقد تمكنوا من التغلغل فى السلطة حتى كان النفوذ الشكلى للوالى العثمانى ، أما النفوذ الفعلى فكان لبقايا طبقة المماليك لمدة ثلاثة قرون أخرى ، حتى أن محمد على الذى تولى حكم مصر فى أوائل القرن التاسع عشر لم يجد أمامه سبيلا للتخلص منهم نهائيا إلا بالقضاء عليهم قضاء مبرما فى مذبحة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١م .

وقد يكون من المفيد ، قبل الخوض فى فترة حكم المماليك لمصر ، أن نتعرض لنشأة تلك الطبقة العسكرية التى تشبه المرتزقة بتعبيرنا الحديث ، والتى كان لها الكثير من الآثار الإيجابية أحيانا والسلبية أحيانا أخرى على مختلف نواحى الحياة السياسية والعسكرية والإدارية والدينية والعمرانية فى العالم العربى عموما وفى مصر على وجه الخصوص .

الفصل الأول

نشأة المماليك فى مصر والعالم العربى

المماليك فى الدولة العباسية :

فى مبدأ قيام الدولة العباسية فى بغداد كان للفرس حظوة كبيرة لدى الخلفاء ، فكانوا يولونهم المناصب الخطيرة ، كالوزارة والحجابة . ولكن طموح الفرس لم يقف عند هذه المناصب الهامة ، بل أخذوا فى سلب السلطة تدريجيا من أيدى الخلفاء العباسيين ، فلجأ هؤلاء إلى البحث عن عنصر جديد يكون بعيدا عن العرب بأهوائهم السياسية المختلفة ، وبعيدا عن الفرس ذوى الطموح المتصاعد ، فلجأوا إلى العنصر التركى لاعتقادهم أنه عنصر مجرد من الطموح الفارسى والعصبية التى عُرِف بها العرب .

وبدأوا فى استجلاب الأتراك وتوليتهم الأمور ، ومع مرور الوقت ، ومع انشغال الخلفاء بحياتهم الخاصة ، وانغماسهم فى ملذاتهم ، ، زاد انتشار المماليك فى كل الأجهزة وعلى الأخص فى البلاط والجيش .

المماليك فى مصر :

بدأ استخدام المماليك بكثرة فى مصر فى عهد الدولة الطولونية من ٨٦٨م / ٢٥٤هـ إلى ٩٠٥م/٢٩٢هـ . فقد اشترى أحمد بن طولون المماليك ليقوى بهم جيشه ، ووصل عددهم إلى أربعة وعشرين ألف مملوك [(١)] .

ثم جاءت الدولة الإخشيدية من ٩٣٥م/ ٣٢٣هـ إلى ٩٦٩م/ ٣٥٨هـ . وفى عهدها كان معظم الجيش من الأتراك ، وبلغ عدد المماليك ثمانية آلاف مملوك [(٢)] .

---

(١) ابن إياس ـ تاريخ مصر ـ جـ ١ ـ ص ٣٧ .

(٢) د . محمد جمال سرور ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ ص ٢٥ .

ثم اتخذت الخلافة الفاطمية من القاهرة مركزا لها وسار خلفاؤها على طريقة العباسيين في الاعتماد على غير أبناء جنسهم من المغاربة والسودان والترك ، فزاد انتشار المماليك في فترة حكمهم من سنة ٩٦٩م/ ٣٥٨هـ إلى ١١٧١م/٥٦٧هـ . وتبعهم الايوبيون حتى سنة ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ . فاعتمدوا أيضا على العنصر التركي خاصة في الجيش . وبنوا لهم الثكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل المحيط بالجزيرة (١) .

وكانت أغلب جماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم في مصر قادمين من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطا من الاتراك والشراكسة والروم والروس والاكراد وأقلية أوربية (٢) .

ولم تقتصر تجارة المماليك على الشرق ومصر بل امتد نطاقها إلى أوربا حيث ظهرت بصورة واضحة ، وكان يمارسها التجار الغربيون الذين جنوا منها أرباحا وفيرة ، حتى اضطر بعض ملوك أوربا إلى اتخاذ إجراءات شديدة ضد التجار المسيحيين لما يقومون به من بيع المماليك للعرب . وقد أحصى البعض ما كان التجار الأوروبيون يجلبونه إلى مصر كل عام من المماليك بنحو ألفين تقريبا من المغول والشراكسةوالروم والألبان والصرب(٣).

فالمماليك إذاً طائفة من الارقاء المشترين بالأموال بغرض تطعيم الجيش بهم وتقويته . وقد عاشوا في مصر كطائفة منفصلة عما حولها ، واحتفظوا بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أي جزء من أجزاء مملكتهم فيما بعد بالانخراط في صفوفهم ، ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر .

وكان المماليك يُنسبون إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم . ويذكر هذا النسب بعد أسمائهم مثل : « الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي » فاسمه هو بيبرس ثم تلقب فيما بعد بالظاهر ، وكان علاء الدين البندقداري هو أول مالك له ، ثم تسمى بالصالحي نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذي كان قد انتقل إلى خدمته بعد ذلك .

---

(١) كان العامة يطلقون في مصر لفظ بحر النيل على نهر النيل .

(٢) د . على إبراهيم حسن ـ تاريخ المماليك البحرية ـ ط ٣ ـ ١٩٦٧ـ ٢٤ .

(٣) G. Wiet . Histoire de la nation egyptienne. Tome iv. 8 p , 389.

وكذلك كانت بعض الألقاب التي تطلق على المماليك تشير إلى الثمن الذى دفع فيهم مثل لفظ : « الألفى » الذى عرف به « السلطان قلاوون » الذى يشير إلى الألف دينار التى دفعت ثمنا له فى صباه [1].

وكثر المماليك فى مصر وزادت قوتهم وتقلدوا المناصب الهامة فى مصر خاصة فى أواخر الدولة الأيوبية مما أدى بهم إلى تولى عرش السلطنة .

(١) د . على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧ و ٢٨ و٢٩ .

الفصل الثاني

قيام دولة المماليك البحرية في مصر

توفي الملك « الصالح نجم الدين أيوب » في نوفمبر ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ لمرض ألم به أثناء اشتعال حربه مع الصليبيين في مدينة المنصورة شمال مصر ، وتمكنت زوجته شجرة الدر [١] بدهائها وحكمتها من اخفاء خبر وفاته حتى لا يؤدي إلى تأثير سلبي على الجيش أثناء القتال ، خاصة مع غياب ابنه وولي عهده الملك المعظم « توران شاه » خارج مصر في حصن « كيفا » قرب العراق [٢] .

وفي فترة انتظار قدوم « توران شاه » ، ابن زوجها والسلطان المنتظر ، أسَرَّت شجرة الدر بخبر موت السلطان إلى الأميرين « فخر الدين » و«الطواشي جمال الدين محسن»من الحاشية السلطانية واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى وصول «توران شاه» ، فكانت الأوامر تصدر بتوقيع مزور للسلطان المتوفى . وصدر الأمر للخطباء في المساجد بأن يدعو على المنابر يوم الجمعة لتوران شاه بعد الدعاء لأبيه الصالح [٣] ، بقصد تهيئة الناس لقرب وصول توران شاه الذي وصل بعد وقت غير طويل ، نزل بمعسكر السلطنة بالمنصورة ، وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور ، فأشرف على الحرب بنفسه ، ووضع خططها ، واستطاع أن يختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين [٤] .

واضطر ملك فرنسا لويس التاسع إلى الاستسلام ، وتم أسره في دار القاضي «إبراهيم بن لقمان » في المنصورة .

---

(١) كانت شجرة الدر أرمينية الأصل على جانب كبير من الذكاء والجمال ، بعثها الخليفة العباسي « المستعصم بالله» من بغداد إلى نجم الدين أيوب في القاهرة فجعلها في حريمه ، ولما اعتلى نجم الدين عرش السلطنة الأيوبية في مصر أعتقها وتزوجها .

(٢) د . علي إبراهيم حسن ـ تاريخ المماليك البحرية ـ ط ٣ ـ ١٩٦٧ ـ ص ٣٦

(٣) المقريزي ـ السلوك في معرفة دول الملوك ـ جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٤ .

(٤) د . محمد جمال سرور ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ ص ٣٣

ولم تمر إلا فترة قصيرة حتى تمكن توران شاه السلطان الجديد من اكتساب كراهية زوجة أبيه شجرة الدر ، وكذلك مماليك أبيه فتآمر المماليك عليه وقتلوه ، وعقب مقتله نادى كبار رجال الدولة بشجرة الدر سلطانة على مصر ، فقبلتها وقد تلقبت أثناء ذلك بعدة ألقاب ، منها الملكة « عصمت الدين شجرة الدر » كما كان يدعى لها على المنابر بلقب « ملكة المسلمين والدة الملك خليل » [١] .

وأخذت شجرة الدر تتقرب من رجال الدولة بمنحهم الرتب والإقطاعات ، كما تقربت من الأهالي بخفض الضرائب ، قاصدة استمالة الجميع ، وعلى صعيد العمل العام فقد ساست الرعية وتولت أمور الدولة بحكمة ، ورغم ذلك فإن الناس قد كرهوا حكمها لأن المسلمين لم يعتادوا على أن تتقلد حكمهم امرأة ..

ولما علم الخليفة العباسي « المستعصم بالله » في بغداد بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر ، وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلاً منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له [٢] .

آثرت شجرة الدر السلامة والحفاظ على كيان الدولة فأظهرت رغبتها في التخلي عن الحكم ، وأشار عليها خاصتها بأن تتزوج من« عز الدين أيبك التركماني » أتابك العسكر[٣] . وتفوض إليه أمور الدولة ، وبذلك تحتفظ بالعرش في بيتها ، فقبلت الفكرة، وتنازلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن حكمت حوالي ثمانين يوما [٤] .

المماليك والسلطنة :

رغم إقرار المماليك لزعيمهم « أيبك » على سلطنة مصر ، بعد تنازل شجرة الدر له ، إلا أن الأحوال لم تستقر تماما . ذلك أن الأهالي لم ينسوا الأيوبيين ، بل إن كثيرا من المماليك البحرية كانوا لايزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعي في عرش مصر ، فلم يرضوا كل الرضا عن سلطنة أيبك ، بل ولم يطمعوا في أن يحكم المماليك مصر ، فاتفقوا على صيغة للحكم غريبة ونادرة تعتبر حلا وسطا لإرضاء جميع الأطراف ، وهي إقامة سلطانين معا

---

(١) د . علي إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧ .

(٢) المقريزي ـ السلوك ـ جـ ١ ق ٢ ص ٣٦٨.

(٣) أتابك العسكر هو القائد العام للجيش ـ راجع في تفاصيل ذلك : حسن الباشا ـ الألقاب الإسلامية ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ ـ ص ١٢٢

(٤) د . محمد جمال سرور ـ المرجع السابق ـ ص ٣٩ .

فى وقت واحد [1] .. وذلك بتولية سلطان آخر من الأسرة الأيوبية ، وهو « الأشرف مظفر الدين موسى» وكان له من العمر ست سنوات [2] .

ويرى البعض أن أيبك كان يحكم مصر بصفته وصيا على السلطان الأيوبى ، بينما يرى البعض الآخر أنه كان يحكم مع السلطان الأيوبى الصغير ، ويحمل كل منهما لقب «سلطان» ، ويستدل الفريق الأول على رأيه بأن التوقيع كان يخرج على صورة « رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » فالسلطنة للأشرف ، والوصاية عليه للمعز أيبك ، بينما يستدل الفريق الثانى على رأيه بأن الدعاء على المنابر كان لكليهما معا ، كما أن السكة على الدنانير كانت باسميهما [3] .

ولما كان هذا الوضع الشاذ غير قابل للاستمرار فقد انتهز أيبك رسوخ أقدامه فى الحكم ، مع ازدياد خطر التتار فى الشام وتهديدهم لمصر ، فأزال اسم الملك الأشرف من خطبة الجمعة فى المساجد ، وقبض عليه وحبسه فى قلعة الجبل ، ثم أرسله فيما بعد إلى عماته .

وبذلك يمكن اعتبار الملك الأشرف هو آخر سلاطين الأسرة الأيوبية فى مصر ، وبعزله انتهت رسميا فترة حكمهم ، وبانفراد « أيبك » بالسلطنة تبدأ فترة حكم المماليك البحرية لمصر سنة ١٢٥٢م / ٦٥٠هـ .

إلا أن الأمور لم تسلم لأيبك بسهولة ، فقد واجه بعض الصعوبات من الملك الناصر ملك الشام ، وبعض محاولات الأسرة الأيوبية للعودة إلى الحكم . ولم يكن أمامه إلا أن يلجأ إلى الخلافة العباسية فى بغداد لإضفاء الشرعية على حكمه ، فأمره بأن ينادى بأن «البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك أيبك نائبه فيها» [4] . وفى ذات الوقت أرسل إلى الخليفة العباسى فى بغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر [5] .

---

(١) د . على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٣٨ .

(٢) د . محمد جمال سرور ـ المرجع السابق ـ ص ٤١ .

(٣) يرجع فى تفصيل هذه الآراء إلى د . على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ٣٩

(٤) المقريزى ـ السلوك ـ جـ ١ ـ ص ٣٧٠.

(٥) المرجع السابق ـ ص ٣٩٢ .

الفصل الثالث

إسباغ الشرعية على الحكم

كانت السلطنة المملوكية حتى ذلك الحين تستند إلى القوة الحربية ، وسياسة الأمر الواقع ، أمام الضعف الذى أصاب إمام المسلمين والحاكم العام لهم ، وهو الخليفة العباسي ، ولم يكن طلب تأييده ـ رغم ما يدل عليه من التبعية ـ إلا نوعا من إسباغ الشرعية على سلطان مصر المملوكي « أيبك » ، وبمرور الوقت رسخت فى الأذهان فكرة إمكان تولية المماليك حكم مصر . حتى إنه عند مقتل أيبك [1] ، حدثت بعض الاضطرابات، وطمع زملاؤه المماليك فى السلطنة استنادا إلى أنهم أفضل وأحق بها منه مادامت آلت إلى المماليك . ولكنهم اتفقوا على تولية ابنه « على » وله من العمر إحدى عشرة سنة ، ولقب بالمنصور . على أن يتولى الوصاية على العرش « الأمير سيف الدين قطز » «وكان نائب أبيه فى السلطنة » .

ولم تلبث أن اضطربت الأمور فى عهد « السلطان المنصور على بن أيبك » عندما بدأ «هولاكو » ملك التتار يهدد بغزو مصر ، بعد أن وصل بفتوحاته إلى مدينة حلب فى الشام .

وكانت هذه فرصة الأمير سيف الدين قطز لاغتصاب الملك فأعلن أن المنصور صغير السن وأن مصر تحتاج فى ذلك الوقت إلى من يحسن تقدير الأمور ، ليقود البلاد فى القتال ضد التتار دفاعا عن مصر [2] . فقبض قطز على المنصور وحبسه فى قلعة الجبل ، وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ١٢٥٩م / ٦٥٨هـ . وتلقب بالملك المظفر [3] .

وأبلى قطز بلاء حسنا فى حربه ضد التتار ، وانتصر عليهم ، وأسر منهم الكثير ، وذلك بعد أن كانوا قد ملكوا بغداد ، وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله ، وأزالوا دولة

---

(١) قتل أيبك بمؤامرة زوجته شجرة الدر عند ما تملكتها الغيرة لما وصلها نبأ خطبته لابنة الملك بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل.

(٢) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤١٧ .

(٣) د . ناصر الأنصاري ، موسوعة حكام مصر ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٩٠ ص ٩٥ .

بني العباس في بغداد وخربوها وملكوها ، ووصلوا حتى حلب ودمشق في الشام ، ولكن قطز تمكن من هزيمتهم في « عين جالوت » سنة ١٢٦٠م ش ٦٥٨هـ .

وأثناء عودة قطز منتصرًا إلى مصر لقي مصرعه على يد جماعة أخرى من المماليك بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس ، وذلك لأسباب شخصية ترجع إلى عدم تعيينهم في مناصب كانوا يطمحون إليها قبل اشتعال المعارك .

واتفق المماليك على تولية بيبرس السلطنة خلفا لقطز [١].

وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطانا واستقبله الأهالي بالزينات التي كانت قد أعدت لاستقبال قطز بعد أن قضى على الخطر التتاري .

وفي اليوم التالي نودي في القاهرة .

« ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » [٢]

ولما جلس بيبرس بالإيوان بقلعة الجبل أمر أن يكتب إلى الأقطار بتوليه الملك . ويقول الدوادار :

« وأفيضت الخلع على الأمراء والوزراء والمعممين والقادة على تفاوت أقدارهم ، وكتب إلى ملك المغرب وملك اليمن وملوك الشام وثغور الإسلام » [٣] .

ومنذ بداية حكم الظاهر بيبرس تضافر عاملان مهمان في ظهور المماليك في صورة الحكام الفعليين والشرعيين للبلاد في نظر الأمة العربية والإسلامية .

العامل الأول هو انهيار رئاسة الدولة الإسلامية بسقوط العاصمة بغداد في أيدي التتار ، ومقتل خليفة المسلمين العباسي ، وافتقاد البلاد لحاكم شرعي ، ولقوة عسكرية تدفع عنها خطر المد التتاري ، وهنا يظهر العامل الثاني وهو الانتصار الحاسم لجيش المماليك على التتار في عين جالوت ، مما أدى إلى نظرة إكبار لهؤلاء الحكام الجدد لمصر الذين كان البعض يعدهم من قبل مغتصبين غير شرعيين لحكم مصر .

أدى هذا المفهوم الجديد إلى استقرار سياسي للحكم في مصر ، مما ساعد على تأسيس دولة جديدة ، وأظهر بيبرس كفاءة كبيرة في سياسة أمورها ، فوضع الكثير من الأسس والنظم الإدارية الجديدة .

---

(١) كان بيبرس قد هرب مع بعض زملائه من مصر في أيام حكم أيبك بعد اكتشاف مؤامرة لقتله . ولما تولى قطز السلطنة استأذنه بيبرس في العودة إلى مصر فرحب به ورغم ذلك فقد تزعم بيبرس الجماعة التي قتلت قطز بعد انتصاره الحاسم على التتار وعودته إلى مصر منتصرا . واتفقوا على أن يتولى السلطنة مكانه . وكان ذلك قرب الصالحية من مدن محافظة الشرقية الآن وقبل دخوله القاهرة .

ـ راجع د . محمد جمال سرور المرجع السابق ص ٤٨ ود . ناصر الأنصاري المرجع السابق ، ص ٩٥

(٢) المقريزي ـ السلوك ـ جـ ١ ق ٢ ص ٤٣٦ .

(١) بيبرس الدوادار ـ زبدة الفكرة ـ جـ ٩ ـ ص ١٨ .

الفصل الرابع

إحياء الخلافة العباسية فى مصر

تولى الظاهر بيبرس عرش سلطنة مصر فى وقت افتقدت فيه البلاد تماسكها وسادها الاضطراب . ففى الجبهة الداخلية لم تكن الأمور قد استتبت بكاملها بعد لبيبرس ، فلم يكن الأمر يخلو من استبداد بعض المماليك وأطماعهم . أما الجبهة الخارجية فكانت مهددة من ثلاث قوى ، الأولى هى الصليبيين الذين كانوا يتحينون الفرصة لتنفيذ مآربهم فى المنطقة ، والأخذ بثأرهم بعد معركة المنصورة التى انهزموا فيها ، وانسحبوا بعد أسر ملك فرنسا قبل عشر سنوات . أما القوة الثانية فهى التتار وتهديدهم المستمر للمنطقة الوحيدة التى استعصت عليهم فى الشرق العربى وهى مصر . والقوة الثالثة وهى وإن تكن أضعف من سابقتيها إلا أنها كانت تشكل أرقا للمماليك ، ألا وهى تطلعات الأسرة الأيوبية فى الشام للعودة لحكم مصر .

ساد هذا الجو المضطرب سائر الدولة الإسلامية العربية بعد انهيار عاصمة الخلافة فى بغداد ، واحتلال هولاكو لها ، ومقتل الخليفة وولديه . فقد خلت البلاد كلها من الحاكم الشرعى العام لها ، الذى يستمد منه حكام الأقاليم شرعيتهم ، فشغل كل حاكم نفسه بالعمل على بقاء سلطته فى دويلته أو إقليمه أو مقاطعته ، محاولا الحفاظ عليها ، أو طامعا فى اتساع نطاقها وازدياد نفوذه . ولم يفكر أحد منهم فى إعادة الخلافة ، وظل منصب الخليفة شاغرا قرابة الثلاث سنوات .

وعندما تولى بيبرس عرش مصر فى غيبة الخلافة الشرعية عمل على إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها لهدف خفى ، هوأن تضفى هذه الخلافة على ملكه الشرعية المطلوبة ، فيقوى بذلك عرشه فى مواجهة القوى المناوئة له داخليا وخارجيا .

الخليفة العباسى فى مصر :

علم بيبرس بوصول رجل إلى دمشق يدعى أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام

الناصر العباسي ، فوجدها بيبرس فرصة سانحة لتحقيق غايته في إحياء الخلافة ، فأحضره إلى مصر محاطا بمظاهر تكريم لائقة ، وخرج إلى لقائه ، وأعد له استقبالا رسميًا فخرج معه الوزير بهاء الدين وقاضي القضاة والأمراء والعسكر ، واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الإنجيل ، وساروا جميعا إلى ضاحية المطرية قرب القاهرة لاستقباله . وحين رآه نزل بيبرس عن فرسه ، وعانقه ثم ركب الخليفة المنتظر فرسه مرتديا شعار بني العباس ، وسا رمعه السلطان بيبرس يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى قلعة الجبل (١) .

وأصر بيبرس على إحاطته بهالة من التكريم فلم يكن يتقدم عليه أو يجلس على مرتبة واحدة معه (٢) .

وعقد الظاهر بيبرس مجلسا دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام . وأقر الشهود الذين حضروا مع الإمام من بغداد أنه الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ابن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب بالعباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام . فقبل قاضي القضاة شهادتهم وحكم بصحة النسب وبايعه بالخلافة (٣) . ثم قام الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها . وكذلك بايعه القضاة ولقبوه « المستنصر بالله » ، ثم أرسل الملك الظاهر بيبرس لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم . ونقشت السكة في مصر باسميهما معا . وكان الدعاء لهما معا على المنابر يوم الجمعة ، وأمر الظاهر بأن يدعى للخليفة قبل الدعاء له ، ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاه والعلماء والأمراء بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة ، أثنى فيها على فضل الملك الظاهر بيبرس الذي رد الخلافة لبني العباس(٤).

---

(١) المقريزي - السلوك - جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .

(٢) د . محمد جمال سرور - المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق - ص ٦٥ .

Dr.Nasser El Ansery . Le Protocole dans le droit Public Egyptien. thése de doctor-at d' état , aix - en- pvovence . 1985 p.352

واستقرت الخلافة العباسية فى مصر أكثر من قرنين ونصف إلى أن تمكن السلطان العثمانى سليم الأول من فتح مصر ، وانتقلت الخلافة من الأسرة العباسية إلى الأسرة العثمانية سنة ١٥١٧م / ٩٢٣هـ .

بعد الخدمات الجليلة التى قدمها بيبرس للخلافة العباسية ومظاهر التكريم والتبجيل والاحترام التى أحاط بها الخليفة ، أصبحت الأمور مهيأة لأن يجنى ثمار عمله ، فقد صدر تفويض من الخليفة إلى بيبرس بتولى سلطنة مصر ، وعقد اجتماع حضره الخليفة والسلطان والوزير والقضاة ، وأجريت مراسم تفويض السلطة ثم قرئ خطاب التقليد الصادر من الخليفة إلى الظاهر بيبرس فى احتفال مهيب [١] . وتحقق بذلك للظاهر بيبرس ما أراد لتقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك ، وأسبغ الشرعية على ولايته .

واكتسب بيبرس الكثير من هذه الواقعة ، ذلك أن الأمم الإسلامية كانت حتى ذلك الوقت لاتزال تنظر إلى الخلافة نظرة إكبار وإجلال واحترام ، وبالتالى كانت نظرتها إلى من يحقق فكرة إقامة الخلافة بنفس العين التى كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه .

ويمكن القول أن الملك الظاهر بيبرس قد حقق هدفين كبيرين معا ، الهدف الأول على المستوى المحلى ، وهو استقرار الحكم له ولطبقة المماليك من بعده لمدة قرنين ونصف من الزمان ، بالطريق الرسمى والشرعى ، بعد أن كان حكم المماليك فى نظر البعض مغتصبا من الأيوبيين .. أما الهدف الثانى فهو أعم وأشمل إذ كان يمس الأمة العربية الإسلامية جمعاء ، وهو إحياء الخلافة العباسية بعد انهيارها على أيدى التتار ، فوجدت الأمة حاكما عاما وإماما لها وأميرا للمؤمنين هو الخليفة العباسى فى القاهرة .

أما من الوجهة العملية فقد كان تواجد الخلافة العباسية مظهريا بحتا ، ولايخرج عن أمور شكلية ، ويظهر ذلك من استعراض اختصاصات الخليفة فى فصل لاحق .

---

(١) د . على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

الفصـل الخـامس

البحرية والجركسية أو البرجية

يمتد زمن استقرار الخلافة العباسية فى مصر حوالى قرنين ونصف ، انتهت بالفتح العثمانى لها سنة ١٥١٧م / ٩٢٣هـ وانتقال خلافة المسلمين وإمارة المؤمنين إلى الأسرة العثمانية .

أما فى مصر فقد انقسمت هذه الفترة بين أسرتين من المماليك ، الأسرة الأولى هى المماليك البحرية من ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ إلى ١٣٨٢م / ٧٨٤هـ . والثانية والتى جاءت بعدها مباشرة هى أسرة المماليك البرجية أو الشركسية ، هى التى انتهت مع فتح السلطان العثمانى سليم الأول لمصر سنة ١٥١٧م / ٩٢٣هـ .

أسرة المماليك البحـرية :

استعرضنا فى الفصول السابقة الأحوال التى واكبت أفول وانهيار حكم الإسرة الأيوبية لمصر ، ثم ظهور نجم المماليك كحكام وليس كقوة عسكرية تابعة للحاكم فقط ، وشرحنا كيف تمكن عز الدين أيبك من استخلاص الحكم للمماليك البحرية وحدهم ، ثم تبعه قطز الذى كان انتصاره على التتار ، العدو التقليدى للأمة الإسلامية فى ذلك الوقت ، أحد العوامل الحاسمة فى تثبيت الأسرة المملوكية فى سلطنة مصر ، ثم ظهور بيبرس .

ويعد بيبرس حجر الزاوية فى الحكم المملوكى البحرى لمصر ، فبعد أن استتب له الأمر داخليا فكر فى إقامة خليفة للمسلمين ، فاستدعى أحد أبناء الأسرة العباسية ، وأحاطه بالإكبار وبالمراسم المتبعة فى تعيين الخلفاء ، ثم حصل منه على قرار خليفى باعتباره سلطانا على مصر مما زاد الأمر له استتبابا .

ثم التفت بيبرس إلى الشام التى كانت قد انفصلت عن المملكة المصرية واستقل بها بعض الأمراء الأيوبيين ، فاستعاد أغلبها إن حربا وإن صلحا . ثم واجهه خطرين خارجيين ، هما الخطر المغولى أو التتار ، والخطر الصليبى الذى كان يكمن فى بعض

الإمارات اللاتينية التي استقرت على السواحل الشامية للبحر المتوسط .

حاول بيبرس بلوغ ما وصل إليه صلاح الدين من توسيع المملكة المصرية ، فأعد جيشه إعدادا جيدا لرد غارات التتار المتتالية ، الذين كانوا قد ثبتوا أمرهم في فارس وحوض دجلة والفرات ، وكادوا يصلون إلى الشام ، وتمكن بيبرس من ردهم عن مصر والشام ، وأعاد توحيد البلاد ، ثم بدأ بالهجوم على الإمارات الصليبية اللاتينية ، فلا تكاد تخلو سنة من حكم بيبرس إلابمواجهة مع إحدى هذه الإمارات وقد تمكن من هزيمتهم في إنطاكية سنة ١٢٦٠م ، ثم في عكا سنة ١٢٦٣، ثم في قيسارية وعثليث وحيفا سنة ١٢٦٥، ثم تمكن من قلعة أرسوف البحرية ، وخلص حمص ، من بوهمند السادس ملك إنطاكية سنة ١٢٦٦، وفي نفس السنة هاجم قلاع طرابلس ، ثم تمكن من صور وصيدا،واستولى على مدينة صفد وخرب قلعتها ، واستعاد هونين والرملة ، وفي نفس العام وبعد هذه الانتصارات الحربية الحاسمة اضطرت أميرة بيروت لعقد صلح معه ، ولم يكد يمضي عامان إلا ووجه بيبرس في سنة ١٢٦٨ ضربة قاضية إلى بقايا المملكة اللاتينية ، فاستولى على الشقيف ، ثم اتجه إلى شمال سورية ، وهاجم البلاد المحيطة بطرابلس وأخضعها ، ثم تقدم نحو صافيتا وأنطوس ، ثم شمالا إلى حمص وحماة ، ومنها زحف على إنطاكية فقاتل جيوشها ، وتمكن من أسر حاكمها واستولى على المدينة .

وظل بيبرس يناوئ الصليبيين ، ويستولي على معاقلهم الواحد تلو الآخر رغم المدد الذي كان يصلهم من أوربا ، ثم استولى على حصن الاكراد وحصن عكار الواقع شمال طرابلس سنة ١٢٧١ (١) .

وهكذا استخلص بيبرس البلاد من الأمراء الصليبيين ، ولم يبق منها تحت أيديهم إلا النذر اليسير ، ورغم أن الانتصار كان حليفه دائما إلا أنه قبل عقد الصلح مع الصليبيين في عكا وطرابلس مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وذلك بقصد التفرغ للمغول.

---

(١) يمكن الرجوع لتفاصيل المعارك :

- Stanley Lane - poole - A history of Egypt in the middle ages. p. 265
- Sir William Muir , the mameluke slave dynasty of Egypt. p 25...

ـ المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ـ جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٠ ومابعدها .

ـ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ الجزء الثالث عشر ـ ص ٢٣٠ ومابعدها .

ـ د . إبراهيم علي صائغ ـ تاريخ المماليك البحرية ـ ص ٣٢ ومابعدها .

ـ د . محمد جمال سرور ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ـ ص ٦٠ وما بعدها .

لم تشغل معارك الصليبيين بيبرس من الالتفات إلى الأعداء الآخرين للأمة الإسلامية ، وهم المغول أو التتار ، وتمكن من هزيمتهم في مواقع عديدة ، فسار إلى الفرات وانتصر عليهم ، ثم اتجه نحو بلاد السلاجقة الروم واستولى عليها وجلس على عرش سلاطين قيسارية ، إلا أن التتار استعادوها بعد مغادرة بيبرس إلى دمشق حيث عاجلته المنية .

تمكن بيبرس إذاً خلال سنوات حكمه من توسيع مملكته ، فضم الشام وبعض البلاد التي استولى عليها التتار في فارس وبين النهرين ، كما دانت له النوبة وأجزاء من أرمينيا ، وتمكن من بسط نفوذه على بلاد الحجاز ، كما أقام علاقات طيبة مع نجاشي الحبشة وملوك أوربا ، وتحالف مع امبراطور القسطنطينية .

أقام بيبرس امبراطورية قوية متسعة مترامية الأطراف تركها من ورائه للمماليك البحرية ، الذين ظلوا في الحكم بعده حوالي قرن من الزمان ، يحاولون السير على نهجه والحفاظ على البلدان التي ضمها ، والإبقاء على قوة مصر العسكرية أمام الصليبيين والتتار .

وقد خلف بيبرس في المدة الباقية من أسرة المماليك البحرية اثنان وعشرون من سلاطينهم [1] . منهم اثنين من أبنائه ، وهما الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن بيبرس من سنة ١٢٧٧م / ٦٧٦هـ لمدة عام واحد ، والملك العادل بدر الدين سلامش ابن بيبرس لمدة عام آخر ثم آل الحكم إلى سلطان آخر لايقل عن بيبرس فيما قدمه للبلاد ، وهو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، الذى اهتم بشئون مصر الداخلية ، فعنى بتسهيل سبل التجارة الداخلية ، وعمل على إعداد جيش قوى آخر بعد أن انهكت المعارك جيوش بيبرس ، وورثه في الحكم اثنين من أبنائه أيضا ، هما الأشرف صلاح الدين خليل ابن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون وأحد عشر آخرين من سلالته حتى انتهاء حكم أسرة المماليك البحرية سنة ١٣٨٢م/ ٧٨٤هـ . حيث انتقلت مقاليد الأمور إلى أسرة المماليك البرجية أو الشركسية .

أسرة المماليك البرجية أو الشركسية :

استمرت أسرة المماليك البحرية في الحكم حوالى ١٣٢ سنة ، وأستمرت فيه أسرة المماليك البرجية أو الشركسية ١٣٤ سنة .

---

(١) يمكن الرجوع لمزيد من تفاصيل سلاطين المماليك البحرية في كتابنا موسوعة حكام مصر السابق الإشارة إليه ص ٩٥.

وتعود تسمية هذه الأسرة بالبرجية إلى سكناهم فى أبراج قلعة الجبل [1] . تمييزا لهم عن البحرية الذين كانوا يسكنون جزيرة الروضة .

أما لفظ الشركسية فيدل على البلاد الأصلية التى وفدوا منها ، وهى بعض بلاد الكرج، وهى جورجيا الحالية فى الكومنولث الروسى بين بحر قزوين والبحر الأسود على شاطئه الشرقى [2] . وكانوا يشتهرون بالشجاعة والفروسية بالإضافة إلى الجمال والوسامة ، وتجارة الرقيق بينهم شائعة .

أشهر سلاطين هذه الأسرة هو مؤسسها السلطان برقوق بن أنس بن عبد الله العثمانى ، وعلى عادة المماليك فاللقب الأخير هو نسبة إلى التاجر الذى جلبه من بلاد جركس ، وهو الخواجا فخر الدين عثمان الخوارزمى . وأعتقه الأمير الذى اشتراه وصار من مماليكه البارزين ، ثم انتقل إلى مماليك القصر السلطانى ، حيث تدرج بسرعة فى مراتب المماليك إلى أمير أربعين ثم امير مائة ومقدم الف ، ثم منصب كبير آخر هو امير «اخوركبير »أى ناظر الاصطبلات السلطانية . وكان القصر السلطانى فى نهايات حكم أسرة المماليك. البحرية فى مرحلة من مراحل التردى ، بسبب الانحلال الاقتصادى والسياسى فى تلك الفترة ، نتيجة عجز السلاطين البحرية عن الإمساك بأمور الدولة بالحزم الذى كان عليه الأمر فيما قبل ، وساعد ذلك على ظهور الأمراء المماليك أحيانا بمظهر أقوى من السلطان ذاته ، فانبعثت بينهم المنافسات الشديدة ، والاستبداد بأمور الدولة من بعضهم الآخر . وانضم برقوق إلى إحدى المؤامرات أو الثورات ضد أحد مراكز القوى الذى كان يشغل منصب أتابك العسكر ، وهو القائد العام للجيوش المملوكية ، ونجحت مؤامرة برقوق ، ولم يجد السلطان على بن شعبان أمامه إلا الاعتراف بالأمير برقوق فى هذا المنصب : قائدا للجيوش سنة ١٣٧٨م / ٧٧٩هـ[3].

ولما مات السلطات سنة ١٣٨١م/ ٧٨٣هـ . كانت الفرصة سانحة لبرقوق للوثوب . على عرش السلطنة ، ولكنه آثر التريث فعمل على اختيار حاجى بن شعبان سلطانا وهو أخ سلفه المتوفى ، وكان عندما تولى ابن أحد عشر عاما والأمور كلها فى يد برقوق ، ولكن الأمر لم يمتد أكثر من عام واحد حتى تشجع برقوق وأعلن نفسه سلطانا بالطريقة

---

(١) المقريزى ـ الخطط ـ جـ ٢ . ص ٢١٣ .

(٢) د . إبراهيم على طرخان ـ مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٨

(٣) د . إبراهيم على طرخان ـ المرجع السابق ـ ص ٤

التقليدية المملوكية ، وهي عقد مجلس يضم كبار الأمراء والخليفة والقضاة وشيخ الإسلام ، ثم يشرح كاتب السر ما آلت إليه أحوال البلاد من فوضى واضطراب قد تتسبب في أضرار كثيرة للبلاد ، وأنه لابد من سلطان قوى بدلا من هذا الصبي في الحكم ، ويتداول المجلس ثم يخلع السلطان حاجي بن شعبان ويعلن أن برقوق هو السلطان الجديد . وتؤخذ له البيعة في ١٣٨٢م / ٧٨٤هـ .

وهذا التاريخ هو بمثابة نهاية لحكم أسرة المماليك البحرية وبداية لحكم أسرة المماليك الجركسية أو البرجية .

وتولى برقوق السلطنة مدة حوالى سبعة عشر عاما ١٣٨٢ ـ ١٣٩٩م أسس خلالها دولة قوية عسكريا وذات ثقل سياسي في المنطقة ومتسعة الأطراف .

وكان عدد سلاطين المماليك الجراكسة خمسة وعشرين ، كان أكثرهم تأثيرا برقوق والمؤيد شيخ وبرسباى وجقمق وإينال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى وطومان باى . أما أقلهم تأثيرا فلا شك أنه السلطان قانصوه خمسمائة الذى لم يحكم سوى ثلاثة أيام وخلال الحكم الجركسي حاول الخليفة العباسي « المستعين » أن يكون له دور يزيد عن الدور الشكلي الذى كان لكل أسلافه فقبل السلطنة وجمع بين منصب الخليفة والسلطان ولكنه لم يلبث أن عزل عن السلطنة بعد خمسة أشهر فقط خلال عام ١٤١٢م / ٨١٥هـ[1].

وقد تميزت فترة حكم أسرة المماليك الجراكسة بعدة ظواهر ، أولها محاولة إبعاد مبدأ وراثة العرش الذى كان مأخوذا به في عهد المماليك البحرية ، أما الظاهرة الثانية فهى نتيجة للأولى ، وهي كثرة الفتن والثورات الداخلية بغية الوصول إلى السلطنة ، وثالثة هذه الظواهر ، هي أن الحكم يتولاه القادر على ملئه بصفاته الشخصية دون النظر إلى أصله أو أقدميته فيما بينهم .

وترتب على وصول الأمراء الأقوياء إلى عرش السلطنة أن اتسعت أطراف الدولة ، وامتدت حدودها ، فوصلت أقصى اتساع لها خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، فأضافت إلى أقاليمها المعروفة قبرص ، وحاولت ضم رودس ، كما قضت على الصليبيين في المنطقة ثم بسطت نفوذها على أعالى الفرات وأطراف آسيا الصغرى الشرقية [2].

---

(١) راجع في تفاصيل حكام أسرة المماليك البرجية ـ كتابنا موسوعة حكام مصر السابق الإشارة إليه ، ص ٩٨ وما بعدها.

(٢) د. إبراهيم على طرخان ـ المرجع السابق ـ ص ٣ .

وواكب اتساع الدولة المملوكية ، ظهور مملكة إسلامية أخرى بمظهر القوة ، وهى الدولة التركمانية ، وكانت نشأة الإمارة العثمانية الأولى فى شمال غربى الأناضول على حساب مابقى من أملاك البيزنطيين وإمارات اللاتين والإمارات التركية . ومع بداية القرن السادس عشر كانت هى العنصر المسيطر فى تلك المنطقة من الشرق الأدنى ، وبدأ السلطان العثمانى فى التفكير فى التوسع نحو الشرق ، نحو الدولتين الإسلاميتين ، دولة الفرس ودولة المماليك . وعلى الرغم من بعض العلاقات الودية التى سادت بين المماليك والعثمانيين فى القرن الخامس عشر حتى وصلت إلى حد التحالف معا ضد البرتغال ، إلا أن طبيعة النضال بين الأمم القديمة والأمم الجديدة ، وكذلك بعض الخلافات على الحدود بين الدولتين أدت إلى أن تحل علاقات الاصطدام محل علاقات الود بينهما .

وزاد من ضعف الدولة الجركسية خاصة أن الوجهة الاقتصادية اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، الذى قضى على الكثير من موارد مصر نتيجة لرسوم المرور التى كانت تحصلها على البضائع التى تمر عن طريقها من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط ، ثم انقطعت نتيجة لهذا الكشف الجغرافى .

أدى هذا الضعف الاقتصادى للمماليك مع زيادة القوة الضاربة العثمانية فى المنطقة إلى مواجهات عسكرية بين الطرفين ، كانت غالبا ما تنتهى بعقد صلح بينهما ، مثلما حدث فى عصر السلطان العثمانى « بايزيد الثانى » والأشرف قايتباى حاكم مصر والشام من المماليك الجراكسة ، ولكن الصلح لم يكن يدم طويلا نتيجة لتحرشات الجانبين . إلى أن كان اللقاء بين السلطان الغورى من جهة وسليم الأول من جهة أخرى سنة ١٥١٦، وكان النصر فى مرج دابق قرب حلب للجيش العثمانى ، وفى هذه المعركة قتل السلطان الغورى ، ثم اتجه الجيش العثمانى بقيادة سليم الأول ناحية مصر للاستيلاء عليها ، وكانت الموقعة الأخيرة فى « الريدانية » ثم العباسية بين المماليك بقيادة طومان باى وسليم الأول سنة ١٥١٧، وانهار حكم أسرة المماليك الجراكسة ، وبدأ عهد جديد فى مصر باستيلاء العثمانيين عليها .

الفصل السادس

المؤسسات السياسية والنظم الإدارية لدى المماليك

بعد أن استقرت الأمور للظاهر بيبرس بدأ يلتفت لوضع النظم والقواعد التى أدت إلى تقوية أسس دولة المماليك ، وقد نحى من تبعه من سلاطين المماليك منحاه ، فى ترسيخ النظم القائمة أو ابتداع النظم الجديدة ، بغية استمرار الحكم على أسس ثابتة ، فاهتموا بالنظام الإدارى فى الدولة ، وأنشأوا الوظائف الجديدة ورتبوها ، ووضعوا اختصاصات وواجبات كل وظيفة .

ولم يختلف الوضع كثيراً فى مجال النظم القائمة بين أسرتى المماليك البحرية أو الجركسية اللهم إلا فى مبدأ توارث العرش الذى اختلف بعض الشيء .

ونعرض فيما يلى لأهم هذه النظم :

ولاية العهد وتوارث العرش :

كان مبدأ توارث العرش من المبادئ الغريبة على عقلية المماليك ، التى كانت تؤمن بمبدأ القوة أساسا لكل منصب ، فكانوا يشعرون أن المُلك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء ، وأكثرهم شجاعة ، وأمهرهم فى قيادة الحروب .. كما أنهم كانوا يعتبرون السلطان واحدا منهم ، يختارونه من بينهم ، لأنه لا يمتاز عنهم إلا بالقوة والبسالة والدهاء وسعة الحيلة مما يؤهله للرياسة عليهم . وكان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته . وكثيرا ما اغتصب الوصي على العرش الحكم لنفسه . ولكن السلطان الظاهر بيبرس رأى أن يضع حدا لتغلب الأقوى على العرش ، وأن يؤسس نظاماً يضمن به بقاء الملك فى بيته ، فقد ولى ابنه محمدا عهده سنة ١٢٦٣م / ٦٦٢هـ . بقصد أن يحول دون تدبير الدسائس والمؤامرات من كبار الأمراء على عرشه ، ولكى يحتفظ بالسلطنة فى بيته بعد وفاته [١] . وكتب بيبرس لابنه كتاب التقليد ، ولقبه بالملك السعيد ، وأقيم

---

(١) د . على إبراهيم حسن . المرجع السابق ص ٤٨ .

احتفال عظيم بهذه المناسبة ، وأخذ السلطان على الناس الأيمان الموثقة باحترام ولاية العهد لابنه ، وأذيع العهد فى سائر الجهات [1] . ثم جدد بيبرس ولاية العهد لابنه سنة ١٢٦٩م/ ٦٦٨هـ وكأنه خشى أن ينقُض الناس أيمانهم ، وينكثوا ماعاهدوه عليه بمواثيقهم ، نظرا لعدم تعودهم على هذا النظام من قبل . وعندما توفى الظاهر بيبرس فى دمشق سنة ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ حضر الأمراء إلى مصر وأعلنوا موت السلطان ثم دخلوا على ابنه « الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة خان » وأعلموه بوفاة أبيه واعتلائه عرش السلطنة .. إلا أن الخلاف دب بين السلطان الجديد والأمراء حتى أجبروه على خلع نفسه من السلطنة ، وحرروا محضرا شرعيا بذلك وقعه الحاضرون [2] ، واتفق الأمراء على توليه الأمير « سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى ، فامتنع وقال : « أنا ماخلعت الملك السعيد طمعا فى السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر بيبرس » [3] .

وهذا الرد من الأمير قلاوون ينم عن بدء استقرار فكرة وراثة العرش فى أذهان المماليك . وقد لقى هذا القول قبولا لدى الأمراء فولوا الأمر لابن آخر من أبناء بيبرس هو «سيف الدين سلامش » وكان له من العمر سبع سنوات ، وعينوا الأمير قلاوون وصيا على العرش . ولم يمض وقت طويل حتى اتفق الأمراء على خلع سلامش وتولية قلاوون سلطنة مصر [4] .

وفعل قلاوون نفس الشىء فقد أبقى السلطنة فى بيته وراثيا فى أبنائه وأحفاده ، وهو استمرار لمبدأ توارث العرش ، الذى ظل سائدا حتى نهاية حكم المماليك البحرية ، فقد فوض قلاوون ابنه الاكبر « علاء الدين » بولاية العهد من بعده ولكنه مات فى حياة أبيه ، فعهد إلى ابنه الثانى خليل ولقبه بالأشرف ، الذى تولى السلطنة ثلاث سنوات بعد وفاة أبيه ، ثم تبعه الابن الثالث لقلاوون وهو « الملك الناصر محمد بن قلاوون » الذى تولى السلطنة ثلاث مرات مابين خلع وتنازل إلى أن تمكن منها فى المرة الثالثة لمدة اثنين وثلاثين عاما . وفعل الملك الناصر نفس الشىء فى تولية أولاده بعده ، فتولى ثمانية من أولاده ، وأربعة من أحفاده الحكم من بعده فى مدد متفاوتة حتى نهاية دولة المماليك البحرية .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) المقريزى . السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٦٥٦ .

(٤) د . محمد جمال سرور . المرجع السابق ص ١٣٠

ويرسخ بذلك فى الأذهان مبدأ توارث العرش وحصره فى أولاد وأحفاد الحكام .

أما فى حكم أسرة المماليك الجركسية فقد غلب عليهم قلة احترام مبدأ توارث العرش أو الاعتراف به ، وكان المبدأ البديل هو تولية الحكم للشخصيات البارزة من المماليك التى تتسم بالقوة والدهاء ، فمن يستطيع الوصول للسلطنة بما أوتى من صفات شخصية يقهر بها منافسيه ، ويتغلب بها على غيره ، فهنيئا له بالسلطنة فأصبحت السلطنة فى الأسرة الجركسية حقا مشاعا للقادر على انتزاعها قسرا .

ويعقد الدكتور إبراهيم طرخان مقارنة طريفة بين مجموع مدة حكم أبناء السلاطين فى الأسرتين فنجدها فى البحرية بلغت نحو ثمانية وخمسين عامًا ، بينما بلغت لدى الأسرة الجركسية ستة وعشرون عاما فقط [١] . .

اختصاصات الخليفـــة :

بعد مرور بعض الوقت على استضافة الخليفة العباسى فى مصر بدأ الشك يتسرب إلى النفوس خوفا من محاولة الاستيلاء على السلطات الدنيوية التى يمارسها السلطان المملوكى .

فالواقع العملى أنه بقيام الخلافة فى مصر أصبح هناك حاكمان ، أحدهما السلطان الذى يرأس حكومة مصر ، والثانى هو الخليفة الذى كان من المفروض أن يتولى السلطة الدينية فقط ، ولما كان من الصعب وضع حد فاصل - حتى هذا الوقت - بين الأمور الدينية التى يختص بها الخليفة ، والأمور السياسية التى تدخل فى اختصاص السلطان ، فقد استأثر أغلب السلاطين بجميع الأمور ، وتركوا للخليفة بعض مظاهر السيادة ، والتى أهمها منح السلطان تفويض بحكم البلاد ، علما بأن الخليفة نفسه كان يخضع فى تعيينه لرضاء السلطان الذى هو الحاكم الفعلى للبلاد .

ويضاف إلى هذا الحق حقوق مظهرية أخرى ، منها حق ذكر اسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة فى المساجد قبل السلطان أحيانا ، وحقه فى نقش اسمه على النقود على أحد وجهيها واسم السلطان على الوجه الآخر .

وكان الخلفاء يقضون أغلب أوقاتهم فى العبادة ، وزيارة بعض العلماء ، وإلقاء الخطب فى الجمع والأعياد ، والخروج مع الجيوش لمباركتها وحثها على الجهاد فى سبيله الله .

---

(١) المرجع السابق الإشارة إليه - ص ١١

ورغم وصول حال الخلافة إلى هذا الاضمحلال إلا أن بعض أمراء المسلمين كانوا يسعون للحصول على تفويض منهم بحكم بلادهم لإضفاء الشرعية على حكمهم .

ويلخص القلقشندى الوضع القائم بين الخليفة والسلطان بقوله :

« والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر فى المساجد إلا فى مسجد السلطان بقلعة الجبل ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه ، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك» [(١)] .

والواقع العملى للأمور يبين أن تلك الأوضاع لم تكن جديدة على الخلافة العباسية ، فحتى إبان وجودها فى بغداد فى القرون الخمسة السابقة كان بعض السلاطين يستبدون بالأمور دون الخليفة .

وأيا كان حال الخلافة العباسية فى مصر ، ومهما آلت إليه من مذلة وهوان ، فقد تمكنت هذه الخلافة بفضل سلاطين المماليك فى مصر من أن تحيا بعد القتل والتشريد على أيدى التتار ، وأن تستقر لقرنين ونصف آخرين من الزمان .

السلطان :

كان السلطان المملوكي هو الرئيس الأعلى للدولة ، فهو الذى يتولى تعيين كبار موظفى الدولة ، مثل نائب السلطان ، وكاتب السر ، والمحتسب ، ونظار الدواوين كما كان له الحق فى عزلهم وتأديبهم ، وكان من اختصاصه أيضا تولى النظر فى المظالم ، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء والجنود ، وتعيين كبار العاملين .

مجلس السلطنة:

رغم أن السلطان كان مطلق الحكم والتصرف إلا أنه إذا أراد البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية ، كإعلان الحرب أو إبرام الصلح ، كان يعقد مجلس السلطنة برياسته وعضوية اتابك العسكر والخليفة والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وهم أربعة وعشرون أميرا من كبار أمراء المماليك .

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٢٧٥ .

دواويـن الحكـومـة :

كان فى مصر فى عصر الدولة المملوكية عدة دواوين حكومية ، يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة ، أهمها ديوان الإنشاء ، وديوان الأحباس ، والديوان الخاص ، وديوان النظر ، وقد سارت هذه الدواوين على نسق واحد من حيث التنظيم الإدارى ، فكان على رأس كل ديوان منها ناظر يعاونه وكيل يطلق عليه مستوفى الصحبة ، ويليه فى المرتبة مستوفى الدولة ، ثم عدد من المستوفين [1] .

ويدل ذلك على مبلغ ماوصله النظام الإدارى فى الدولة المملوكية من الدقة والإتقان ، فكانت الإدارة المركزية مقرها القاهرة ، وتعتمد على كبار الموظفين الإداريين ، ونظار الدواوين ، ثم إدارة محلية تتمثل فى ولاة الأقاليم ، وتربطها معا إدارة بريد ذات كفاءة ، تابعة الديوان الإنشاء لربط أجزاء الدولة المصرية بعضها ببعض وبالولايات التابعة لها .

وكانت أهم دواوين [2] الحكومة المصرية التى تمارس من خلالها أعمالها هى ديوان الإنشاء ، وديوان الأحباس ، وديوان النظر ، والديوان الخاص .

(أ) ديوان الإنشاء :

وهو المختص بتلقى المكاتبات الواردة من أنحاء الولايات والممالك التى ترتبط مع مصر بعلاقات سياسية ، وهو الذى يتولى أيضا تحرير المراسلات السلطانية .

وقد اهتم سلاطين المماليك بهذا الديوان منذ حكم بيبرس ، لكثرة المخالفات والمعاهدات التى عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له ، والمراسلات المترتبة على ذلك [3]

وكان المسئول عن هذا الديوان يلقب أحيانا بصاحب ديوان الإنشاء ، وأحيانا أخرى بكاتم السر أو كاتب السر ، وكان له شأن عظيم ، فهو يتقدم عمن عداه من كبار العاملين فى السلطنة ، فكانت وظيفته من أعظم الوظائف وأجلها قدرا فكان أول من يدخل على السلطان وآخر من يخرج من حضرته ، كما كان لايستغنى عن مشورته والإفضاء إليه بأسراره ، ولايعتمد على أحد اعتماده عليه [4] .

---

(١) د . على إبراهيم حسن المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٢) جمع ديوان ومعناها بالفارسية سجل أو دفتر وأطلق مجازا على المكان الذى يحفظ فيه الدفتر أو السجل . راجع د . على إبراهيم حسن المرجع السابق ص ٣٠٨ هامش (١)

(٣) د . محمد جمال سرور ـ المرجع السابق ص ١٣٤

(٤) د . على إبراهيم حسن . المرجع السابق ص ٣٠٩ ومابعدها .

وكان يحضر حلف اليمين التى يؤديها ولاة الاقاليم عند تعيينهم في مناصبهم ، ويتولى تحرير مراسيم تولية الولاة ، ويزودهم بنصائحه لرفع الظلم عن الأهالى ، وكان يطلع السلطان على مايصله من أخبار تتعلق بمصلحة السلطان أو الرعية [١].

وكان يتولى الرد على المراسلات والشكاوى التى تصل إلى السلطان ، ويشترك في الفصل في المظالم ، ويقرأ الكتب الواردة إلى السلطان ويتولى الرد عليها .

ومن اختصاصه أيضا التوسط بين السلطان والأمراء إذا حدث اختلاف في أمر من الامور ، ويتولى الفصل في شئون القضاة والعلماء [٢] .

وبنظرة سريعة إلى اختصاصات هذا الديوان فإنه يمكن قياسها على اختصاصات وزارة الخارجية وديوان الرئاسة الجمهورى معا في العصر الحالى .

أما جهاز العاملين في هذا الديوان فيتمثل في مجموعة من المعاونين على رأسهم نائب كاتب السر ، ثم مجموعة من « كتاب الدست [٣] » ثم طبقة تالية من كتاب الدرج [٤] مهمتهم الاطلاع على الملاحظات أو التاشيرات التى يدونها كاتب السر أو كاتب الدست أو نائب السلطان أو الوزير على المكاتبات والمراسيم والمنشورات والرد عليها وفق هذه التاشيرات ، وكان يعاون كاتب السر أيضا موظف آخر يطلق عليه « الدوادار » [٥] ويصف المقريزى جزءا من عمل الدوادار فيقول « يقدم للسلطان كل ماتؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير والتواقيع والكتب » [٦] .

(ب) ديـوان الأحبـاس :

ويتولى الإشراف على الجوامع والمساجد والزوايا والمدارس والعقارات المحبوسة عليها، بالاضافة إلى الإحسان على الفقراء والمعوزين ، وكان عمل هذا الديوان قد نشأ مع شراء بعض رجال البر بعض الاراضى في جهات مختلفة وحبسوها على الإنفاق على وجوه البر ، ولم يكن هذا الديوان موجودا من قبل وأنشأته الدولة المملوكية .

---

(١) د. عبد المنعم ماجد ـ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ـ القاهرة ١٩٨٢ ص ٩٣ .

(٢) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) نسبة إلى دست السلطنة وهى مرتبة جلوس السلطان حيث كانوا يجلسون أمامه لتحرير الرسائل

(٤) نسبة إلى الدرج وهو نوع خاص من الورق كانوا يكتبون عليه ـ المرجع السابق

(٥) لفظ مركب عربى فارسى معناه متولى الدواة أو المحبرة ـ راجع القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ص ٤٦٢ .

(٦) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٢١١

وأعمال هذا الديوان تقترب من أعمال وزارة الأوقاف فى عصرنا الحالى .

(جـ) ديوان النظر :

ويتولى الإشراف على حسابات الدولة وصرف مرتبات الموظفين ومستحقات كبار الموظفين العينية ، كالأطعمة والملابس ، وكانت الدواوين الأخرى ترجع إليه فيما يتعلق بدخل الدولة ونفقاتها [1] ، وكان يطلق على هذا الديوان أحيانا « بيت المال » ويطلق على صاحبه « ناظر المال » وكانت وظيفته من الوظائف الهامة ، حتى أن المقريزى يقول عنه .

« يصعد ومعه شهود بيت المال وصيرفى بيت المال وكاتب المال إلى قلعة الجبل ... فيكون له الأمر والنهى » [2] .

(د) ديــوان الخــاص :

أنشئ هذا الديوان فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ليتولى شئون السلطان المالية ، وكان يتولاه « ناظر الخاص » الذى ينوب عن السلطان فى كل مايباع ويشترى من أملاك الخاصة السلطانية ، كما كان يشرف على الخزانة السلطانية ، ويؤتمن على ماقى القصر من أموال وجواهر وتحف وغيرها .

وكان ديوان الخاص يتولى الإنفاق على شراء اللحوم والكساوى لموظفى البلاط السلطانى وكبار رجال الدولة ونواب السلطنة فى الشام والأمراء والقضاة والمماليك وغيرهم [3] .

دواوين أخــرى :

لم يقتصر الأمر على الدواوين السابقة وإن كانت أهمها ، فقد وجدت دواوين أخرى أقل فى الأهمية ، مثل ديوان الخلال السلطانية ، وديوان تركات الأمراء ، وديوان الاصطبلات[4] ، وهى دواوين أقرب ماتكون إلى إدارات تابعة للبلاط السلطانى وكانت رئاسة هذه الدواوين فى أول عهد الدولة المملوكية حقا مقصورا على أمراء المماليك إلا أن تطور الأمور أدى بهم إلى الاستعانة بغير المماليك فى بعض الوظائف خاصة كاتب السر أو صاحب ديوان الإنشاء ، وهى أعمال لم يكن يتقنها المماليك .

---

(١) د . على إبراهيم حسن ــ المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٢) المقريزى ــ الخطط ــ جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) ابن شاهين ــ زبدة كشف الممالك ــ ص ١٠٧ .

(٤) القلقشندى ــ صبح الأعشى ــ جـ ٥ ص ٤٣١ .

مراتب وطبقات أمراء المماليك :

كان السلطان هو زعيم أمراء المماليك ، والمهيمن على شئونهم الخاصة والعامة ، وصاحب الحق الوحيد فى تدرجهم فى سلك الترقى بين طبقات المماليك ، التى كانت تتدرج من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير مئين .

* أمير الخمسة : وهو مملوك فى خدمته خمسة مماليك من الفرسان وهذه الطبقة تُعد من أكابر الجند .
* أمير العشرة وهى الطبقة الأعلى ويكون فى خدمة هذا الأمير مابين عشرة وعشرين من المماليك الفرسان .
* امير الاربعين : وهى الطبقة التالية وهى طبقة لاضابط لعدد من فى خدمته من المماليك فى النقص والزيادة ، فقد تصل إلى أمير سبعين أو ثمانين(١) . وكان يطلق على هؤلاء الامراء أحيانا « أمير طبلخاناة » بمعنى أنه يحق لهم دق الطبول على أبواب قصورهم عند الدخول أو الخروج .
* أمراء المئين . وهذه الطبقة تُعد مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف وتقترن هذه التسمية عادة بلقب « مُقدّم ألف » فهو إذاً « أمير مائة مُقدّم ألف » أى أن فى حوزته مائة مملوك وهو فى الحرب يقود ألف جندى من أجناد الحلقة(٢) .

الوظائف الهامة :

وجدت فى الدولة المملوكية أعداد كبيرة من الوظائف الهامة ، بعضها كان موجودا من قبل ، ولكن أغلبها استحدث فى هذه الدولة ، وعلى الأخص فى عهود بيبرس وقلاوون والناصر محمد ابنه ، الذين عملوا على اقتباس أفضل النظم والوظائف من بلاط العباسيين فى بغداد والفاطميين والأيوبيين فى مصر (٣) ، حتى أصبح نظامهم يفوق ماكان سائدا من حيث الدقة والنظام ، إلا أن أغلب هذه الوظائف كانت حقا شبه مقصور على طبقة خاصة من أمراء المماليك ، أما الشعب فلم يكن يحظى إلا بنصيب ضئيل منها .

---

(١) القلقشندى ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥ .

(٢) القلقشندى ـ ضوء الصبح المسفر ص ٢٥٠ .

(٣) المقريزى ـ الخطط ـ جـ ٢ ـ ص ٢٢٥ .

وكان السلطان يعتمد فى إدارة شئون دولته على كبار الموظفين الإداريين ، ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها برغم مراقبته له ومحاسبته إياه على أعماله .

وكان أهم هؤلاء الموظفين . نائب السلطان والأتابك والوزير والمحتسب ووالى القاهرة وولاة الأقاليم .

نائب السلطان :

وهو أكبر معاوني السلطان ، ويباشر بعض أعمال السلطنة ، منها الاشتراك مع السلطان فى منح لقب الإمارة ، وتوزيع الإقطاعات ، وتعيين الموظفين ، ويعرض على السلطان من يرى ترشيحهم لتلك الوظائف فيقرها ، وقلما كان يرفض تعيين أحد ممن رشحهم نائبه [١] . ومن اختصاصاته أيضا توقيع المراسيم والمنشورات، وتنفيذ القوانين ، والركوب على رأس فرق الجيش فى المواكب الرسمية ، وكان لنواب السلطنة فى الشام حق التصرف فى كل مايخص نيابتهم بالإضافة إلى النظر فى المظالم والشكاوى ، فكان له تصريف مهام الدولة التى تدخل فى دائرة نفوذه ، وأحيانا كان يصدر القرارات باسم السلطان ، وأحيانا أخرى باسمه هو [٢] ، ويمكن التعرف على مدى أهمية هذه الوظيفة ومقدار الاختصاصات الملقاة عليها من وصف المقريزى . «وكان يستخدم الجند ويخرج الإقطاعات من غير مشورة السلطان وكان المتصرف المطلق فى كل أمر فيراجع فى الجند وفى البريد وكل ذى وظيفة لايتصرف إلا بأمره وبمراجعته وهو الذى يستخدم الجند ويرتب الوظائف» [٣] .

وكان نائب السلطان يطلق عليه أحيانا « ملك الأمراء » كما كان يلقب أحيانا « بكافل المملكة الشريفة الإسلامية » لأنه كان يتكفل بتصريف أمور الدولة العامة سواء أكان السلطان فى القاهرة أم كان متغيبا عنها .

وتجدر الإشارة إلى نوع آخر من نواب السلطان ، وهو نائب الغيبة ، الذى كان يترك فى العاصمة إذا ماغاب السلطان ، وليس له دور إلا إخماد الثوار ، وخلاص الحقوق ، وهو يتولى مهام الدولة إذا سار السلطان على رأس الجيش فى الحرب أو إذا خرج السلطان للصيد [٤] .

---

(١) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ .

د . عبد المنعم ماجد ـ نظم سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ـ القاهرة ص ١٧٠

(٢) القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ١٧ .

(٣) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٤٠

(٤) المقريزى ـ الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ .

وكانت وظيفة نائب السلطان تضعف حينا وتلغى حينا آخر وقد زالت نهائيا فى حكم السلطان برقوق فى دولة المماليك البرجية [1] .

الأتابك [2] :

وهو القائد العام لجيش الدولة وكان يسمى أتابك العساكر أى قائد الجند ويستعمل هذا اللفظ أحيانا للدلالة على الوصى على الأمراء الذي يتعهد بتربيتهم فى حداثة السن .

الوزيــر :

وهو يلى نائب السلطنة فى المرتبة ، والوزير فى العهد المملوكى لم يتمتع بالنفوذ المطلق للوزير فى الدولة العباسية أو الدولة الفاطمية أو فى الدولة الأيوبية ، وفى بعض الأوقات كنا نجد وزيرين معا ، أحدهما من أرباب السيوف أى من المقاتلين ، والثانى من أرباب الأقلام أى من الكتاب .

وقد ضعفت الوزارة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى انتهى به الأمر إلى إلغائها، إلا أنها أعيدت مرةأخرى بعد وفاته ، واستمرت إلى نهاية دولة المماليك .

وإلى القاهرة :

وهو من أهم الموظفين الإداريين ، فهو الذى ينفذ الأحكام ، ويقيم الحدود أى العقوبات ، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر . ومن اختصاصاته مراقبة أبواب القاهرة ، والطواف بالأحياء التجارية ، ويذكر القلقشندى بعض اختصاصاته الاخرى قائلا .. « وهو الذى يستعلم عما استجد فى المدينة من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك فى كل يوم من نوابه ثم تكون مطالعة كاملة جامعة بذلك تُحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم ليقف عليها » [3] .

وكان والى القاهرة يسمى أحيانا « صاحب العسس » وهم الذين يطوفون أو يحسون ليلا لتتبع أهل الريب [4] .

وكان يتولى محاكمة كل من يقبض عليه من اللصوص أو السكارى ، والحكم عليهم بما يناسب جريمتهم ، وكان يقتصر نفوذ هذا الوالى على القاهرة ، وأدى اتساع القاهرة إلى وجود ثلاثة ولاة ، هم والى القاهرة ، ثم والى الفسطاط ، ووالى القرافة [5] .

---

(١) القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ١٧ .

(٢) لفظ اتابك من أصل تركى ومعناه الامير الأب أى ابى الأمراء ـ راجع القلقشندى ـ صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨ .

(٣) القلقشندى ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦ .

(٤) دكتور ناصر الانصارى ـ تاريخ أنظمة الشرطة فى مصر ـ القاهرة ١٩٨٩ ص ٧٤

(٥) أحمد عبد السلام ناصف ـ الشرطة فى مصر الإسلامية ـ القاهرة ١٩٨٧ ص ١٠٦ .

وكان والى القاهرة يعين من طبقة أمراء الطبلخاناة [١] وهو أكبر الولاة الثلاثة وإعلاهم مرتبة [٢] ، أما والى الفسطاط، فكان يعين من أمراء العشرات واختصاصه فى ضواحى الفسطاط والعسكر والقطائع ، وكان اختصاص والى القرافة هو الإشراف على الأمن وحراسة القبور وماتحتويه من نفائس ، وكان يشرف على النظام أثناء تشييع الجنازات ، ويتأكد من مراعاة الآداب العامة عند زيارة القبور [٣]

كما وجدت أيضا وظيفة والى القلعة ، الذى يشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير المخصص لخروج ودخول الجنود ، وعليه أن يتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها [٤] .

ولاة الاقاليم :

كانت الإدارة المحلية فى الاقاليم الأخرى ممثلة فى والى كل إقليم ، وكانت مهمته مثل ولاة القاهرة ، العمل على استتباب الأمن والنظام وبث الطمأنينة فى النفوس ، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم ، وفى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أُجْرِىَ مسح للأراضى أصبح بموجبه عدد الاقاليم فى الوجه البحر اثنى عشر إقليما وفى الوجه القبلى ثمانية اقاليم [٥] .

وفى وقت لاحق أصبحت الإسكندرية نيابة سلطنة لأنها كانت أهم الثغور التجارية ، ووجد مشرف على ولاة الوجه البحرى وآخر على ولاة الوجه القبلى يعد كل منهما بمثابة والى الولاة ، وأطلق على من يتولى هذه الوظيفة « كشاف »[٦] .

---

(١) القلقشندى ـ ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ص ٢٤٤

(٢) إبراهيم الفحام ـ الشرطة فى عصر المماليك . مجلة الأمن العام العدد ١٥ ص ٤٣

(٣) القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ص ٢٤ ، وإبراهيم الفحام المرجع السابق . وأحمد عبد الرازق ـ شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك القاهرة ٩٨٢ ص ٣٥ . وأحمد عبد السلام ناصف المرجع السابق

(٤) القلقشندى ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ .

(٥) د . على إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٦) القلقشندى ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٤ .

وظائف البلاط السلطاني :

وضع المماليك للبلاط السلطاني نظاما دقيقا ، ورتبوا الوظائف فيه بما يكفل سير الأعمال داخل القصر بكفاءة تامة [١] . وكانت أهم هذه الوظائف هي حاجب الحجاب ، وكانت مهمته الاساسية ترتيب مواعيد مقابلات السلطان ، ودخول الناس إليه ، كما كان يقضي بين الأمراء والجند ، ويفصل في خصومات الجنود الخاصة بالإقطاعات ولكنه لم يكن مخولا بالنظر في الأمور الشرعية ، كالفصل في الخصومات بين الزوجين ، أو الحكم في قضايا الديون ، وهي الأمور التي كانت تدخل في اختصاص القضاة . وكان الحاجب يقف أحيانا أمام السلطان في المواكب ليبلغه رغبات الرعية [٢] . وكان يشترط في شاغل هذه الوظيفة أن يكون من أمراء المئين مقدم الألوف ، وكان له نائب من أمراء الطبلخاناة ومجموعة من الحجاب تصل إلى خمسة أحيانا من طبقة أدنى .

وكانت وظيفة « الاستادار » من أكبر وظائف البلاط السلطاني أيضا ، وكان يشرف على إدارة البيوت السلطانية ومدها بالحوائج والشراب والفرش ، وكان له حق تأديب الخدم ، ويعهد إليه بجلب ماتحتاجه البيوت وإصدار الأمر بدفع ثمنها [٣].

أما وظيفة « الخازندار » فكان صاحبها يتولى الإشراف على مايأمر « الاستادار » بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى ، فكان بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية [٤] .

وكانت وظيفة « الجاشنكير» من الوظائف الهامة في القصر ، لانها تتعلق بسلامة السلطان ذاته ، وكانت مسئولية من يتولى هذه الوظيفة هي تذوق كل الطعام والشراب الذي يعد للسلطان قبل تقديمه إليه خشية دس السم له [٥] .

أما وظيفة « المهمندار » فكان صاحبها مكلفا باستقبال السفراء الذين يفدون على السلطان ، والسهر على راحتهم ، والتأكد من تلبية طلباتهم ، وتحديد موعد مقابلة السلطان لهم [٦].

---

(١) يرجع في تفصيل ذلك إلى الدكتور عبد المنعم ماجد . نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ـ القاهرة ١٩٨١

(٢) القلقشندي ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٣) القلقشندي ـ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٧ .

(٤) المرجع السابق جـ ٥ ـ ٤٦٢

(٥) المرجع السابق جـ ٥ ص ٤٦٠ .

(٦) القلقشندي ـ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٧ .

أما الحرس السلطاني فكان يتولاه المماليك الخاصة بالسلطان ، وهم المماليك السلطانية ، وكانوا أعظم الجنود شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأقربهم من السلطان ، وكانوا يتناوبون اليوم كله نهارا وليلا فى خدمة القصر السلطانى ، ويرأس كل نوبة أمير كبير يطلق عليه اسم «رأس نوبة » وكان لهذا الحرس أهمية خاصة فى المواكب الرسمية عند خروج السلطان[1].

وجميع هذه الوظائف وغيرها على الرغم من كثرتها أكسبت السلاطين رونقا وبهاء وعظمة كما أن الكثرة فى عدد الوظائف كان لها أثر كبير فى تخفيف حدة الأحقاد التى كانت فى نفوس المماليك من أجل السلطة والنفوذ ، ومكنت هذه الوظائف الكثيرة السلطان من إبقاء عدد كبير من الأتباع فى خدمته .

---

(١) د . على إبراهيم حسن المرجع السابق ص ٢٤٠ .

الباب الحادي عشر

الأسرة العثمانية

نشأة الدولة العثمانية :

العثمانيون من الجنس التركي المتشعب من الجنس المغولي . وكانت دولة المغول (التتار) قد قامت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، (القرن السابع الهجري) وكانت دولة وثنية قوية تحت قيادة جنكيزخان ثم حفيده هولاكو ، وتمكنت هذه الدولة من اكتساح ممالك وسط وغرب آسيا ، وقوضت عرش الخلافة العباسية في بغداد . وبعد أن قضى المغول على دولة السلاجقة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) لم يستطيعوا أن يحكموها بأنفسهم فاستقلت بعض الإمارات التركيةمنها إمارة بني عثمان [(١)] .

وبنو عثمان قبائل تترية طرقت في القرن الأول للميلاد بلاد تركستان الواقعة شرقي بحر قزوين واستوطنتها ، ثم اعتنقت الإسلام في منتصف القرن الرابع الهجري [(٢)] .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) وصل جنكيزخان بفتوحاته إلى تلك البلاد فرحل بعض سكانها إلى آسيا الصغرى تحت قيادة زعيمهم « أرطغل بن سليمان » وأقطعهم السلطان السلجوقي أرضًا واسعة يقيمون فيها ، وخلف « عثمان بن أرطغل » أباه فاستقل بالحكم وأسس السلطنة العثمانية وتبعه في الحكم ابنه « أورخان ابن عثمان » الذي ألف جيشًا من ستة آلاف من الأسرى أطلق عليهم « الإنكشارية » أي الفرقة الجديدة ، وعبر بهم مضيق « الدردنيل » ووسع فتوحات أسلافه ، وقد سار من تلاه من السلاطين ، وهم مراد الأول ومحمد الأول ومراد الثاني ، على نهج من سبقهم

---

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن ـ تاريخ مصر من الفتح العثماني ـ القاهرة ص ١٧ .

ـ د . عراقي يوسف محمد ـ الوجود العثماني المملوكي في مصر ـ القاهرة ١٩٨٥ ص ١٢ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ في أصول التاريخ العثماني القاهرة ١٩٨٢ ص ٢٢ .

فى الفتوحات والتوسعات حتى بلغت « الانكشارية » مائة ألف مقاتل . وعندما آلت السلطنة إلى محمد الثانى تمكن من الانتصار على جيوش الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى « بيزنطة » وفتح عاصمتها « القسطنطينية » سنة ١٤٥٣م على عهد الإمبراطور قسطنطين الثانى عشر ، وأصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لهم [١] .

وفى عصر السلطان العثمانى « بايزيد الثانى » وقعت حرب بينه وبين « الأشرف قايتباى » حاكم مصر والشام من المماليك الجراكسة ، إلا أن هذه الحرب انتهت بالصلح بينهما . وعند موت بايزيد الثانى كانت آسيا الصغرى بأكملها وشبه جزيرة البلقان حتى نهر الدانوب (الطونة) تحت سيطرته [٢] .

ونعرض هذه الحقبة فى خمسة فصول الأول عن علاقات الأسرة العثمانية مع أسرة المماليك الجراكسة الحاكمة لمصر والشام ، ثم نعرض فى الفصل الثانى فترة حكم الأسرة العثمانية لمصر ، أما الفصلين الثالث والرابع فلدراسة طبقات المجتمع وبعض النظم السياسية والإدارية التى سادت فى مصر إبان حكمهم . ثم ختمنا بفصل خامس على الحملة الفرنسية التى أنهت تلك الحقبة .

---

(١) هند إسكندر عمون تاريخ مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٤٣.

(٢) هند إسكندر عمون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

الفصل الأول

العلاقات العثمانية المصرية

كانت الدولة العثمانية منذ أن استتب سلطانها بآسيا الصغرى على تصادق ومصافاة مع دولة المماليك الجراكسة المصرية منذ عهد السلطان الظاهر برقوق في مصر والسلطان بايزيد الأول العثماني (١) . ثم حدث في عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح أن هرب أخيه ولجأ إلى مصر ، ورفض السلطان الاشرف برسباى تسليمه ، فاتخذها ذريعة لإعلان الحرب على الدولة المصرية ، وكان النصر للجيوش المصرية وأعقبه عقد صلح بينهما (٢) . ولكن هذا الصلح لم يدم طويلا فقد عمد العثمانيون إلى التحرش بطرق التجارة المصرية مع غرب ووسط آسيا بوضع العراقيل فيها ، مما جعل من الصعب وصول أصناف التجارة المختلفة إلى مصر ، وعلى الأخص صغار المماليك الذين كانوا أساس الجيش والحكومة في مصر ، ووصل الامر إلى امتناع وصول السلع تماما في عهد السلطان الغورى (٣) . وفي المقابل كان السلاطين في مصر يجيرون من يلجأ إليهم من أبناء السلطنة العثمانية ومن الأمراء الآخرين الفارين من وجه الجيوش العثمانية ، بل واقاموا علاقات ودية مع أعداء الدولة العثمانية من حكام الدول المجاورة ، ومنهم الشاه إسماعيل ملك فارس (٤) .

وبدا أن الحرب بين الطرفين واقعة لا محالة فبدأ السلطان الغورى في تهيئة جيشه.

وكان السلطان العثماني سليم بن بايزيد الثاني قد عزم الأمر على الزحف نحو مصر ، فنقض المعاهدة التى كان عقدها أسلافه ، وبدأ الزحف نحو سوريا. ولم تكن حال المماليك في مصر والشام من القوة التى كانت عليها من قبل ، بسبب اكتشاف طريق

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ المرجع السابق ـ ص ٧٣ .

(٢) عمر الإسكندرى وسليم حسن ـ المرجع السابق ص ٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦

(٤) هند إسسكندر عمون ـ المرجع السابق ص ٢٢٧ ـ وعمر الإسكندرى وسليم حسن ـ المرجع السابق ص ٧

رأس الرجاء الصالح ، وتحول طريق التجارة الهندية إليه ، فقلت موارد مصر ، كذلك قطع الإمدادات والمواد الواردة إلى مصر عن طريق آسيا الصغرى . ومع ذلك تمكن السلطان الغورى من إعداد جيش خرج به إلى حدود آسيا الصغرى ، وجمع فى هذا الجيش ، على قلته ، أغلب مَن فى مصر من رجال القوة الحربية والأدبية ، فخرج فيه الخليفة العباسى وقضاة المذاهب الأربعة ، ورؤساء مشايخ الطرق الصوفية ، وكبار العلماء والأعيان ، وأرباب الصناعات وغيرهم . وترك بمصر حامية من المماليك تقدر بنحو ألفين ، وأناب عنه ابن أخيه طومانباى ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم (١) .

بينما خرج السلطان سليم من القسطنطينية بجيش عظيم مدرب على الحرب ، وصل تقديره عند البعض إلى مائة وخمسين ألف مقاتل مسلحين بالمدافع والبنادق .

وسار جيش المماليك بقيادة الغورى إلى دمشق ومنها إلى حلب ، لملاقاة العثمانيين ، فالتقى بهم فى « مرج دابق » شمالى حلب فى سنة ١٥١٦ م/ ٩٢٢هـ .

وكادت الغلبة تكون للجيش المملوكى لولا خيانة خيربك الذى كان على قيادة ميسرة الجيش والذى انهزم بكتيبته لصالح العثمانيين . فاختل الجيش المصرى رغم بسالته وظل قنصوه الغورى يحارب مستقتلاً حتى سقط عن جواده وقتل تحت أرجل الخيل(٢).

واستولى السلطان سليم على حلب وقلعتها بدون قتال ، ثم استولى على دمشق ، ودانت له جميع مدن الشام ، ومكث بها ثلاثة أشهر يرتب نظامها (٣) .

مقاومة طومان باى فى مصر :

عندما علم الأمراء الباقون فى مصر بهزيمة السلطان قنصوه الغورى ومقتله فى معركة « مرج دابق » اتفقوا على مبايعة نائبه « الأشرف طومان باى الثانى » سلطانًا عليهم .
وأرسل السلطان العثمانى سليم إلى طومان باى يسأله أن يحكم مصر كنائب عنه على أن يعترف له بالسيادة ، ويضرب النقود باسمه ، ويدعو له على منابر المساجد والجوامع ، وفى المقابل يرجع سليم عن قتاله ، وكان طومان باى ميالا للموافقة خاصة أن سليم كان فى طريقه فعلا إلى مصر ، وكان قد فتح غزة والعريش ، إلا أن أمراء المماليك أبوا إلا الحرب وقتلوا رسله .

---

(١) عمر الإسكندرى وسليم حسن . المرجع السابق . ص ٨ .
(٢) هند إسكندر عمون . المرجع السابق ص ٢٤٣ .
(٣) عمر الإسكندرى وسليم حسن . المرجع السابق . ص ١١ .

وفي يناير ١٥١٧م/ ذي الحجة ٩٢٢هـ. التقى الجيشان عند صحراء «الريدانية»[١]. وأبدى طومان باي وجيشه الصغير من البسالة والشجاعة والصبر الكثير إلى أن تمكن السلطان سليم من دخول القاهرة وظل القتال دائرا في أحيائها أربعة أيام من بولاق إلى الناصرية وقناطر السباع (بالسيدة زينب) [٢] . واستولى السلطان سليم على القلعة وخزائنها ونفائسها وذخائرها . وشنق طومان باي على باب زويلة .

---

(١) هي منطقة العباسية الآن . وسميت كذلك فيما بعد نسبة إلى الخديو عباس باشا

(٢) هنه إسكندر عمون . المرجع السابق ص ٢٤٢ . وعمر الإسكندري وسليم حسن المرجع السابق ص ١٢

الفصل الثاني

الحكم العثماني لمصر

انهيار الخلافة العباسية :

أقام السلطان سليم فى مصر بعد أن ضمها للدولة العثمانية ، وبدأ بتوزيع المصالح ، وتنظيم دوائر الحكومة بطريقة تمنع حصر النفوذ فى واحدة منها دون الأخرى ، ليأمن عدم خروجها عن طاعته (١) . وفى نفس الوقت قام بنفي كل أبناء سلاطين المماليك وأكثر الأمراء من مصر إلى القسطنطينية . كما قام بنقل جميع رؤساء الصناعات المجيدين من كل الطوائف إلى عاصمته . أما الخليفة العباسي المتوكل فقد سجنه واضطره للتنازل له عن الخلافة ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية التي كانت تمارس اختصاصا شكليا من مصر بعد انهيارها فى بغداد (٢) . وأصبحت الخلافة من ذلك العهد فى بيت سلاطين آل عثمان .

مصر ولاية عثمانية :

وكان النظام الذى وضعه السلطان سليم لمصر يقوم على وجود ثلاث قوى تتصارع من أجل مصالحها مما يحقق له أكبر ضمان للسيطرة .

القوة الأولى هى الوالى ووظيفته الأساسية هى إبلاغ الأوامر الواردة له من السلطان إلى سائر القطاعات الأخرى فى الحكومة ، وعليه مراقبة تنفيذها .

أما القوة الثانية فهى القوة العسكرية التى شكلها السلطان سليم من ست وجاقات (فرق) لهم قائد عام يقيم فى القلعة ، ولكل فرقة ستة ضباط ، ومن هؤلاء الضباط جميعًا

---

(١) هند إسكندر عمون . المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٢) - G abriel Hanotaux - Histoire de la nation égyptienne . Introduction générale. paris - 1931 - P. LXXIV.

شكّل مجلسًا أو ديوانًا لمساعدة الوالى فى إدارة شئون البلاد ، بل ولهذا الديوان الحق فى معارضة مشروعات الوالى إذا لم يجد فيها مصلحة البلاد .

أما القوة الثالثة فهي المماليك ، وقد استعان بهم السلطان سليم فى تسيير دفة الأمور خارج العاصمة ، فعين على كل مديرية من المديريات الأربع والعشرين أحد بيكوات المماليك وتسمى مديرياتهم « سناجق »[1] .

وقد خلف السلطان سليمان القانوني [2] ، السلطان سليم الأول فأنشأ مجلسين آخرين يعرفان بالديوان الأكبر الذى يجتمع لمناقشة الأمور الخطيرة للبلاد ، ويتشكل من الضباط والعلماء . أما الثانى فهو الديوان الأصغر وهو يجتمع يوميا ولا يضم العلماء ونحوهم[3] . كما أضاف تعديلات أخرى جوهرية ، منها أنه أباح للمماليك الترقى فى مناصب الحكومة حتى رتبة الباشوية ، وأهم هذه التعديلات والتى ظهر أثرها فيما بعد هى إجازته للمماليك بتأليف وجاق (فرقة) سابع من بقايا جيوشهم تنضم إلى الوجاقات الستة من الإنكشارية ، وقد أصبحت هذه الفرقة شيئا فشيئا أقوى الوجاقات وزاد بها نفوذ المماليك ، مما مكنهم من إثارة الفتن فى البلاد ومناوأة الوالى .

وظلت الأمور على هذه الحال طيلة الفترة الباقية من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، وليس فى تاريخ مصر فى هذين القرنين ما يستحق الذكر اللهم إلا سلسلة من الولاة يعينون ثم يعزلون ، تتراوح مدة حكمهم بين سنة وثلاث سنوات مع بعض الاستثناءات ، مثل سليمان باشا الذى ظل واليا على مصر حوالى أحد عشر عاما ، وداود باشا الذى بلغت مدة ولايته اثنى عشر عاما . أما عن أعمالهم فبعضهم التفت إلى أعمال التشييد والبناء والتعمير ، وبعضهم لم يشغل نفسه إلا بالتزود بالمال قبل انقضاء مدة ولايته . ومما يدل على ضعف الولاة وعدم تمكنهم من الأمور كثرة تغييرهم ، سواء

---

(١) هند إسكندر عمون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦

- عمر الإسكندرى وسليم حسن ، المرجع السابق ، ص ٨٠ .

- Raoul Clement. L'Egypte ottomane. Paris - 1948- p 16.

- د . عراقى يوسف محمد ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٩٧ .

(٢) هو السلطان سليمان الثانى وأطلق عليه القانونى لما سنه لبلاده من قوانين إدارية وعسكرية

(٣) عمر الإسكندرى وسليم حسن ، المرجع السابق ص ٩٤ .

د . عراقى يوسف محمد ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

بأوامر من الدولة السنية أو نزولا على رغبة المماليك ، حتى وصل عددهم مائة وثمان وثلاثون واليا على مدى ٢٨١ سنة هي مدة الحكم العثماني لمصر [١] .

وخلال القرن السابع عشر بدأت سلطة الباب العالي تضعف لأسباب خارجية وأخرى داخلية ، أما الأسباب الخارجية فتكمن في ضعف تركيا أمام الدول الأوربية الأخرى ، وزحف النمسا وروسيا على حدودها الشمالية [٢] . أما الأسباب الداخلية فتتمثل في قوة شوكة جنود المماليك وتدخلهم في شئون البلاد وسيطرتهم على الولاة حتى انتقلت السلطة الحقيقية إليهم . وأصبح الولاة لايقومون إلا بأدوار ممسوخة [٣].

عودة نفوذ المماليك :

أدت كثرة تغيير الولاة العثمانيين إلى عدم بسط نفوذهم في مصر وإلى استرجاع المماليك الكثير مما فقدوه من قوتهم في أول الحكم العثماني لمصر . وساعد المماليك على القبض على زمام الأمور أنهم اتحدوا في قوة واحدة ، واختاروا لهم زعيمًا من بينهم ، هو «شيخ البلد» وهو حاكم القاهرة . وتطور نفوذ المماليك نتيجة لسيطرتهم على ثروة البلاد بامتلاك الأراضي ، وتكوين الوجاق السابع القوي منهم [٤] .

تركت الحكومة التركية الضعيفة البلاد على هذه الحالة دون محاولة للتدخل للحد من استبداد المماليك بالبلاد ، حتى وصل الأمر إلى عدم إرسال الخراج السنوي إلى الباب العالي في الأستانة .

ويبدأ المماليك يتنازعون السلطة فيما بينهم ، والوالي العثماني يقف موقف المشاهد لاحول له ولا قوة .

وفي سنة ١٧٦٣م/١١٧٧هـ تمكن أحد المماليك ، وهو علي بك الكبير ، من القبض على زمام الأمور ، بل وصل طموحه إلى محاولة الاستقلال بمصر عند نشوب الحرب بين

---

(١) لمزيد من التفاصيل يرجع لكتابنا موسوعة حكام مصر . القاهرة ط ١ سنة ١٩٩٠ ص ١٠٢ ومابعدها .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٣) د. عراقي يوسف محمد . المرجع السابق ص ٣٥ .

(٤) عمر الإسكندري وسليم حسن المرجع السابق . ص ٨٥

- R.Clement. op - p. 132.

الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٧٦٨م/١١٨٢هـ . فأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الجزية ، وقام ببعض الفتوحات في الحجاز حتى الحرمين الشريفين ، وحاول فتح الشام . وظل على تلك الحال إلى أن اختلف مع قائد جيوشه ، محمد بك أبو الذهب ، سنة ١٧٧٢م . وانتصر عليه هذا الأخير فكافأه الباب العالي بمنحه لقب « شيخ البلد » ، إلا أن الفوضى لم تلبث أن عمت البلاد مرة أخرى ، بسبب نزاع اثنين من كبار المماليك على السلطة ، وهما مراد بك وإبراهيم بك ، إلى أن اتفقا على تولي أكبر منصبين بالتناوب فيما بينهما ، وهما منصب « شيخ البلد » ومنصب « أمير الحج» . وقد بقيا قابضين على مقاليد الأمور إلى أن أغار الفرنسيون على مصر سنة ١٧٩٨م/١٢١٣هـ . ما عدا الفترة من ١٧٨٦ إلى ١٧٩٠ التي عاد فيها النفوذ للعثمانيين مرة أخرى ، عندما أرسلت الدولة العثمانية حملة عسكرية للقضاء على الفتن المنتشرة في البلاد آنذاك ، وعند وصول الحملة القاهرة فر إبراهيم بك ومراد بك هاربين إلى الصعيد [1] .

وعهد العثمانيون بشياخة البلد إلى أحد بيكوات المماليك ، يدعى إسماعيل بك ، إلا أنه توفي سنة ١٧٩٠ إثر وباء اجتاح البلاد فعاد إبراهيم بك ومراد بك من الصعيد واستردا منصبيهما ، وحكما البلاد بحزم إلى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ [2] .

---

(١) هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥٩ .

(٢) عمر الإسكندري وسليم حسن ـ المرجع السابق ـ ٩٨

Charles H. Pouthas -Histoire de L, Egypte. Paris - 1948 Tome I. p. 140

الفصل الثالث

التركيب الاجتماعي للطبقات

وجدت في مصر إبان الحكم العثماني مجموعة من الطبقات ، إلا أن هذه الطبقات لا يمكن مقارنتها بنظام الطبقات الذي وجد في الغرب ، أو الذي وجد في مصر ذاتها أثناء حكم الرومان لها ، مثلا عندما كان هناك مواطنون لهم جميع حقوق المواطنة ، وهم أبناء الدولة الرومانية الأصلية ، وآخرون وهم أبناء مصر الذين لم يكونوا يتمتعون بنفس الحقوق ، فهذه الطبقات وتقسيمها كان له انعكاس على ممارسة الحقوق والواجبات السياسية بطريقة حازمة ، بينما الطبقات في مصر العثمانية كانت تتدخل بطريقة أو بأخرى في الممارسة اليومية كما سوف نرى .

وأوجد النظام العثماني طبقتين رئيسيتين في مصر الأولى ، هم أبناء الدولة العثمانية الأم ويطلق عليهم « عثمانلى لار » وهم الذين من أصول عثمانية . أما الطبقة الثانية فهم الذين ينتمون إلى الأصول المصرية ، ويطلق عليهم « مصرى لار » وينحصر الفرق بينهما في أن أبناء الطبقة الأولى هم أصحاب الحقوق في تولى المناصب الحكومية ، فهم الطبقة الرسمية في البلاد ، وليس هناك أية فروق أخرى في التعامل اليومي أو الحقوق أوالواجبات(1) .

كما وجدت طبقة ثالثة وهي طبقة العلماء ، وهم على دراية بالشريعة وعلومها ، وتنحصر فيهم بعض الوظائف ذات الصبغة القانونية والدينية والشرعية ، مثل القضاه والفقهاء وأهل الإفتاء والأئمة والمعلمين (2) .

---

(1) - Straford J. Shaw - ottoman Egypt in the age of the frensh revoltion, by Huseyn Efendi, Harvard University - 1964,p.3.

(2) - S. Shaw - op. cit -p .6

وإلى جانب هؤلاء وجدت طبقة صغيرة أخرى اكتسبت احتراما من أهل الحكم العثمانيين والمماليك ومن أهالى البلد على حد سواء ، أولئك هم طبقة السادات أو الأشراف ، وهم كل من يدعى انتسابا إلى النبى عليه الصلاة والسلام من خلال ابنته فاطمة الزهراء وزوجها على بن أبى طالب . وهؤلاء لم يكونوا فقط من رجال الدين بل كان منهم الصناع والتجار والجنود ، وكان يترتب على انتسابهم لطبقة الأشراف بعض المزايا ، وكان يمثلهم: « نقيب الأشراف » [1] .

وكان أغلب السكان خارج المدن من الفلاحين المسلمين ، وكانت عليهم مهام كثيرة ، تتمثل فى تقديم المحصولات التى يزرعونها ، وخاصة الغلة والأرز ، إلى السلطات ، بينما غذاؤهم يتشكل أساسا من البصل والأذرة التى يصنعون منها خبزهم .

وفى حساب الأهمية فى الأقليات كان الأتراك فى المقام الأول ، يليهم المماليك ، ثم يأتى الأقباط وكان عددهم فى القاهرة لا بأس به ، خاصة فى أحيائهم الخاصة شمال بركة الأزبكية ، أما خارج القاهرة فكانوا متفرقين فى القرى فى الدلتا وخاصة فى الصعيد ، وكانت لهم دور العبادة الخاصة بهم وكنائسهم . وكثير من هؤلاء الأقباط كانوا يمارسون وظائف هامة خاصة فى الإدارة المالية للبلاد ، وكانوا يساعدون الكشافين فى جباية الضرائب . كما وجدت أقليات مسيحية أخرى من السوريين واليونانيين ، كما وجد عدد لا بأس به من اليهود ، وبعكس الأقباط الذين كانوا مندمجين فى البلاد وجدت لليهود واليونانيين أحياؤهم الخاصة فى القاهرة .

طبقة المماليك :

أما الطبقة ذات القوة الحقيقية ، وذات التأثير ، فهى طبقة المماليك من بقايا حكام العصرين المملوكيين (البحرية والبرجية) والذين كانوا فى أول الفتح العثمانى يشتركون فى الحكم من خلال معاونة الوالى العثمانى ، ومن خلال حكمهم للمديريات فى الأقاليم خارج العاصمة ، ثم تبدل الوضع وأصبحوا القوة المحركة الرئيسية فى البلاد مع ضعف الدولة العثمانية وضعف ممثلها « الباشا » . بل وصل الأمر إلى محاولة استقلالهم بالحكم فى مصر مرة أخرى كما رأينا ... حتى إن بعض المؤرخين يعتبرون أن هؤلاء المماليك شكلوا حكومة ثالثة ، فبعد الحكومة الأولى للمماليك البحرية التى حكمت من منتصف القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر ، وتلتها الحكومة الثانية

---
(١) المرجع السابق ص ١٠٣

للمماليك البرجية أو الجركسية ، من أواخر القرن الرابع عشر إلى الفتح العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر ، ثم الحكومة الثالثة هى المماليك العثمانية التى كانت لها السيطرة الفعلية فى البلاد منذ منتصف القرن السابع عشر وحتى الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر [١] .

بل يذهب البعض للتدليل على سطوة المماليك واستيلائهم على مقاليد الأمور إلى القول بأن الحكم خلال القرن الثامن عشر فى مصر كان من خلال بيوت المماليك ، ولم يكن الوالى العثمانى إلا بمثابة سفير لدى المجلس المملوكى [٢] . وهو رأى لا يخلو من المبالغة .

وكانت طبقة المماليك فى داخلها تتكون من فئات متدرجة أعلاها هم الأمراء أو البيكوات ، حيث كان رؤساء المماليك يحملون لقب « أمير » أى أنهم طبقًا للنظام العثمانى كانوا يحملون لقب « بيك » وكان لكل أمير منهم بيت يتكون من الخدم والعبيد والعتقاء ، وكان أكبر الموظفين من التابعين هو « الكاشف » وهو كبير المعاونين من العتقاء

وكان العبيد يُجلبون صغارًا بمعرفة تجار الرقيق من الاناضول والشام ومن بلاد القوقاز وأحيانا من الجنوب من سنار ودارفور فى أفريقيا . وكل أمير يقتنى من العبيد بحسب ثروته ووضعه الاجتماعى ، ويقوم الكاشف بالإشراف على تدريبهم بغرض تحويلهم إلى أعمال مفيدة للبيت الذى ينتمون إليه . وكان مفهوم الرق فى ذلك الوقت أن الرقيق يعدون جزءًا من العائلة يُقدّرون ويَحترمون« السيد » أو « الاستاذ » الذى نشأوا فى بيته لأنهم أبناؤه . وباقى الرقيق ليسوا إلا إخوانهم « خوشداش » ويعملون معًا من أجل رفعة أستاذهم ، وزيادة قوته وثروته ، مما ينعكس أثره عليهم ، وهم يشكلون معًا جيش الأمير فى معاركه ضد أعدائه [٣] .وكان الكشاف أحيانا يخلف سيده بعد وفاته فى قيادة مماليكه . ومع مرور الوقت أصبح مجموع المماليك يشكلون القوة العسكرية الأولى فى البلاد ، وأصبح الوجاق السابع المشكل من المماليك يفوق الوجاقات الستة التى تشكلت فى أول الفتح العثمانى من جنود الإنكشارية .

وكان أقوى البيكوات المماليك هو صاحب البيت الأقوى، وأصبح ينتخب من بينهم زعيما لهم ، وأصبح يتولى منصب « شيخ البلد » .

---

(١) محمد شفيق غربال - تكوين مصر . القاهرة . ١٩٥٧ . ص ١٧ .

(٢) S.Shaw. op. cit - p. 11 -

(٣) المرجع السابق . ص ٧ و٨ .

وقدر البعض عدد المماليك المقيمين فى القاهرة فى القرن الثامن عشر بحوالى ثمانية آلاف وخمسمائة من البيكوات والكشافين والمماليك العاديين ، وفى كل بيت عدة مئات من العبيد ، هذا بخلاف المماليك المنتشرين مع الحكام خارج القاهرة (١).

وكان المماليك شغوفين بالفروسية ، ، وكانوا يتقابلون كل يوم فى مبارياتها فى الميادين الواسعة . كما كان رؤساؤهم ميالين إلى امتلاك المجوهرات والأسلحة المرصعة والمنازل والدور الكبيرة ، ولهم قصور من دور واحد ، أو دورين من الطوب الأحمر والحجارة ، وأرضها من الرخام تكسوها الأبسطة والسجاجيد ، والحوائط مزينة بالرسوم الهندسية والصور ، وهى ذات أجنحة واسعة وشرفات وحمام خاص وبئر ومزودة بالاصطبلات .

ولم يمتزج مماليك هذا العصر أيضاً بالسكان الأصليين ، بل عاشوا مترفين فى معزل عنهم . وغالى المماليك فى أواخر العصر العثمانى فى ابتزاز الأموال من الأهالى ، وانغمسوا فى الترف فى مساكنهم وملبسهم ومعيشتهم على غير عادتهم الأولى المبنية على الخشونة والبساطة .

---

(١) R. Clement. op. cit . p. 27

الفصل الرابع

أجهزة الحكم

كانت الحكومة المركزية فى الأستانة هي السلطة التنفيذية فى الدولة ، ويرأسها السلطان العثماني ، يعاونه الصدر الأعظم بمثابة رئيس الوزراء الذى يعاونه مجموعة من الوزراء من ذوى الرتب العالية . وكان والى مصر بمثابة وزير السلطنة العثمانية للشئون المصرية .

الباشا (١) او الوالى :

ويعين من قبل السلطان العثماني وهو رأس الإدارة المدنية والمالية للبلاد . وهو يأتى من تركيا حيث يكون قد سبق له ممارسة بعض السلطات هناك ، وأحيانا قد يكون وزيرا فى السلطنة ، وعادة ما يكون تعيينه لمدة قصيرة سنة أو سنتين وذلك مرهون برغبة السلطان . . وعمله الأساسى نقل أوامر السلطان والعمل على تنفيذها . ومن حقه اختيار البيكوات حكام الاقاليم ، وعليه فى كل عام إرسال الخراج إلى السلطان ، وتنظيم المحمل السنوى المسافر إلى مكة المكرمة ، وإرسال المئونة إلى الأراضى المقدسة . ومركز إقامته الرئيسى فى القلعة ، ويتولى رئاسة الاحتفالات الكبرى مثل صلاة العيدين وخروج المحمل واحتفال كسر الخليج(٢). وكان الوالى يمثل السلطان وينوب عنه فى جميع المناسبات الرسمية .

---

(١) قد يكون لفظ باشا مأخوذ عن الفارسية بادشاه وهى كلمة من مقطعين باد بمعنى عرش وشاه بمعنى صاحب أو سيد اى تعنى صاحب العرش أو الملك .

وقد يكون تحريف لكلمة بشة فى التركية القديمة بمعنى الاخ الاكبر وكان هذا اللقب فى الدولة العثمانية لقبا رسميا للوزراء والأمراء وكبار العسكريين ، ولما كان الوالى هو نائب السلطان فهو بمثابة وزير السلطنة للشئون المصرية فاستحق هذا اللقب .

(٢) Dr. Nasser El Ansary - Le Protocole dans le Droit public égyptien - Thése pour le doctorat d'etat. Aix- en - provence.1985 - p . 372.

ولكن الوالى ليس له سلطان مباشر على الجيش الذى يتشكل من الوجاقات الستة من فصائل الجيش التركي المرابط في القاهرة.كذلك فإن الوالى لايتخذ القرارات الهامة إلا بموافقة الديوان .

أما عن لقب حاكم مصر فهو « الوالى » وهو ما كان ساريا في الدولة العثمانية قبل فتحها لمصر ، حيث كان الولاة يحملون لقب « بيلرجى » ويبدو أنها الترجمة التركية للفظ العربي « أمير الأمراء » وعن الفارسية بنفس المعنى « ميرميران » ومع بداية القرن الخامس عشر أصبح يضاف إلى لقب « بيلرجى » لقب آخر هو « الوالى » ومع الوقت حل هذا الأخير محل اللقب السابق [(١)] .ويلاحظ أن لقب الوالى كان يستعمل في مصر في فترة حكم المماليك ، ولكن بمفهوم مختلف ، حيث كان يعنى مسئول الشرطة [(٢)] .

أما لقب الباشا ، فكان يمنح للرسميين العثمانيين من ذوى الرتب العالية . وكان أول من من اتخذ لقب باشا في مصر هو ثاني الولاة العثمانيين ، مصطفى باشا ، وهو زوج أخت السلطان سليمان القانوني ، ومنذ ذلك الحين تبنى الشعب المصرى لقب الباشا مرادفا لحاكم مصر .

الديــوان :

أوجد السلطان سليم بعد فتحه لمصر ديوانًا ليمارس الوالى من خلاله اختصاصاته ، وفي ذات الوقت يشكل نوعا من الرقابة عليه . وأدخل السلطان سليمان القانوني تقسيما على الديوان إلى قسمين : الديوان الكبير المكلف بالأعمال الهامة ، وكان يتلقى الأوامر من الباب العالى ، وكان مشكلا من ضباط الوجاقات وأمير الحج وقضاة المذاهب الأربعة .. أما الديوان الصغير فهو مكلف بالأعمال المحلية ، وكان مشكلا من الكتخدا أو وكيل الوالى والدفتردار والروزنامجى وممثل عن كل وجاق .

وكان من حق الديوان الكبير إيقاف أوامر الباشا والرجوع إلى ديوان الدولة العثمانية.. وكان يرأس جلساته الكتخدا (وكيل الباشا) ولم يكن من حق الباشا حضور جلساته إلا من وراء ستار [(٣)] .

---

(١) S . Shaw . op. cit . p. 74 .-

وراجع ايضا حسن الباشا ـ الألقاب الإسلامية ـ ١٩٧٨.

(٢) د . ناصر الأنصارى ـ تاريخ أنظمة الشرطة في مصر ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ ـ ص ٧٤

(٣) - S .Shaw . op. cit. p. 71

- R . Clement. op . cit p. 8.

الجيش :

شكل السلطان سليم بعد فتحه لمصر ستة وجاقات أو فرق عسكرية من الجند الاتراك الإنكشارية ، تكون مهمتها الأساسية حماية البلاد ضد الاعتداءات الخارجية وأعمال الشرطة وجباية الضرائب .. وكانت أربعة فرق منها من الفرسان وفرقتان من المشاة ، وكان عدد رجالها يتراوح ما بين اثنى عشر ألفا وعشرين ألفا . وفى عهد السلطان سليمان أضاف وجاقا سابعا مشكل أساسا من المماليك الجراكسة . وكان لهذه الوجاقات قائد عام . ولكل وجاق ضباط هم الاغا والكخيا (الوكيل) ، وضباط صف ، ومع الوقت أصبح « وجاق المستحفظان » هو أهم الوجاقات السبعة ، وأصبح اغا المستحفظان هو قائد الوجاقات السبعة [1] .

الإدارة المحليـــة :

إلى جانب الوالى وديوانه والجيش وُجد عدد من البيكوات يعينهم الباشا لإدارة الاقاليم، وكانت مصر مقسمة فى أول الأمر إلى اثنى عشر إقليما ، ثم ما لبث أن تضاعف عددها إلى أربعة وعشرين ، وكان هؤلاء البيكوات يعينون فى أول الأمر من العثمانيين ، ثم أصبحوا يختارون من المماليك ، وقد تمكن المماليك بتوليهم هذه الوظائف الهامة من السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد ، خارج القاهرة أولا ، ثم بازدياد نفوذ شيخ البلد ، وهو حاكم القاهرة ، من بسط نفوذهم على البلاد كلها كما رأينا .

وكانت الولايات أو المقاطعات الكبرى تعرف باسم « السنجقيات » ويتولى إدارة كل منها سنجق من طبقة البيكوات من المماليك ، وكانت أهم هذه السنجقيات · الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وجرجا .. وكان تعيين السناجق من اختصاص الباشا أو الوالى كما شرحنا ، وكان يستغل هذا الامتياز باكتساب مؤيدين له عند تعيينه فى حكم مصر[2] .

ويختص السنجق فى إقليمه بتقوية الترع والمصارف للاهتمام بشئون الزراعة التى هى المورد الرئيسي لثروة الإقليم . وعليه الاهتمام بالأمن وحفظ النظام وإقامة العدالة

---

(١) - S. Shaw . op . cit. p.l
- R. Clement. op. cit. p. 8.

د . عراقى يوسف محمد ـ المرجع السابق . ص ٨٥ وما بعدها

(٢) د . عراقى يوسف محمد ـ المرجع السابق . ص ٢٥٩ .

وإبطال المظالم ووضع تسعيرة للسلع ومراقبتها وضبط الموازين ومنع الغش فيها [1] .

وإلى جانب المقاطعات الكبرى وجدت أخرى أصغر من السنجقية ، يطلق عليها «كشوفيات » ، يقوم على إدارتها كشاف يتبع للسنجق ، نذكر منها على سبيل المثال في الوجه البحري : البليبسية والمحلة ومنوف ودمنهور والقليوبية ، وفي الوجه القبلي الجيزة والفيوم والأطفيحية والواحات والمنفلوطية والأسيوطية وإبريم وفرشوط وبهجورة وحوف وقنا والأقصر وأرمنت وإسنا وأسوان [2] .

المناصب الرئيسية :

استعرضنا الأجهزة الرئيسية الثلاثة في مصر العثمانية ، وهي الوالي والديوان والجيش ، وعرضنا اختصاصات كل منها ، ونعرض فيما يلي لكبار العاملين في الدولة وكيفية ممارستهم لعملهم ، وهم نائب الوالي أو الكتخدا ، وحامل الأختام أو المهردار ، ومتولي خزانة الوالي أي الخازندار أو الترجمان ، ورئيس الديوان ، ورئيس سكرتارية الديوان أو ديوان أفندي ، والبيكوات أو السناجق ، وأمير الحج ، والقبودان ، وحكام الأقاليم .

نائب الوالي (الكَتْخُدا) :

وكان غالباً ما يتسم بصلة قرابة إلى الوالي . ومن واجباته الأساسية إدارة العاملين في بيت الوالي وهو دار الحكم ، والتأكد من تحصيل دخل الوالي كاملا في موعده المقرر ، وعند انتهاء مدة الوالي كان يتخلف بعده عدة أشهر لتحصيل ديونه

ويلاحظ أن لقب كتخدا لم يكن قاصرا على نائب أو وكيل الوالي ، ولكنه كان يستعمل أيضا لوكلاء الأغاوات في الوجاقات . لذلك كان يطلق عليه تمييزا له عن غيره كتخدا الوالي[3] .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٦١ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٦٢ .

(١) - S . Shaw . op. cit . p. 75

حامل الاختام (المُهْـردار) :

وهو المسئول عن حفظ الاختام الشخصية للوالى ، وكذلك الاختام الرسمية للدولة العثمانية فى مصر ، وهو المنوط ببصم المستندات بها ، وهو من العاملين اللصيقين بالوالى ومرتبط به فى كل تحركاته . وفى القرن الثامن عشر أصبح المهردار هو كاتم السر ومسئول حفظ السجلات والمراسلات الخاصة [1] .

متولى الخـزانة (الخـازندار) :

وكان أيضا من العاملين اللصيقين بالوالى ، وواجبه الرئيسي تولى الخزانة الخاصة بالوالى ، فيتلقى الوارد من الكتخدا ، ثم يقوم بالإنفاق منها حسب المتطلبات ، وعليه أيضا إدارة المبانى الخاصة بالوالى والإشراف على عمالها من النواحى المالية .

الترجمـــان :

كان الوالى غالبا ما يتحدث اللغة التركية ومعلوماته فى اللغة العربية قليلة وأحيانا منعدمة . كذلك كان كبار الرسميين العثمانيين والقضاة فى أول الأمر يختارون من بين الطبقات الإدارية والدينية فى العاصمة العثمانية ، ونادرا ما كانوا يلمون باللغة العربية قبل حضورهم إلى مصر .

كذلك كان حال بعض المماليك المتأخرين ، الذين تولوا الوظائف الهامة فى مصر منذ القرن الثامن عشر ، حيث كان أغلبهم من أصول غير عربية ، ولم يبذلوا جهدا لتعلم لغة أهل البلاد . وأدى ذلك إلى الحاجة إلى وجود مترجم فى أغلب دواوين الحكومة ، ففى كل مكتب وفى كل محكمة وفى كل مجلس نجد المترجم الرسمى (الترجمان) . وتزداد أهمية ترجمان الوالى لأنه يعين من قبل المماليك حتى يصبح عينا لهم على الوالى [2] .

أما الترجمان العربى لمجلس القاهرة فكان يعين من قادة المماليك ، وكان يظل لصيقا بالوالى ، ويدون كل ما يدور فى المجلس ، ويرسل لشيخ البلد كل ما دار فى المجلس ، لأن هذا الأخير كان نادرا ما يحضر المجلس . كما كان هذا الترجمان غالبا مايقوم بالأعمال ذات الصفة المراسمية ، لأنه يرافق الوالى فى كل مكان ، وعلى علم بدقائق الأمور ، فكان يعد أحيانا بمثابة « تشريفاتى » للوالى [3] .

---

(١) المرجع السابق .

(١) - S . Shaw. op. cit- p. 76

(٢) - DR. N El Ansary . op cit. p. 392

شيـخ البلـد :

وهى أهم وظائف المماليك وكان يعد الحاكم الحقيقى للقاهرة ، وفى القرن الثامن عشر أصبحت أهميته أعظم من ذى قبل ، حتى كاد يصبح الحاكم الحقيقى للبلاد مع الدور المسموح الذى كان يلعبه الولاة العثمانيون ، حتى فكر شيخ البلد أحيانا فى الاستقلال بحكم البلاد ، كما رأينا فى عهد مراد بك وعلى بك . وكان المماليك يختارون شيخ البلد من بين أنفسهم بحسب قوته وسعة ثروته .

كما كان شيخ البلد يقوم بدوره باختيار المماليك الآخرين لشغل الوظائف الأخرى الأقل شأنا منه .

رئيس الديـوان :

وكان يعين من قبل شيخ البلد ليخدم الديوان بتنفيذ قراراته ، وكان عليه تبليغ أوامر الديوان إلى الجهات المنوط بها تنفيذها ، ويتأكد من ذلك . وفى القرن الثامن عشر أصبح رئيس الديوان ممثلا لشيخ البلد فى الديوان ، بينما أصبح الترجمان ممثلا لكبار المماليك[1].

رئيس سكرتارية الديوان (ديوان افندى) :

وهى من الوظائف اللصيقة بالوالى أيضا ، وغالبا ماكان يحضره معه عند تعيينه ، وكان يدفع له مرتبه من خزانته الخاصة وليس من خزانة الدولة ، وعمله الأساسى هو تولى الخزانة الخاصة للوالى . كما كان مسئولا عن الإشراف على كتاب الديوان من حيث تعيينهم وتدريبهم وسلوكهم والتأكد من قيامهم بواجباتهم بطريقة مرضية . وكان يحتفظ بملخصات أو بموجز عما يدور فى جلسات الديوان ، وسجل الأوامر الواردة من الباب العالى ، والأوامر الصادرة عن الديوان [2].

البيكوات (السناجق) :

الرتبة العثمانية سنجق بيك أو بيك كانت تمنح للقادة فى النظام الإقطاعى فى المجتمع العثمانى ، وهى رتبة تعطى لحاملها امتيازات أدبية . ورغم أن النظام الإقطاعى العثمانى

---

(١) S. Shaw, op. cit - p 77 -

(٢) المرجع السابق .

لم ينتقل إلى مصر إلا أن اللقب اقتبس واستعمل للأشخاص المعينين فى وظائف الرؤساء الإداريين فى البلاد . وكانت هذه الوظائف تشغل فى أول الأمر من العثمانيين القادمين من الأستانة ، ولكن منذ منتصف القرن السابع عشر وطوال القرن الثامن عشر أصبحت هذه الوظائف تشغل من بين المماليك . وكان البيكوات طبقتين أو فئتين ، الأعلى منهما لوظائف الدفتر دار وأمير الحج وحكام الاقاليم والقبودان . أما الطبقة الأدنى فهى لوظائف الكشافين .

أمير الحج :

مع نهاية القرن الثامن عشر أصبحت وظيفة أمير الحج ثانى أهم الوظائف التى يتولاها أمراء المماليك بعد شيخ البلد ، وكانت تمنح عادة لكبير مساعدين شيخ البلد .

القبودان (قبطان الموانى المصرية) :

وقد وجد قبودان لكل من الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان عليه بناء وصيانة وتموين الأساطيل ، وكان من حقه تنظيم التجارة الخارجية ، وأخذ الضرائب عليها ، وكذلك تحصيل رسوم الملاحقة فى الموانى [١].

الحـاكـم :

كانت الاقاليم الغنية خارج القاهرة مثل الغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة توكل إدارتها وشئونها المالية إلى أحد البيكوات المماليك ويطلق عليه الحاكم ، أما الأقاليم الاقل شأنا فكانت توكل إلى بكوات أقل شأنا من الكشافين . وكان عمل الحكام الأساسى جباية الضرائب من الفلاحين وارسالها إلى الوالى فى القاهرة ، وكان من حقهم فرض ضرائب يحصلونها لانفسهم والصرف منها على مختلف الأوجه فى إقليمهم . وكان منوطا بهم أيضا حفظ الأمن والنظام فى مناطق نفوذهم [٢] .

ثـروات البـلاد :

ظلت مصر فى أوائل العصر العثمانى على وضعها السابق من حيث إنها مخزن غلال

---

(١) - S . Shaw . op. cit . p. 81.

(٢) المرجع السابق

الإمبراطورية العثمانية ، كما كانت في تاريخها السابق ، والذى جعلها محط أطماع الفاتحين على مدى التاريخ من الفرس ثم الإغريق على يد الإسكندر ثم الرومان ..

فمصر بلاد خصبة ، وكانت أراضيها تزرع بواسطة فلاحيها بالزراعات الاساسية ، من القمح والاذرة والكتان والارز وقصب السكر ، كما كانت تربية الماشية وبيع جلودها تمثل صادرات أساسية لمصر . وكان استخراج الزمرد من الصعيد والنطرون من الوجه البحرى يمثلان أيضا جانبا هاما من ثروة البلاد . أما الصناعات فكان أهمها نسيج الكتان والحرير وتكرير السكر . وحتى نهاية القرن الخامس عشر كانت تجارة البهارات القادمة من آسيا إلى أوربا مصدرا من مصادر الدخل للبلاد ، إلا أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، بالإضافة إلى افتقاد عنصر الأمن في البلاد ، نظرا للاضطرابات الداخلية منذ منتصف القرن السابع عشر ، أدى إلى فقدان البلاد جزءا كبيرا من هذه التجارة .

وكانت مصر مزرعة لجباية الضرائب لصالح الوالى الذى يدفع منها الخراج والجزية للسلطان العثماني . بل بالإضافة إلى ذلك كان الوالى مطالبا بإرسال مبالغ أخرى من النقود كل عام تسمى « الارسالية » التى كانت تتضمن أيضا الكثير من المؤن ، مثل الارز والعدس ومواد تموينية أخرى لاستهلاك الجزء الشرقى من الإمبراطورية(١).

وكان لثروة مصر دور كبير في حفظ مظهر القوة في الدولة العثمانية كلها لمدة طويلة والحفاظ عليها من الانهيار .

وكانت القاهرة إلى جانب أنها العاصمة إلا أنها كانت ميناء تجاريًا هاما عن طريق ميناء بولاق النهرى . أما الإسكندرية فكانت الميناء الرئيسى لتجارة البهارات مع الغرب ، وقد تضاءلت أهميتها في نهاية القرن السابع عشر والثامن عشر بعد تحول هذه التجارة إلى البرتغال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وكان ميناء رشيد ذا أهمية خاصة، لأنه الميناء الذى تمر منه السفن إلى النيل ، وتمتعت دمياط بمركز هام لأنها كانت ميناء تصدير الارز إلى أوربا والدولة العثمانية (٢).

ورغم أن مصر كانت تعتبر من الناحية الرسمية ولاية عثمانية إلا أن علاقاتها الخارجية كانت ذات طابع شبه مستقل في تجارتها مع أوربا ، وفي تجهيز المحمل لبلاد الحجاز ، وفي تبادلها التجارى مع الهند وأفريقيا عن طريق القوافل .

وتنتهى فترة الحكم العثماني للبلاد بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر نتيجة

---

(١) - R. Clement . op cit. p. 27

(٢) - R . Clement. op. p. 27

للاضطراب والانهيار والتقهقر الذى حاق بالبلاد بسبب ضعف الحكومة المركزية فى الدولة العثمانية ، وضعف ولاتها ، وانشغالهم بجمع الأموال ، والدفاع عن أنفسهم فى مواجهة المماليك الذين كانوا أيضا يعملون لمصلحتهم الخاصة ، وأهملوا أهم جانب كان يميزهم فى الفترات السابقة ، وهى القوة العسكرية ، فتجمعت أسباب الانهيار السياسى والتراجع فى الاهمية التجارية وبالتالى التخلف الاقتصادى ، علاوة على افتقاد عنصر القوة العسكرية مما جعلها محطا لأطماع نابليون بونابرت .

الفصل الخامس

حملة نابليون بونابرت

رغم القصر النسبي للمدة التي قضتها الحملة الفرنسية في مصر ، والتي بلغت ثلاثة أعوام وشهرين ، فقد كان لها آثار كثيرة وهامة في مجالات مختلفة ، فهي تعد نقطة تحول هامة في التاريخ المصري الطويل .

فقد تحولت مصر في نهاية العصر العثماني إلى دولة ضعيفة بعد قوة ومنعة ، دولة فقيرة دخلها منهوب بعد ثراء وغنى ، دولة متخلفة بعد أن كانت سيدة المنطقة . وكان حكم البكوات المماليك في نهاية هذا العصر هو عهد تأخر وجهالة .

انتهز الفرنسيون هذه الحالة من الضعف والتردي ، التي كانت تسود مصر ، مع ضعف السلطان العثماني ، وانصراف البكوات المماليك إلى الخلافات فيما بينهم ، واستغلال البلاد ماديا إلى أقصى حد لتحقيق منافع خاصة لهم ...

واختارت فرنسا أرض مصر لتكون نقطة لصالحها في نطاق الخلاف التقليدي على سيادة العالم بينها وبين انجلترا .

وكان نابليون بونابرت [١] هو القائد المرشح للقضاء على انجلترا لصالح فرنسا . وكان اختيار نابليون لمصر لانها في الطريق الواصل بين انجلترا والهند أكثر مستعمراتها وأغناها . وأسهب بونابرت في عرض وجهة نظره لإقناع الحكومةالفرنسية بأنه يمكنه فتح مصر وإنشاء مستعمرة فيها في بضعة أشهر ، تكون قاعدة هامة للفرنسيين بسبب موقعها الجغرافي ، الذي يمثل مركزا للاتصال بين الشرق والغرب، وملتقى التجارة التي

---

(١) نابليون بونابرت من أعظم القادة العسكريين في القرون الحديثة ـ ولد ١٧٦٩ في أجاكسيو ، عاصمة جزيرة كورسيكا . تولى قيادة الجيش الفرنسي في حربه مع إيطاليا وانتصر فيها (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧) ثم زحف على مصر والشام ، ثم عاد إلى فرنسا وقبض على زمام الامور وأصبح قنصلا أول من بين ثلاث قناصل تضمهم الحكومة ، ثم توج امبراطور سنة ١٨٠٤ . قضى أيام ملكه في حروب مستمرة مع انجلترا والنمسا وبروسيا وأسبانيا وروسيا ، وتحالفت عليه أوربا اكثر من مرة فأحرز عليها انتصارات كثيرة باهرة وبعد موقعة واترلو الشهيرة أسر ونفي إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفي في مايو ١٨٢١ .

تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وأنه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الاحمر بالبحر المتوسط يمكن للسفن الفرنسية أن تصل إلى البحر الأحمر وتهاجم أملاك الانجليز في الهند ، وتستطيع فرنسا أن تجعل من مصر مستودعا للمتاجر العالم ، فتعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات ، وتكون في ذات الوقت قاعدة لضرب انجلترا في الهند ، وبسط سيادة فرنسا في البحر المتوسط ، وعرض نابليون حججا أخرى تتمثل في انها أخصب بلاد العالم ، وأنها كانت مخازن الغلال في العالم القديم ، وأنه في الإمكان ترقية زراعتها ، وإعادة منزلتها القديمة إذا وجدت بها حكومة حديثة وإدارة صالحة [١] . . وتم تكليف نابليون بالمهمة وأخذ يعد لها في سرية تامة .

أخذ نابليون يعد لحملته من ابريل ١٧٩٨ إلى أن أبحر في الشهر التالي وقد أطلق على جيشه هذا « جيش الشرق » ومن الاطلاع على تكوين هذه الحملة يمكن استنتاج أن ما كان يهدف إليه بونابرت لم يكن هدفا عسكريا فقط . فقد تألفت الحملة من ٣٦٤٥٥ من الضباط والجنود من الأسلحة المختلفة ، وضباط الأركان العامة ومن المدفعية والفرنسان والمشاة والمهندسين والخدمات الطبية ، بالإضافة إلى الجنود والخيول والمعدات الحربية ، والمدافع الثقيلة ومدافع الهاون من مختلف الأعيرة ومدافع للحصار . وهؤلاء يقلهم أسطول مكون من ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مكون من خمس وخمسين سفينة حربية ، منها ثلاث عشرة بارجة كبيرة ، وخمس فرقاطات مسلحة بأسلحة مختلفة بين الثقيلة والخفيفة [٢].

اصطحب نابليون معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في مختلف نواحي المعرفة ، في الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن والجيولوجيا والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيكا ، علاوة على طائفة من المصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين ، وجميعهم مزودون بآلاتهم ومعداتهم بل ومعاملهم .

---

(١) Roger Michalon et J. Vernet,
Adoptation d'une armé Francaise de la fin du 18 siécle. Egypte (1798 - 1801) dans Revue Interotional d'histoir millitaire . No 49 paris 1980 - p. 67

ـ عبد الرحمن الرافعي ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ـ جـ ١ ط ٥ القاهرة ١٩٨١ ، ص ٨١ .

ـ أمين سعيد ـ تاريخ مصر السياسي من الحملة الفرنسية إلى انهيار الملكية القاهرة ١٩٥٦ . ص ١٥

(٢) عبد الرحمن الرافعي ـ المرجع السابق .

ويمكن الرجوع لمزيد من التفاصيل العسكرية إلى Michalon et Vernet. op. cit - p. 139.

وصلت الحملة عرض البحر أمام الإسكندرية فى أول يوليو ١٧٩٨ وشرعت فى إنزال قواتها غرب الإسكندرية قرب العجمى فى ليلة الثانى من يوليو ، واحتلوا الإسكندرية بعد مقاومة خفيفة ، واتجهوا صوب القاهرة ، التى ما إن علم المماليك فيها بأنباء الحملة حتى جهزوا جيشين لقتال الفرنسيين ، قاد الأول مراد بك والتقى بهم عند شبراخيت ، فأنزلوا به خسائر فادحة ، فانسحب وانضم إلى الجيش الثانى بقيادة إبراهيم بك ، واستانفا معا الاستعداد لصد القوات الفرنسية (١) . وفى ٢١ يوليو وقعت بين الفريقين موقعة كبيرة قرب إمبابة ، ولكن عدم التكافؤ فى العدد والعتاد المتخلف للمماليك جعل مراد بك يفر هاربا إلى الصعيد وإبراهيم بك إلى سوريا ، ودخل نابليون بجيشه إلى القاهرة فى الرابع والعشرين من يوليو ، واستقر فى منزل المملوك محمد بك الالفى فى الأزبكية (٢).

ما إن استقر نابليون بونابرت فى مصر حتى شرع فى إرساء نظم جديدة للحكم لتحل محل النظم العثمانية والمملوكية ، كما أرسل علماءه يجوبون مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من أقصاها إلى أقصاها ، يبحثون ويؤلفون ويكتبون ويدونون ويرسمون كل ما تقع عليه أعينهم ، ليخرجوا لنا فيما بعد بكتابهم الشهير Description d'Egypte أو وصف مصر ، وهو يعد تقريرا للواقع المصرى من شتى النواحى وقت الحملة .

وحرص نابليون غداة استقراره فى القاهرة على التودد إلى المصريين بالتأثير على ذوى الرأى فيهم من علماء ومشايخ وأشراف ، حتى كاد ينتحل الإسلام دينا له ، بغية التقرب واكتساب محبة الشعب (٣) . وقد استاء الأهالى فى أول الأمر لقيام نابليون بجباية الضرائب والاستدانة من التجار للاستعانة بها على الإنفاق على الجيش ، ولكنهم سروا من جهة أخرى إذ رأوه يعاملهم بالحسنى ، ويحترم عقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم ، ويصون حقوقهم وأموالهم ، ويضرب النقود باسم السلطان ! ويتتبع اللصوص ويشدد فى حفظ الامن والنظام (٤).

ولكن رضا الأهالى عن حكم الحملة الفرنسية فى القاهرة لم يستمر طويلا فقاموا بثورتهم الأولى فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ وكان الرد هو ضرب القاهرة بالقنابل وتخريب

---

(١) أمين سعيد ـ المرجع السابق ، ص ١٤

(٢) Jean - Edwrd Goby - Principaux Témoins utiles de 1. édxpedition D' Egypte. Dans: Revue Institution Napoléon. Paris no 135, p. 69.

(٣) Michalon et Vernet - op. cit- p 129

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

بعض القصور والبيوت وإعدام قادة الثورة [١].

ولما استتب الأمر لنابليون في القاهرة عاد يفكر في استمرار فتوحاته ، فاتجه نحو سوريا ولكنه وقف أمام عكا وتفشى الطاعون في جيشه ، فعاد إلى القاهرة بعد أن فقد أربعة آلاف من جيشه أي حوالي ثلثه .

ولم يجد نابليون بدا من التراجع عن أفكاره التوسعية ، واقتنع أن تحقيق آماله في مصر والشرق أصبح بعيد المنال فغادر مصر سرا في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ تاركا القيادة في مصر للجنرال كليبر [٢].

عم السلب والنهب والقتل أنحاء القاهرة لما ظهر من بطش الفرنسيين ، وتجلت المقاومة الشعبية بقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠ ، فتولى القيادة بعده الجنرال مينو ولكنه كان ضعيفا فنفر منه الفرنسيون والمصريون معا [٣].

وفي سنة ١٨٠١ تحالف الأسطول البريطاني مع الأسطول العثماني للقضاء على الوجود الفرنسي ، فاضطر الجيش الفرنسي للتسليم والانسحاب في ١٥ أكتوبر ١٨٠١، وعادت مصر للتبعية العثمانية ، ولكنها تبعية شكلية ، فالأحداث التي مرت بها البلاد جعلت الشعب يدرك أن حكامه ، من العثمانيين أو المماليك على السواء ، غير قادرين على الدفاع عنه ، كما أدرك القوة الكامنة داخله والتي مكنته من مقاومة الحملة في أنحاء البلاد ، فمرت السنوات الأربع الباقية على تولية محمد على الحكم في صراع بين القوى المختلفة إلى أن رجّح الشعب كفة محمد على سنة ١٨٠٥.

تنظيم أداة الحـــكم :

نتج عن الحملة الفرنسية هدم النظام الإداري القائم من جانب الباب العالي منذ الفتح العثماني سنة ١٥١٧ مع تعديلاته والذي استغله المماليك لصالحهم . ووضع الفرنسيون إطارا حديثا للنظم الإدارية والمالية .

فمن الناحية الإدارية كان في مصر ثلاث عشرة مقاطعة ، أبقى عليها نابليون ، إلا أنه أبدل قيادتها بضباط فرنسيين طبقا لمرسوم يوم ٢٧ يوليو ١٧٩٨، ومع كل جنرال فرنسي ديوان مكون من سبعة أعضاء وطنيين بمثابة جهاز استشاري وتنفيذي له . كما

(١) هند إسكندر عمون . المرجع السابق . ص ٢٦٦

(٢) Michalom et Vernet . cit . p. 140

(٣) هند إسكندر عمون ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٠ .

أبقى على أغا المستحفظان المسئول عن حفظ الأمن والنظام فى كل مقاطعة . وأوجد موظفا من أقباط مصر يكون مسئولا عن تحصيل الضرائب تحت رقابة موظف فرنسي آخر .

أما النواحى المالية ، فقد اهتم نابليون بحصر ثروات المماليك علاوة على حصر الحيازات والأملاك فى القرى ، وأصدر أمرا فى ١٦ أكتوبر ١٧٩٨ بالاحتفاظ بالضرائب العقارية التى كانت سائدة قبل الحملة الفرنسية ، وبإعداد سجل لكل مقاطعة باللغتين العربية والفرنسية تدون فيه الحيازات العقارية وما يتم تحصيله كل يوم وأضاف نابليون ضرائب أخرى ، مثل رسم تسجيل الملكية ، ورسم البيع ، ورسوم على التجارة ، بالإضافة إلى ضرائب غير عادية إضافية عندما تخلو الخزانة (١).

الديـــوان :

فى اليوم التالى لوصوله إلى القاهرة أصدر نابليون مرسوما مؤرخا ٢٥ يوليو ١٧٩٨ بإنشاء الديوان مكونا من تسعة من المشايخ هم . ـ السادات وعبد الله الشرقاوى وخليل البكرى ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى وموسى السرسى وأحمد العريشى ومحمد الأمير والسيد عمر نقيب الأشراف . على أن ينتخبوا من بينهم رئيسا وأن يختاروا سكرتيرا من غير الأعضاء ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية . وقد اختاروا الشيخ الشرقاوى رئيسا والشيخ محمد المهدى سكرتيرا .

ويجتمع هذا الديوان ظهر كل يوم ويختص بحكم القاهرة ، وفى سبيل ذلك له حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة أعمال الأمن ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ، ولجنة من ثلاثة آخرين يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها(٢).

بينما احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان .

وتطورت الأمور بعض الشيء ، فبعد مرور شهرين وفى الرابع من سبتمبر ١٧٩٨أصدر بونابرت مرسوما بإنشاء ديوان عام من ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم يكون أشبه بمجلس للنواب ، تمثل فيه كل مقاطعة أو إقليم من الأقاليم الثلاثة عشر بتسعة من ذوى النفوذ يمثلون الأهالى بينما يمثل القاهرة ٢٧ نائبا ، وكل من

---

(١) - G . Hanotaux - Histoire de la nation égyptieune - T.VI - p 340

(٢) - G. Hanotaux . op. cit . p. 342

ـ عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ٩٨ .

الشرقية ومنوف ١٨ نائبا ، فيكون العدد الإجمالي مائة وثمانين نائبا ، وانتخبت أيضا هذه الجمعية الشيخ الشرقاوي رئيسا لها ، وانعقدت في الأزبكية في المدة من ٥ إلى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ (١).

ولم تكن لهذا المجلس العام أو الديوان العام سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه ، فقرارات هذا الديوان كانت أشبه برغبات تعرض على لجنة ألفها نابليون برئاسته وعضوية بعض كبار ضباطه(٢).

المجمــع العــلمي :

لاشك أن أهم آثار الحملة الفرنسية هو أنها جعلت مصر تفيق من ثبات عميق رزحت تحته إبان الحكم العثماني ، فقد سبق أن رأينا أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وتحت حكم الأسرتين المملوكيتين كيف كانت مصر بجيشها القوي هي الدرع الواقي للأمة العربية والإسلامية كلها ، كما كانت بثرواتها وتفوقها الصناعي والزراعي والتجاري لها زيادة المنطقة بأسرها . ولعل الحملة الفرنسية قد ساهمت في إعادة الوعي وفي العمل على ملاحقة التطور السريع في العالم من حولها .

المجمع العسلمي :

ومن بين ما اهتمت به الحملة إنشاء مجمع علمي ، الذي كان نواة للجنة العلمية والأدبية التي اصطحبها نابليون معه من فرنسا ،وكانت تضم مائة وسبعة وتسعين من العلماء والأدباء والمهندسين والفنانين ، ومن بعض تفاصيل هذا الرقم نجد ٢١ عالما في الرياضة ، و ٤ علماء في الفلك ، و ١٥ من علماء الطبيعة ، و ١٧ مهندسا مدنيا و٢ من الموسيقيين و ٢ من الرسامين . اصطحبوا معهم ٥٠٠ مؤلف ومجموعة كاملة من الأدوات العلمية ، ومطبعة عربية ، وأخرى فرنسية ، وثالثة يونانية ، حتى إنهم تمكنوا من استصدار جريدة تضم الأخبار العامة باسم كوريبه دي ايجبت Courier D'Egypte

---

(٢) G. Hanotaux . op. cit

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ـ المرجع السابق . ١٠٩

وجريدة أخرى متخصصة فى العلوم والثقافة باسم ديكاد اجيسيان La Decade Egyp-tienne وفى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أصدر نابليون مرسوما بإنشاء المجمع العلمى المصرى[١] وقسمه إلى أربعة اقسام الأول للرياضيات ، والثانى للطبيعة والثالث للاقتصاد السياسى ، والرابع للآداب والفنون ، وهو على غرار المجمع العلمى الفرنسى .

وكانت مهمته الرئيسية الدراسات والبحوث العلمية ونشر الوقائع الطبيعية والصناعية والتاريخية المتعلقة بمصر .

وقد اتجه علماء المجمع إلى دراسات مختلفة ، وجميع هذه الدراسات تم طبعها فى مؤلف كامل عن « وصف مصر » بدأ طبعه سنة ١٨٠٩ فى فرنسا .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ص ١١٧ .

الباب الثاني عشر

أسرة محمد علي

جلت الحملة الفرنسية عن مصر بعد بدايتها بثلاثة أعوام وشهرين . وتنازع السلطة في مصر آنذاك ثلاثة قوى مختلفة المصالح ، كانت قد اتحدت في وقت ما على محاربة الفرنسيين وردهم ، ولما تم لهم ما أرادوا من القضاء على الفرنسيين ، بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة في وادي النيل .

القوة الأولى هي تركيا أو الدولة السنية أو الإمبراطورية العثمانية ، وكانت حجتها أنها فتحت مصر من قبل بحد السيف وبذلك فمصر لازالت إحدى الولايات العثمانية منذ الفتح العثماني .

أما القوة الثانية فكانت انجلترا ، التي بدأت تظهر أطماعها في بسط نفوذها في وادي النيل باحتلال المواقع الهامة على شواطئ مصر في البحرين المتوسط والأحمر . لضمان السيادة البحرية في طريقها إلى مستعمراتها الهندية .

وكانت القوة الثالثة هي المماليك الذين كان لهم حكم مصر رسميا قبل الفتح العثماني لها ، أما بعد هذا الفتح فقد كان لهم مركز متميز ، وكانوا القوة المحركة الرئيسية في إدارة الحكم ، فكانت أطماعهم تتجه إلى العودة لحكم مصر رسميا كما كانوا من منتصف القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن السادس عشر [١] .

إلا أن هذه القوى الثلاث، في تنازعها على السلطة ، قد تجاهلت العامل القومي ولم تحسب حسابه ، لكن رجلا واحدا أدرك مدى تأثير هذا العامل لمن يستعين به ، ذلك الرجل هو محمد علي . .

نشأة محمد علي وقدومه إلى مصر :

ولد محمد علي بمدينة « قولة » من ثغور مقدونيا في سنة ١٧٦٩ [١] .وفي سن الشباب

---

(١) عبد الرحمن الرافعي _ تاريخ الحركة القومية في مصر _ جـ ٢ _ ط ٤ _ دار المعارف القاهرة ١٩٨١ _ ص ٢٥٨

(٢) في نفس هذه السنة ولد القائد الفرنسي نابليون بونابرت والقائد الانجليزي ولنجتون والكاتب والأديب الفرنسي شاتوبريان

انخرط فى سلك الجندية ، وتجلت شجاعته فى الميدان . ثم تزوج من مطلقة ذات ثروة واسعة ، وهى التى أنجبت له إبراهيم وطوسون وإسماعيل . عمل فى تجارة الدخان فربح منها . عاد محمد على إلى الحياة العسكرية عندما أغار نابليون على مصر وشرعت حكومة الباب العالى العثمانى فى تعبئة الجيوش لمحاربة الفرنسيين ، فوصل إلى مصر سنة ١٨٠١ كمعاون لرئيس كتيبة قولة المؤلفة من ثلاثمائة جندى . أظهر محمد على كفاءة فى الحرب ، فرقى حتى أصبح قائدا لإحدى الفرق بعد جلاء الفرنسيين ، وأصبح من الرجال المقربين لوالى مصر الجديد « خسرو باشا »[1].

وفى مايو ١٨٠٢ كانت القوات الفرنسية تتأهب لمغادرة مصر بعد توقيع « صلح اميان» Traité d'Amiens[2] ، بينما كانت قوة الفرقة الألبانية بقيادة محمد على فى ازدياد، وفى الوقت الذى كانت فيه القوتان الباقيتان فى الميدان تتنازعان السلطان ، وهما الأتراك والمماليك ، اتخذ محمد على موقفا مواليا للأتراك حينا وللمماليك حينا آخر ، منتظراً الفرصة السانحة للقضاء عليهما والفوز بالسلطة .

وكان محمد على لايدع فرصة دون إظهار تقربه إلى القوة الوطنية الشعبية .

وفى مايو ١٨٠٥ اتفقت جميع العناصر المثقفة وذات التأثير فى البلاد ، من المشايخ والعلماء والكتاب وغيرهم ، على ضرورة وضع حد لهذه الفوضى السائدة فى البلاد، فأعلنوا خلع « خسروباشا » من منصب « الوالى » وأقاموا « محمد على» فى مكانه ، ولم يجد الباب العالى بدًا من الرضوخ للقوى الشعبية ، فأرسل فرمانا بتولية محمد على حكم مصر فى يوليو ١٨٠٥ [3].

وهكذا وضع محمد على أسس الحكم لأسرة جديدة تشمل إلى جانبه أولاده وأحفاده ، وهى أسرة استمرت فى حكم مصر حوالى قرن ونصف من الزمان ، وندرس هذه الحقبة فى فصلين ، يتضمن الأول منهما سردا تاريخيا للأحداث . ويتضمن الفصل الثانى أهم المؤسسات والنظم القانونية والدستورية التى استحدثتها ، وتطورها خلال حكم هذه الأسرة .

---

(١) د . محمد سيف الله رشدى ـ توارث العرش فى مصر المعاصرة . رسالة دكتوراة بالفرنسية ـ باريس ـ ١٩٤٣ ـ ص ١٩/ ٢٠ .

ـ عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٩٠ .

(٢) د . محمد سيف الله رشدى ـ المرجع السابق ـ ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ـ ص ٢٩ .

الفصـل الأول

من محمد على إلى فـــــــاروق

حكم محمد على

بدأ محمد على حكمه وفى نيته القضاء التام على المماليك ، فحاربهم فى جهات مختلفة من جنوب مصر ، ثم قضى عليهم نهائيا فى مذبحة القلعة الشهيرة فى مارس ١٨١١ [١]. وبالقضاء على المماليك بدأت فى مصر فترة استقرار داخلى ، مما سمح لمحمد على أن يوجه طموحه إلى الخارج ، فأرسل جيشه إلى الحجاز لإخضاعها تنفيذا لأوامر الباب العالى ، ثم استولى على السودان وجزيرة كريت ثم على فلسطين والشام [٢]. وظلت سيادة مصر على تلك الأقطار بموافقة الباب العالى فى أول الأمر إلى أن شعر السلطان العثمانى والإنجليز بأن هذه السيطرة والسيادة المصرية تشكل تهديدا للإمبراطورية العثمانية وللمصالح الأوربية فتغير الوضع .

أما على الصعيد الداخلى ، فقد وضع محمد على خطة طموحة لتحديث مصر ، وجعلها تلحق بركب الحضارة والمدنية والتقدم الذى تخلفت عنه قرابة الثلاثة قرون ، هى فترة الحكم العثمانى لها . وتضمنت خطة محمد على وضع نظم جديدة ومتطورة للتعليم والزراعة والتجارة ، وبناء جيش قوى وحديث ، وأسطول يحسب حسابه فى المنطقة ، مما جعل الجيش المصرى هو درع سيف الدولة العثمانية تستنجد به وقت الحاجة .

ولكن الحال لم يدم كثيرا على ذلك ، فقد بدأت الدولة العثمانية تشعر أن هذا التفوق العسكرى مع طموحات محمد على لتحقيق انتصارات أخرى بات يهدد بقاءها . كما أن بعض الدول الأوربية رأت فى محمد على تهديدا لمصالحها فى المنطقة ، ولم يكن هناك بد من وضع حد لمحمد على . فاجتمع ممثلو هذه الدول ، وهى الدولة العثمانية وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا فى لندن فى يوليو سنة ١٨٤٠ ، وأبرموا معاهدة لندن التى وافق عليها الباب العالى ، وتنفيذا لبنودها أصدر ثلاثة فرمانات فى شهور فبراير وإبريل ويونية ١٨٤١ ، من أهم شروطها :

---

(١) راجع التفاصيل فى : عبد الرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ ط ٤ ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ ص ١٠٩ .

(٢) أحمد حسين ـ موسوعة تاريخ مصر ـ جـ ٣ ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ ص ٩٢١ .

منح محمد على رتبة نائب الملك على مصر [1] ، وأن مصر بحدودها القديمة وراثية فى أسرة محمد على للأكبر سنا من أولاده وأحفاده الذكور ، وأن تكون مصر جزءا من الدولة العثمانية ، تسرى فيها قوانين تلك الدولة والمعاهدات التى تبرمها ، وأن يجرى فيها كل شىء باسم السلطان ، وأن تدفع الجزية سنويا للسلطان . أما أهم هذه القيود من الوجهة العسكرية فهو الا يزيد جيش مصر على ثمانية عشر الف جندى فى زمن السلم ، وألا تبنى مصر سفنا حربية إلا بإذن الباب العالى [2] وإذا كان محمد على قد رفض هذه الشروط فى أول الأمر ثم عاد فقبلها تحت الضغط والتهديد ، فإنها قد حققت له الحكم الوراثى فى أسرته بضمان الدول الأوربية ، كما أصبح لمصر وضع سياسى تتمتع به باستقلال داخلى تحت مظلة السيادة العثمانية .

حكم إبراهيم وعباس وسعيد :

فى مارس ١٨٤٨ ونظرا لمرض محمد على [3] صدر فرمان بتعيين إبراهيم باشا ابن محمد على واليا على مصر ، ولكن مدة حكم إبراهيم لم تزد عن سبعة شهور ونصف فتوفى وهو لم يتجاوز الستين من عمره فى نوفمبر ١٨٤٨.

وحسب مبدأ وراثة العرش المنصوص عليه فى فرمانات سنة ١٨٤١ فقد تم تولية الأمير عباس الأول حفيد محمد على وابن أخ إبراهيم واليا على مصر لأنه أكبر الذكور من الأسرة.

وظل عباس فى الحكم قرابة الخمس سنوات إلى أن اغتيل فى يوليو ١٨٥٤ وخلفه فى حكم مصر عمه سعيد بن محمد على وتوفى سعيد فى يناير ١٨٦٣.

وخلال فترة حكم عباس وسعيد حدث تخلف كبير فى مختلف نواحى الحياة ، فهما لم يكونا بنفس عقلية وتفكير وطموح محمد على ، بل انصرافا إلى ملذاتهما الشخصية ، وانساقا وراء الدسائس والكيد ، ولم يلتفتا لمصلحة البلاد وانهارت فى عهديهما كثير من النظم التى كانت قد استحدثت فى النصف الأول من هذا القرن .

---

(١) P.J. Vatikiotis, The Modern history of Egypt. U. S. A. 1969 p. 73

(٢) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ ص ٩٧٢ .

(٣) توفى محمد على سنة ١٨٤٩ ودفن بمسجده بالقلعة .

حــكم إسماعيل وتوفيق

بعد وفاة سعيد كان أكبر الذكور سنا هو إسماعيل بن إبراهيم وحفيد محمد على ، فتولى الحكم واضعا نصب عينيه حالة البلاد فى عهد محمد على فسار على نهجه فى محاولة تحديث مصر ومحاولة الاستقلال بها عن الإدارة العثمانية ، ولكنه لم يسلك سبيل القوة كما فعل جدة ، لكنه سلك سبيل التودد بجميع الطرق مع ذوى السلطة فى الأستانة ، وتمكن من الحصول على لقب خديو مصر [1] . كما تمكن من تغيير نظام توارث العرش لحصره فى أولاده هو .

وكما كان طموح محمد على سببا فى تحجيم دوره وتحديد حدود البلاد ، كانت طموحات إسماعيل سببا فى القضاء عليه ، إذ زادت ديون مصر فى عهده زيادة كبيرة أدت إلى تدخل انجلترا وفرنسا فى شئون مصر الداخلية بحجة حماية ديونها ، كما اضطر إلى بيع أسهم مصر فى شركة قناة السويس .

وقد أدت سياسته المالية السيئة إلى خلع إسماعيل فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وتنصيب ابنه توفيق باشا خديو لمصر . وغادر إسماعيل مصر على اليخت « المحروسة » إلى إيطاليا حيث اقام بها فترة طويلة آملا العودة إلى عرش مصر وهو مالم يحدث . وانتقل إلى الأستانة سنة ١٨٨٨ ، وأقام بقصره على البوسفور إلى أن توفى فى مارس سنة ١٨٩٥ ، فنقل جثمانه إلى مصر ودفن بها فى مسجد الرفاعى بالقلعة .

أما الخديو توفيق وهو أكبر أبناء إسماعيل فقد ورث عن والده تركة ثقيلة مما جعل أيام حكمه غير سعيدة عليه وعلى مصر . فقد اندلعت فى عهده الثورة العرابية التى كان من نتائجها احتلال انجلترا للبلاد سنة ١٨٨٢ .

الثــورة العــرابيــة

قبل أن نتناول أحداث الثورة العرابية لابد من الإشارة إلى عنصرين هامين قد لايدركهما قارئ اليوم وهو يقرأ عن تاريخ الأمس ، عنصرين تغير مفهومهما أو مدلولهما خلال هذا القرن ، أول هذين العنصرين هو عنصر الزمن فمنذ أكثر من مائة عام كان حساب الوقت والزمن يختلف فى أهميته عما نحن عليه ، الآن ، فقد كانت الأمور تجرى بهدوء ورتابة تنعكس على تفكير الناس ، مما يجعل إيقاع الحياة أبطأ كثيرا عنه

---

(٢) راجع تفاصيل حكم إسماعيل فى : ـ عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل ـ جزئين دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .

اليوم ، فيؤدى بطء وسائل الانتقال ووسائل الاتصال إلى بطء طبيعى فى سرعة اتخاذ القرار وفى إيقاع التفكير وفى ردود الفعل . وسوف يظهر ذلك جليا فى أحداث ما اصطلح على تسميته الثورة العرابية التى استغرقت أكثر من عام كامل ، حتى إن البعض يضن على هذه الأحداث بصفة الثورة ، ويصرون على تسميتها تهكما « هوجة عرابى » وذلك يقودنا إلى العنصر المتغير الثانى ، وهو مفهوم الثورات والانقلابات ، ففى النصف الثانى من القرن العشرين أصبحت الانقلابات العسكرية والثورات سمة من سمات هذا القرن ، ووجدت لها نماذج تحتذى ، وتصدى فقهاء القانون للتفرقة بين الثورة الشعبية والانقلاب العسكرى . بينما كان الوضع مختلفا تماما فى القرن التاسع عشر، فلم تكن هناك نماذج سابقة ، اللهم إلا الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، كما أن غياب عامل الإعلام السريع المسيطر على حياتنا الآن [1] ، كان له أثره الكبير فى أحداث هذه الثورة ، علاوة على السلوك العام المنضبط إلى حد ما لقائد هذه الثورة ، الذى تمثل فى ضرورة تقديم مطالبة للتغيير من خلال القنوات الشرعية ثم انتظار رد الفعل بشأنها .

وقعت أول وقائع ثورة أحمد عرابى فى فبراير ١٨٨١ وهى حادثة قصر النيل ، والتى لم تكن إلا تعبيرا عن مطالب بعض ضباط الجيش الوطنيين ، أى المصريين فى مواجهة تعيين بعض الضباط من أصل جركسى فى مناصب قيادية محل الضباط المصريين . وكانت مطالب أحمد عرابى وصحبه تتلخص فى :

* عزل ناظر الجهادية (وزير الحربية) .
* تشكيل مجلس للنواب .
* زيادة الجيش العامل إلى ثمانية عشر ألف جندى كما نصت على ذلك معاهدة لندن ١٨٤٠.
* تعديل القوانين العسكرية بما يحقق العدالة والمساواة بين رجال الجيش [2] .

أما الواقعة الثانية من وقائع الثورة العرابية فكانت فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ وهى واقعة ميدان عابدين والتى طالب فيها أحمد عرابى ومعه الجيش بثلاثة مطالب هى:

- إسقاط الوزارة المستبدة برئاسة رياض باشا .
- تشكيل مجلس للنواب .

(١) عامل الإعلام كان له تأثير قوى فى انتشار الثورات والانقلابات العسكرية أو السلمية فى دول أوربا الشرقية خلال عامى ١٩٨٨ ، ١٩٨٩ .

(٢) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٦٤ .

ـ زيادة عدد الجيش إلى ثمانية عشر ألف جندي والتصديق على المطالب العسكرية السابق المطالبة بها .

ولكن الخديو توفيق رأى عدم إجابة هذه الطلبات التى لايحق لاحمد عرابى المطالبة بها بحجة أن هذه البلاد قد آلت له بطريق الإرث من آبائه وأجداده ، ولا يحق لأهلها المطالبة بأى إصلاحات ، وقال عبارته الشهيرة التى جاء فيها : « وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا » وهى العبارة التى رد عليها أحمد عرابى بمقولته الخالدة ·

« لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا فو الله الذى لا إله هو إننا سوف لا نورث ولانستعبد بعد اليوم » (١).

وظلت البلاد سحابة من عدم الاستقرار والهياج والفوضى مدة من الزمن حتى أجيبت بعض المطالب ، فاستجاب الخديو للمطلب الأول بأن عين شريف باشا ناظرا للنظار ، أى رئيسا للوزراء ، ومحمود سامى باشا البارودى ناظرا للجهادية (وزيرا للدفاع) . وكان الخديو فى طريقه لتنفيذ المطلبين الآخرين ففى أوائل عام ١٨٨٢ افتتح الخديو مجلس النواب بخطاب وطنى فياض كما عين الأميرالاى أحمد عرابى بك وكيلا لنظارة الجهادية ثم فى فبراير ١٨٨٢ أقال الخديو وزارة شريف باشا استجابة لطلب مجلس النواب وعين وزارة جديدة برئاسة محمود سامى باشا البارودى ضمت أحمد عرابى ناظرا للجهادية . إلا أن الانجليز والفرنسيين عارضوا فى تشكيل هذه النظارة . ورغم ذلك تمر الأحداث موحية بمظهر سلمى إلى شهر ابريل ١٨٨٢ عندما يتم اكتشاف مؤامرة على حياة أحمد عرابى من الضباط الجراكسة الذين أضيروا من القوانين الجديدة فى الجيش ، تحت رئاسة عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية الاسبق ، فيحاكم أربعين ضابطًا ويحكم عليهم بالنفى بعد خلاف بين النظارة والخديو الذى أصر على تخفيف الحكم.

وانتهزت انجلترا وفرنسا فرصة الفوضى الناتجة عن الخلاف بين النظارة والخديو فأنذرت حكومتا انجلترا وفرنسا فى الخامس والعشرين من مايو ١٨٨٢ الحكومة المصرية. بضرورة إبعاد عرابى باشا من مصر واستقالة الوزارة . ولكن عرابى تمسك بموقفه وبقيادته للجيش متحديا فرض القوى الأجنبية إرادتها على البلاد ، فطلب الإنجليز من عرابى أن يتكفل بسلامة البلاد وسلامة الأوربيين فيها مقابل عدم إرسال أساطيلها.

---

(١) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٦٩

وفى يوم ١١ يونيو ١٨٨٢ اندلعت فى الاسكندرية ثورة شعبية للتعبير عن سخطها على ما عرف بمذبحة الإسكندرية والتى نتجت عن الشغب الذى حدث فى المدينة بعد حادث المالطى [١].

وفى أعقاب هذه الواقعة يتعهد عرابى مرة أخرى أمام الخديو وفى حضور ممثلى الأجانب عن مسئوليته الشخصية فى حفظ النظام فى مصر . ولكن عرابى يشكو من التهديد المستمر نتيجة مرابطة الاسطول الإنجليزى أمام سواحل الإسكندرية . وتسود البلاد اضطرابات عدة ، ويشكل الخديو وزارة ائتلافية جديدة برئاسة «راغب » باشا يتولى فيها عرابى منصب «ناظر الجهادية » أيضا . ويبدو أن الانجليز قد وجدوا أن الموعد قد حان لتنفيذ مآربهم ، ففى نفس اليوم وهو الحادى عشر من يوليو ١٨٨٢ انسحب الأسطول الفرنسى من ميناء الإسكندرية بناء على تعليمات من حكومته وفى نفس الوقت بدأ الأسطول الانجليزى فى قصف المدينة وشرع فى احتلالها .

ولكن عرابى وجيشه صمد أمام الجيش الإنجليزى وقاومة من معركة إلى أخرى ، فلم يجد الإنجليز بدًا من إجبار الخديو توفيق على إصدار أمر فى سبتمبر ١٨٨٢ بإلغاء الجيش [٢] . ورضخ الخديو مما أدى إلى حدوث شرخ فى جيش عرابى خاصة وأنه قد صدر قرار مماثل من السلطان العثمانى فى أغسطس ١٨٨٢ قررت فيه الحكومة العثمانية اعتبار عرابى عاصيا وأعوانه عصاة يجب مقاطعتهم وعدم التعامل معهم [٣] .

---

(١) بدأت المذبحة بمشاجرة وقعت يوم الأحد ١١ يونيو ١٨٨٢ الساعة الثانية بعد الظهر بين أحد المالطيين من الرعايا الإنجليز وأحد السكندريين يدعى السيد العجان ، وكان المالطى هو البادئ بالعدوان ، فقد كان للوطنى حمار ركبه المالطى وأخذ يطوف به من الصباح إلى الظهر ، ولما طالبه الوطنى بأجرة الركوب لم يدفع له المالطى سوى قرش صاغ واحد ، فجادله فى قلة الأجر فلم يكن من المالطى إلا ان شهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على إثرها . هرع رفاق القتيل للإمساك بالقاتل ، ولكنه فر إلى أحد المنازل . وأخذ المالطيون المقيمون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهالى من الأبواب والنوافذ ، فسقط منهم كثير بين قتيل وجريح ، فثارت نفس الجماهير تطالب الانتقام لمواطنيهم ، وتحركت الدهماء للاعتداء على الأوربيين عموما بالعصى والهراوات .

(٢) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ ص ١١١٧ .

(٣)وجاء فى القرار أن الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى فى مصر هو الخديو ، وأن أعمال عرابى مخالفة لإرادة الدولة العلية .. وأن عرابى باشا ورفقاءه وأعوانه من العصاة وعلى سكان الأقطار المصرية أن يطيعوا أوامر الخديو وكيل الخليفة على مصر وإلا تعرضوا لمسئولية عظيمة وإن تعامل عرابى باشا مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها كلية .

ويستمر عرابى فى القتال بمن بقى معه من الجيش فى كفر الدوار ثم فى الإسماعيلية حيث يتلقى تأكيدا من دى ليسبس بعدم استعمال الجانبين لقناة السويس فى العمليات الحربية الواقعة بينهما ، ولكن يحدث العكس من جانب الإنجليز ، مما يرجح كفتهم ، وانتقل القتال إلى التل الكبير ثم بلبيس ، وكانت آخر معركة فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ حيث خارت قواه واهتزت عزيمته وانهارت مقاومته واضطر إلى الا ستسلام حقنا للدماء وعلى وعد بأن دولة الانجليز لا تريد الاستيلاء على مصر لانها دولة موصوفة بحب الإنسانية والاعتدال فى الأمور [١].

وقبض على أحمد عرابى وتم تقديمه للمحاكمة وحكم عليه بالنفى إلى جزيرة سيلان .

وبدأت مرحلة أخرى من مراحل التاريخ المصرى وهو احتلال انجلترا وسيطرتها على الجيش والبوليس وشيئا فشيئا على باقى المرافق الهامة فى الدولة .

الخديو عباس حلمى الثانى والحرب العالمية الأولى :

فى يناير ١٨٩٢ توفى الخديو توفيق وتولى مصر بعده أكبر أولاده عباس حلمى بأمر من الباب العالى فى الأستانة . وحاول الخديو عباس حلمى الثانى أن ينتهج سياسة إصلاحية فتقرب إلى المصريين الوطنيين ومنهم الزعيم مصطفى كامل . وقد نتج عن هذه السياسة سحابة قاتمة من الكراهية بينه وبين الإنجليز ، الذين كان تواجدهم فى مصر منذ سنة ١٨٨٢ يزداد ويتغلغل فى سائر المرافق على عكس التأثير العثمانى للدولة السنية فمنذ إبرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ أصبح لمصر أستقلال مكفول من دول العالم . ولا يحد من هذا الاستقلال سوى قيد السيادة العثمانية ، ومع مرور الزمن أصبحت هذه السيادة شكلية فقط وليس لها من مظهر سوى الجزية التى التزمت بها مصر تجاه حكومة الباب العالى ، والتى كان مقدارها سبعمائة وخمسين ألف جنيه عثمانى سنويا ، أى ما يوازى حوالى ستمائة وثمانين ألف جنيه مصرى[٢]. وقد رهنتها حكومة الباب العالى (تركيا فيما بعد) إلى دائنيها من البيوت المالية الاجنبية بأن حولتها إليهم ، وقبلت الحكومة المصرية هذه الحوالة ، وتعهدت لهؤلاء الدائنين بأن تدفع لهم أقساط ديونهم خصما من هذه الجزية لسنوات قادمة . فكان العلاقة بين مصر وتركيا من الناحية

---

(١) ـ عبد الرحمن الرافعى ـ الزعيم الثائر أحمد عرابى ـ ص ٩٩ .

ـ أ . م . برودلى ـ كيف دافعنا عن عرابى وصحبه ـ ترجمة عبد الحميد سليم ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ ص ١٠١ إلى ١٤٢

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ ثورة ١٩١٩ ـ ط ٢ سنة ١٩٦٨ جـ ١ ص ١٣

العملية غير كائنة ، أما السيادة فهي موضوع شكلي بحت . وقد غير الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ من هذا الوضع ، فقد قضى على استقلال البلاد بالاحتلال الذى حمل في ثناياه الحماية المقنعة ، وأضحى المعتمد البريطاني هو الحاكم الحقيقي للبلاد ، وخضعت الحكومة للسيطرة الإنجليزية التي استبدت بشئون البلاد وحاولت فصل السودان عنها وألغت الدستور الذى كان قائما قبل الاحتلال[1].

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى لزمت مصر الحياد ، حتى أعلنت انجلترا دخولها للحرب ضد ألمانيا ، ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا فقد أعلنت انجلترا دخولها للحرب ضد ألمانيا وتحت تأثير الاحتلال الانجليزى لمصر أخذت الحكومة المصرية موقف المستعمرات البريطانية ، ويظهر ذلك من قرار مجلس الوزراء المصرى الصادر في ٥أغسطس سنة ١٩١٤ الذى جاء في ديباجته ما يدل على التبعية لانجلترا في الحرب .[2] أما القرار ذاته فقد تضمن منع التعامل مع ألمانيا ورعاياها ، ومنع السفن المصرية من الاتصال بالثغور الألمانية ، وتخويل القوات البريطانية حقوق الحرب في الأراضى والموانى المصرية . وعندما انضمت النمسا والمجر إلى ألمانيا في الحرب صدر قرار آخر بسريان الأحكام السابقة عليهما .

ثم نشبت الحرب بين تركيا وروسيا في نوفمبر ١٩١٤ وانضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا والمجر ، وأعلن قائد جيش الاحتلال في مصر الجنرال جن مكسويل وضع مصر تحت الحكم العسكرى ووضع الرقابة على الصحف والبرقيات والخطابات بين مصر والخارج .

وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت انجلترا بقرار من وزير خارجيتها نشر في الوقائع المصرية إعلان الحماية على مصر[3]. وبهذا الإعلان تحولت الحماية المقنعة من سنة

---

(١) المرجع السابق ص ١٤

(٢) تنص ديباجة القرار على : « بما أنه قضى لسوء الحظ بإعلان الحرب بين جلالة ملك بريطانيا وايرلنده والملحقات البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند وبين إمبراطور ألمانيا . ونظرا لوجود جيش الاحتلال في القطر المصرى مما يجعل هذا القطر عرضة لهجوم أعداء صاحب الجلالة البريطانية وبما أنه من الضرورى لهذه الحالة الفعلية التمكن من اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لدفع خطر مثل هذا الهجوم عن القطر المصرى ، وبما أنه قد أشير على الحكومة المصرية تحقيقا لهذا الغرض أن تتخذ الإجراءات الآتية فلهذه البواعث يكون معلوما لجميع ذوى الشأن أن مجلس النظار في جلسته المنعقدة في يوم / ٣— رمضان ١٣٣٢ (٥ أغسطس ١٩١٤) تحت رياسة عطوفتلو أفندم القائمقام الخديو قد قرر ما يأتى : .... »

(٣) نص القرار المنشور في الوقائع المصرية . « إعلان بوضع بلاد مصر تحت حماية بريطانيا العظمى يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى بأنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد =

١٨٨٢ على مصر إلى حماية سافرة . ويرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أنه كان أليق بانجلترا أن تعلن الاعتراف باستقلال مصر التام بعد زوال السيادة التركية عنها ولكن وضعها تحت الحماية الانجليزية يفسر رغبتها فى إهدار استقلال مصر الداخلى والخارجى وتلك كانت نيتها منذ احتلالها غير المشروع سنة ١٨٨٢[١].

حسين كامـل :

بعد إعلان الحرب بين انجلترا وألمانيا تردد الخديو عباس حلمى الثانى فى العودة من تركيا التى كان يصطاف فيها رغم الحاح رشدى باشا ناظر النظار .

وكما كانت تجرى الأمور أصدر الخديوى عباس حلمى الثانى فى ٢٠ مايو ١٩١٤ وهو يبرح مصر إلى استنبول فى رحلته السنوية أن يكون حسين رشدى باشا قائمقاما عنه فى حكم مصر أثناء غيابه [٢]. وتأخر الخديو فى العودة إلى مصر فى موعده رغم إلحاح حسين رشدى باشا عليه برقيًا نظرا لحالة الحرب التى كانت بدأت تلوح فى الأفق وإن كان البعض يرى أن سبب تأخير عودة الخديو إلى مصر هو إصابته بأربع رصاصات فى محاولة لاغتياله وأنه كان تحت العلاج [٣] . وانتهزت انجلترا فرصة نشوب الحرب وتأخر عودة الخديو وتحت تأثير الكراهية الناشئة بينهما من قبل فقد أرسلت له برقية تطلب منه عدم العودة . وتم فرض الحماية رسميا كما بينا .

وفى اليوم التالى لإعلان الحماية أصدر وزير الخارجية البريطانية إعلانا آخر بخلع عباس حلمى الثانى من منصب الخديوية وتعيين حسين الابن الثانى لإسماعيل سلطانا على مصر [٤].

---

* مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ... وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها».

(١) المرجع السابق ـ ص ١٨ .

(٢) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٤ ص ١٤١٩ .

(٣) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٤ ـ ص ١٤٢١ .

(٤) نص القرار المنشور فى الوقائع المصرية بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤ على : يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر السابق على الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان على سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله » .

وبنفس البساطة التى أعلنت فيها انجلترا على لسان وزير خارجيتها قرارات مصيرية بالنسبة للبلاد ، مثل إلغاء التبعية لتركيا التى كانت حتى ذلك الوقت دار الخلافة العثمانية الإسلامية ، ومثل تثبيت وضع احتلا ل البلاد بوضعها تحت الحماية الانجليزية فإنها تعلن فصل حاكم البلاد الخديو ، وكنوع من الرشوة المستترة فإنها ترفع مصر إلى مستوى سلطنة وتعين حاكمها الجديد سلطانا ، فهو لايقل عن السلطان العثماني على الأقل فى اللقب وفى منح الرتب والنياشين ، ومن السخرية أن يأتى عرض المنصب على السلطان الجديد وتكليفه به وتعيين حدود صلاحياته على لسان القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى مصر ، وفى خطاب موجه منه إلى حسين كامل السلطان الجديد لمصر[1] . وقد تضمن هذا الخطاب من بين ما تضمن إشارة صريحة إلى إهدار شخصية مصر الدولية فى علاقاتها مع الدول الأجنبية إذ أصبحت هذه العلاقات تتم من خلال المعتمد البريطانى فى مصر ، وبالتالى تم إلغاء وزارة الخارجية المصرية طوال عهد الحماية وحتى سنة ١٩٢٢ [2].

السلطان فؤاد :

وفى أكتوبر ١٩١٧ توفى السلطان حسين كامل وكان له ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين كان السلطان قد اتفق مع الانجليز على أن يكون هذا الابن خليفته على العرش ولكن الابن رفض قبول السلطنة وتنازل عن حقوقه فيها . وفى التاسع من أكتوبر ١٩١٧ قررت انجلترا تعيين الأمير أحمد فؤاد الشقيق الأصغر للسلطان حسين وابن الخديو إسماعيل خليفة له على عرش السلطنة المصرية [3].

وفى نوفمبر ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها بانتصار انجلترا وحلفائها وكان حريا بانجلترا وهى تحتفل بانتصارها أن تفى بوعودها المتكررة تجاه مصر بالجلاء عنها ، وإعادة استقلالها ، ولكن دروس التاريخ تؤكد دوما أن الاستقلال لايمنح ولكنه يؤخذ وبالقوة إذا اقتضى الأمر وهو غالبا ما يقتضى ذلك .

---

(١) يمكن الرجوع لنص الخطاب عند عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ١٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٣) د . محمد سيف الله رشدى ـ المرجع السابق ص ٢٢٣ / ٢٢٤ .

ـ أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ص ١٤٨١ .

ثـــورة ١٩١٩ :

بانتهاء الحرب العالمية الأولى زالت الأسباب التي بنت عليها انجلترا فرضها للحماية على مصر . وبدأ الوطنيون المصريون يتحدثون في شأن إلغاء الحماية وجلاء انجلترا عن مصر واستقلالها التام .

وعقب توقيع انجلترا لاتفاقية الهدنة مع ألمانيا ، أعلن في مصر في نوفمبر ١٩١٨ أن «وفدا» من بعض أعضاء البرلمان برئاسة « سعد باشا زغلول » الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية وعضوية على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمي بك وأن مهمة هذا « الوفد» السعي إلى الاستقلال . وفي يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ قابل الوفد السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني في مصر وأبلغوه أنهم بصفتهم نواب الأمة يطلبون إلى انجلترا الاعتراف باستقلال مصر [١] . وطلبوا أن تسمح لهم انجلترا ـ التي فرضت على مصر الأحكام العرفية ـ بالسفر إلى باريس « لعرض مطلب مصر في الاستقلال والسيادة على مؤتمر الصلح المنعقد هناك ، ولكن الإنجليز رفضوا سفر « الوفد » ووقفوا منه موقف الخصومة، وأنكرت انجلترا عليهم حق التحدث أو التفاوض باسم مصر ، فأصدر هؤلاء النواب نصا يتضمن توكيل المصريين لهذا « الوفد » في السعي للاستقلال بأي سبيل ، وتم إرسال صور من هذا التوكيل [٢] إلى مختلف الهيئات لأخذ التوقيع من الشعب عليه . وقد وقع على هذا التوكيل جميع فئات الأمة من الطبقة المثقفة أو من الطبقات العاملة والفلاحين ، ولابد من الإشارة إلى أن تشجيع رئيس الوزراء رشدى باشا وتضامنه مع نواب الأمة هو الذى أدى إلى وصول هذا التوكيل إلى المديريات وإلى العمد لأخذ التوقيعات عليه . وحين وجد الإنجليز هذا التضامن من رئيس الوزراء ضيقوا عليه السبل حتى اضطروه إلى الاستقالة ثلاث مرات في ٢ ديسمبر وفي ٣٠ ديسمبر ١٩١٨ ثم في الأول من مارس ١٩١٩ ، وتعذر اختيار خلف له لأن « الوفد » رفع خطابا إلى السلطان فؤاد مستندا إلى وكالته عن الأمة طالبا أن يعهد من جديد برئاسة الوزارة إلى رشدى باشا .

---

(١) د . محمد حسين هيكل ـ مذكرات في السياسة المصرية القاهرة ١٩٧٧ جـ ١ ص ٦٧

أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ ص ١٥٠٤

(٢) صيغة التوكيل كما أوردها أحمد حسين . المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥١٦ « نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلى بك شعراوى وعبد اللطيف المكباتي بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ولهم أن يضموا من يختارون في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما »

وشهدت مصر خلال الشهرين الأولين من عام ١٩١٩ نشاطا يتمثل فى لقاءات واجتماعات تتضمن خطبا حماسية وآراء . وكان رد الانجليز على استقالة رشدى هو إصدار الحاكم العسكرى البريطانى أمرا إلى وكلاء الوزارات بتصريف شئونها الإدارية ، أما ردهم على تلك القلاقل التى سرت فى البلاد نتيجة لتحركات أعضاء الوفد هى الأمر بالقبض على أربعة من هذا الوفد وهم : سعد زغلول باشا ـ حمد الباسل باشا ـ اسماعيل صدقى باشا ـ محمد محمود باشا ونفيهم إلى مالطة [١]، فى الثامن من مارس .

وعلى الرغم من منع نشر خبر القبض على زعماء الوفد ونفيهم ورغم البطء الشديد لوسائل الإعلام إذا ما قورنت بوسائلنا اليوم فقد سرى نبأ القبض على زعماء الوفد الأربعة فى العاصمة وانتقل إلى الأقاليم بسرعة كبيرة .

وبدأ يوم ٩ مارس ١٩١٩ بالاضراب والمظاهرات احتجاجا على القبض على زعماء الوفد ، واندلعت الشرارة الأولى من المدارس العليا (الجامعات) والمدارس الثانوية ، ويشير أحمد حسين إلى حوار طلبة مدرسة الحقوق العليا مع عميدهم الإنجليزى الذى حاول إثناءهم عن التظاهر ناصحا إياهم بأن يتركوا السياسة لآبائهم ، فردوا عليه « لقد حبستم آباءنا » وعندما طلب منهم أن يعودوا إلى دروسهم قالوا : « لسنا نريد أن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون » [٢] ، وخرجوا فى مظاهرة منتظمة وانضم لهم طلبة المهندسخانة فمدرسة الزراعة العليا فمدرسة الطب العليا ، ثم انضم جميع طوائف الشعب للمظاهرة ، ورغم أن الانجليز اعتقلوا منهم ثلاثمائة طالب إلا أنهم لم يستطيعوا تفريق المظاهرات إلا بعد عناء وعندما حل المساء [٣] . واستمرت المظاهرات فى اليوم التالى بل اشتدت وامتدت إلى الأقاليم ، وساد الاضطراب أنحاء البلاد فدمرت عربات الترام فى القاهرة ، واقتلعت الأشجار ، وقطعت خطوط البرق ، وأتلفت خطوط السكك الحديدية ، وواجه الإنجليز الأمر بإصدار الأوامر العسكرية إلا أن الأمور استفحلت وتفشت الاضرابات بين مختلف الهيئات والموظفين وعمال الترام والحوذية وسائقى العربات والنقل والأجرة ثم المحامين ، وأغلقت المتاجر ، وامتدت الثورة إلى مختلف

---

(١) د . محمد حسين هيكل ـ المرجع السابق ـ ص ٧٦ .

(٢) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٤ ـ ص ١٠٥٠ .

(٣) المرجع السابق

الأقاليم من الإسكندرية إلى طنطا وشبين الكوم وبركة السبع ورشيد ودمنهور والوجه القبلي ، كما اشترك فيها طلبة الأزهر وعلماؤه ووقع الكثير من الضحايا [1].

وازداد العنف يوما بعد يوم ، وشمل البلاد كلها ، وجميع طوائف وهيئات الشعب ، وتحت هذا الضغط الشعبي الهائل اضطرت انجلترا للاعتراف بأن في مصر ثورة فأرسلت لمواجهتها قائدا عسكريا مشهورا بفظاظته وشراسته لمقاومتها وهو الجنرال اللنبي كمندوب سامي [2].

ورغم هذا الاعتراف من انجلترا في ذلك الوقت بأن مصر في حالة ثورة فإن بعض أبناء الجيل الحالي في مصر ذاتها يرفضون الاعتراف بثورة ١٩١٩ الآن ، رغم أن ما ينطبق عليها هو المعنى الحقيقي والفقهي لهذه الكلمة ، فهي ثورة شعبية لم يدبر لها ، بل اندلعت نتيجة موقف مشرف وقفة الشعب بجميع طوائفه موقف رجل واحد ، وليس له إلا هدف واحد هو الاستقلال التام عن الانجليز ، فإذا لم تكن هذه ثورة شعبية فإننا نغمط بحق أنفسنا ونجرم في حق تاريخنا ، ونحط من قدر آبائنا وأجدادنا الذين بفضلهم سارت حركات الاستقلال حتى نهايتها .

فثورة الشعب سنة ١٩١٩ هي ثورة شعبية بجميع المقاييس وقد آتت ثمارها المرجوة بالإيقاع البطيء لذلك العصر .

حتى إن الجنرال اللنبي المندوب السامي الانجليزي الجديد ما إن وصل إلى مصر حتى أبرق إلى حكومته يقترح الإفراج عن سعد وصحبه باعتباره المفتاح لحل الموقف المتأزم في مصر ، فاستجابت الحكومة الانجليزية على مضض لذلك الاقتراح فأطلقت في السابع من ابريل ١٩١٩ سراح الزعماء المنفيين في مالطة وسمحت لهم بالسفر إلى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح ، بل وسمحت لأعضاء آخرين من الوفد بالانضمام إليهم [3] ، وقد غادر القاهرة بالفعل في ١١ ابريل كل من علي باشا شعراوي وعبد العزيز بك فهمي وأحمد بك لطفي السيد ومصطفى بك النحاس والدكتور حافظ عفيفي وحسين واصف باشا ومحمود بك أبو النصر ولحق بهم فيما بعد عبد الخالق باشا مدكور وقد سافروا بحراً

---

(١) يفصل عبد الرحمن الرافعي أحداث الثورة في كتابه ثورة ١٩١٩ جـ ١ الفصول الخامس والسادس والسابع والثامن من ص ١١٧ إلى ص ١٨٣ وجـ ٢ الفصول التاسع حتى الثاني عشر من ص ١ إلى ص ٩٤ .

- كما يورد يومياتها أحمد حسين في المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥٥١ إلى ص ١٥٩٠ .

(٢) أحمد حسين - المرجع السابق - جـ ٤ - ص ١٥٨٥ .

(٣) أحمد حسين - المرجع السابق - جـ ٤ ص ١٥٨٨ .

فى طريقهم إلى فرنسا مرورًا بمالطة لاصطحاب الزعماء المفرج عنهم سعد باشا زغلول ومحمد باشا محمود وإسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا . ونشط هذا «الوفد» الرفيع المستوى الذى يمثل جميع التيارات فى مصر آنذاك ، والتى اتفقت على هدف واحد وهو الاستقلال ورفع حماية الانجليز عن البلاد .

ورغم سفر « الوفد» ومجهوداته فى باريس فإن الثورة فى مصر لم تهدأ ، واستمرت ، فيضرب الموظفون والطلاب احتجاجا على الاحتفال فى مصر بعيد جلوس ملك انجلترا فى ٧مايو ١٩١٩ ، وتفشل وزارات رشدى باشا ومحمد سعيد باشا ويوسف وهبة باشا وتوفيق نسيم باشا المتتابعة فى السيطرة على الموقف . بل ويعلن بعض أمراء الأسرة الحاكمة انضمامهم للأمة ، ويوقعون رسالة إلى اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر بضرورة الاستقلال التام ، ويوقعها الأمراء كمال الدين حسين وعمر طوسون ومحمد على إبراهيم ويوسف كمال وإسماعيل داود ومنصور داود فى ٢ يناير ١٩٢٠ (١).

وكانت لجنة ملنر قد وصلت إلى مصر لمحاولة التباحث فى موضوع الاستقلال ولكنها لقيت مقاطعة كاملة من الأمة المصرية ، فعادت إلى انجلترا وهى تضمر مفاوضة الوفد المصرى فأرسلت تدعوه للحضور من باريس إلى لندن للتفاوض ، ولبى الوفد الدعوة ببعض أعضائه برئاسة سعد باشا زغلول ، ولكن تعثر الوصول إلى اتفاق مرض ، وأمام الاحتجاجات فى مصر أعلنت انجلترا أن الحماية على مصر أصبحت علاقة غير مرضية ودعت إلى الدخول فى مفاوضات رسمية للوصول إلى علاقة جديدة تربط الدولتين .

وفى مارس ١٩٢١ تم تكليف عدلى يكن بتشكيل وزارة جديدة مع التلويح بالشروع فى مفاوضات رسمية بين الحكومتين . فأرسل عدلى باشا يستدعى سعد باشا الذى عاد إلى مصر فى أبريل ١٩٢١ إلا أن هذه المفاوضات كانت مصدر انقسام بينهما . فبينما رأى سعد أنه الجدير برئاسة وفد المفاوضات لأنه موكل من قبل الشعب بذلك ، فقد رأى عدلى أنه لا يجوز لرئيس مجلس الوزراء أن يحضر مفاوضات لايكون هو رئيس وفد البلاد فيها . على أية حال فشلت المفاوضات وتم رفض مشروع « كيرزون » وزير الخارجية الانجليزى واضطر عدلى يكن للاستقالة . وطالب سعد من الأمة استمرار الجهاد وظل يعقد الاجتماعات ويخطب فى الناس لتحميسهم فأنذرته السلطات الانجليزية بعدم إلقاء الخطب أو عقد الاجتماعات ولما أصر على موقفه اعتقل وصحبه فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ونفى فى سيشل فى ٢٩ ديسمبر ثم تعدل منفاه تقديرا لظروفه الصحية إلى جبل طارق .

---

(١) المرجع السابق ـ جـ ٤ ـ ص ١٥٩٥ .

واستمرت روح الثورة بعد نفي سعد ، وتم توحيد الصفوف فى مواجهة الإنجليز بعدم التعاون معهم ، بل ومقاطعتهم فى التعامل فى التجارة والبنوك والسفن وشركات التأمين[1].

عندما استقال عدلى يكن من الوزارة ظل المنصب شاغرا لمدة شهرين ، ورفض الزعماء قبول تشكيل الوزارة فى هذا الجو من الغليان الذى يسود البلاد ، ومهد ذلك المناخ لعبد الخالق ثروت باشا عندما عرض عليه تشكيل الوزارة أن يضع عدة شروط لقبوله منها :

١ ـ عدم قبول مشروع كيرزون .

٢ ـ تصريح الحكومة البريطانية بإلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر .

٣ ـ إعادة وزارة الخارجية .

٤ ـ إنشاء برلمان تكون الحكومة مسئولة أمامه .

٥ ـ إطلاق يد الحكومة بلا مشارك فى تأدية أعمالها .

٦ ـ حذف وظائف المستشارين الأجانب فى الوزارات عدا مستشارا المالية والحقانية فيظلان إلى ما بعد ظهور نتيجة المفاوضات .

٧ ـ يبطل ما للمستشار المالى من حق حضور جلسات مجلس الوزراء .

٨ ـ استبدال موظفين مصريين بالموظفين الأجانب .

٩ ـ رفع الأحكام العسكرية .

١٠ ـ الدخول فى مفاوضات جديدة ـ بعد تشكيل البرلمان ـ مع الحكومة الانجليزية بواسطة هيئة يعتمدها البرلمان .

١١ ـ أن تقبل هذه الشروط بموجب وثائق مكتوبة من الحكومة الانجليزية [2].

وأوضح المندوب السامى البريطانى لحكومته أن إلغاء الحماية هو الإجراء الوحيد الكفيل بتهدئة الثوار ، وخدمة المصالح الحقيقية لكل من مصر وبريطانيا العظمى [3]. فقبلت انجلترا هذه الشروط وأعلنت فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ تصريحا من جانبها بإلغاء الحماية التى فرضتها على مصر سنة ١٩١٤ بسبب قيام الحرب [4]. .

---

(١) أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٥ ـ ص ١٦٨٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ـ فى أعقاب الثورة المصرية ـ جـ ١ ـ طبعة دار الشعب ـ ص ٩٧ .

(٣) Marcelle Colombe, Evolution L'Egypte, Paris 1950 p. 38

(٤) عبد الرحمن الرافعي ـ المرجع السابق ص ١٠٠ .

ـ أحمد حسين ـ المرجع السابق ص ١٦٩٢ ويمكن الرجوع لنص التصريح ص ١٦٩٤

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ :

ويتضمن هذا التصريح إعلان الحكومة البريطانية انتهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وإلغاء الأحكام العرفية واحتفاظ انجلترا بصورة مطلقة بأربع مسائل إلى ان يتم البت فيها فيما بعد وهي :

١ ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية .

٢ ـ الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي .

٣ ـ حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات في مصر .

٤ ـ مسألة السودان

والملاحظ أن هذا التصريح صدر من جانب واحد هو الجانب البريطاني وهو يعد ولاشك مكسبا سياسيا كبيرا لمصر في ذلك الوقت ، وخطوة كبيرة إلى الأمام في مشوار الجهاد الوطني .

ونتيجة لهذا التصريح قبل عبد الخالق ثروت تشكيل الوزارة في اليوم التالي أول مارس ، كما أعلن فؤاد الأول استقلال البلاد والمناداة به ملكا في ١٥ مارس ونص المرسوم الملكي الصادر في ذلك اليوم على :

« .... مصر منذ اليوم دولة متمتعة بالسيادة والاستقلال ونتخذ لنفسنا لقب صاحب الجلالة الملك ليكون لبلادنا ما يتفق مع استقلالها من مظاهر الشخصية الدولية وأسباب العزة القومية ...... »

ومن عادة الحكام المحاكاة في الأمور المظهرية ، فكان الاهتمام الأكبر للسلطان فؤاد أن يعلو ببلاده لتصبح مثل انجلترا ، وأول ما بدأ به هو تغيير لقب الحاكم من السلطان إلى الملك ليصبح مثل ملك انجلترا ، وكأن تغيير لقب الحاكم يكفي لتغيير حالة البلاد ، وهو أيضا يحاكي في ذلك ما فعله الإنجليز مع سلفه وأخيه السلطان حسين كامل ، الذي حمل لقب سلطان في يوم تعيينه بعد عزل الخديو عباس حلمي الثاني لنفي أية علاقة لمصر مع دولة الخلافة العثمانية في تركيا حتى أن حاكم مصر أصبح يحمل لقب سلطان شأنه شأن السلطان التركي .

ولما كانت الدول المتقدمة والمستقلة لديها دستور يكون منهجا للبلاد ، ولما كانت مصر لها تجربة دستورية سنة ١٨٨٢ ولكنه ألغي في العام الثاني فقد أمر الملك أحمد فؤاد بتأليف لجنة لوضع دستور للبلاد على أحدث النظم الدستورية في أبريل ١٩٢٢ وصدر الدستور فعلا بالأمر الملكي رقم ٤٢ في ١٩ أبريل ١٩٢٣ ثم صدر قانون

الانتخاب فى ٣٠ أبريل وكان قد أفرج عن سعد وصحبه فى ٣٠ مارس ١٩٢٣ وسافر إلى فرنسا للاستشفاء وعاد إلى بلاده فى سبتمبر ١٩٢٣ [1].

وفى يناير ١٩٢٤ أجريت أول انتخابات فى البلاد فى ظل الدستور، نال الوفد فيها أغلبية كبيرة ، ومن الأمور الجديرة بالإشارة عن نزاهة وحرية هذه الانتخابات أن رئيس الوزراء يحيى باشا إبراهيم لم ينجح فيها ، وفاز عليه مرشح الوفد فى دائرته وهى منيا القمح [2].

استقالت حكومة يحيى إبراهيم باشا وكلف الملك ، سعد زغلول باشا بتشكيل الوزارة الجديدة بعد الأغلبية التى نالها حزب الوفد فى البرلمان [3] فى يوم ٢٨ يناير ١٩٢٤ .

فى ١٥ مارس ١٩٢٤ يفتتح الملك فؤاد البرلمان ويؤدى اليمين الدستورية أمامه ثم يلقى سعد زغلول خطاب العرش . ولم يستمر سعد فى رئاسة الحكومة سوى عشرة أشهر ، ثارت خلالها بعض المشاكل ، واستقال فى ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤ وقبلت استقالته فى اليوم التالى مباشرة .

جرى حل البرلمان وأجريت انتخابات جديدة وانعقد البرلمان الجديد فى ٢٣ مارس ١٩٢٥ لعدة ساعات جرى فيها انتخاب سعد زغلول رئيسا له فأصدر الملك مرسوما بحله . ثم أجريت انتخابات لبرلمان جديد هو الثالث فى ظل دستور ١٩٢٣ وأيضا تم انتخاب سعد زغلول رئيسا له منذ انعقاده فى ١٠ يونية ١٩٢٦ وإلى وفاته فى أغسطس ١٩٢٧ [4].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ـ ـ ١٠٧ .
ـ أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٥ ص ١٧٢٥

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ص ١٠٨
ـ أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ٥ ص ١٧

(٣) ولد سعد زغلول فى شهر ربيع الأول ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) فى بلدة « إبيانة » مركز فوة ـ غربية ـ وكان أبوه الشيخ إبراهيم زغلول من أعيان البلدة وذوى الثراء فيها . تلقى دروسه فى كتاب القرية ثم التحق بالأزهر سنة ١٨٧١ ليتم دراسته ومن بين من درس عليهم الإمام محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغانى . فى سنة ١٨٨٤ انتظم فى سلك المحاماة ونبغ فيها ونال منزلة كبيرة فى المجتمع فعين قاضيا بمحكمة الاستئناف سنة ١٨٩٢ . تزوج سنة ١٨٩٥ من السيدة صفية كريمة مصطفى باشا فهمى ناظر النظار (رئيس الوزراء) درس الحقوق الفرنسية وحصل عليها من باريس سنة ١٨٩٧ ـ تولى وزارة الحقانية والمعارف تحت رئاسة مصطفى فهمى باشا وبطرس غالى باشا ومحمد سعيد باشا واستقال سنة ١٩١٢ . وانتخب عضوا فى الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ثم انتخب وكيلا لها .

(٤) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ص ١٢٠
أحمد حسين ـ المرجع السابق ـ جـ ص ١٧٩٠ .
عباس محمود العقاد ـ سيرة وتحية ـ القاهرة ـ ص ٦٧ .
د . محمد حسين هيكل ـ مذكرات فى السياسة المصرية ـ جزئين ـ دار المعارف بالقاهرة

وبوفاة سعد زغلول ينسدل الستار على فترة من أخصب فترات التاريخ المصرى المعاصر ، ظهرت فيها قوة هذا الشعب ، وتمسكه بالحق ، وكفاحه المرير من أجل الاستقلال ، وجهاده المتصل دون هوادة للتحرر من المستعمر وللحصول على حقوقه المشروعة فى أن يحكم نفسه من خلال حكومة تستمد شرعيتها من خلال برلمان يتم انتخاب أعضائه انتخابا حرا كل ذلك تحت ظل الدستور . ولم يكن سعد زغلول إلا أحد أفراد هذا الشعب المتذمر من الاحتلال الأجنبى الذى أخلف وعوده فى الجلاء عدة مرات ، والذى تغلغل فى شئون البلاد كبيرها وصغيرها من خلال مستشاريه بل ووزرائه فى الحكومة المصرية ووصل الحد إلى تعطيل الدستور فى ١٨٨٣ وإلغاء وزارة الخارجية ١٩١٤ . وإلغاء مجلس النواب واستبدال أنظمة صورية به ومحاولة إضعاف قوة البلاد العربية وأخيرا محاولة فصل السودان عن البلاد (١) .

من فاروق إلى الثــورة :

توفى الملك فؤاد الأول فى ٢٨ أبريل ١٩٣٦ وكان ابنه وولى عهده الأمير فاروق غائبا يتلقى العلم فى انجلترا ، ورأى رئيس الوزراء فى ذ لك الوقت على باشا ماهر تطبيق مبدأ «مات الملك يحيا الملك» فنودى به ملكا فى ذات اليوم وسافر إلى مصر فى ٦ مايو ولما كان الملك لم يبلغ سن الرشد بعد فقد فوض أمر البلاد إلى مجلس الوصاية مكون من ثلاثة أوصياء على العرش إلى أن بلغ الملك سن ثمانى عشرة سنة هلالية (هجرية) كما ينص دستور ١٩٢٣ فى ٩ يوليو ١٩٣٧ فتولى سلطاته الدستورية .

وكان والده الملك فؤاد قد أوصى بأن يضم مجلس الوصاية كل من عدلى باشا يكن وتوفيق باشا نسيم ومحمود باشا فخرى ، وكانت هذه الوصية بتاريخ يرجع أربعة عشر عاما قبل وفاة فؤاد ، وكان أحد المذكورين فى المجلس وهو عدلى يكن قد مات قبل فؤاد فاتفق رأى الحكومة مع البرلمان على أن يختار البرلمان مجلسا جديدا للوصاية مكونا من الأمير محمد على توفيق وعزيز باشا عزت وشريف صبرى (٢) .

وخلال مدة حكم الملك فاروق الأول والتى استمرت حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مرت البلاد بكثير من الظروف التى قد تكون متضافرة أدت إلى قيام هذه الثورة . ففى

---

(١) الرافعى ـ ثورة ١٩١٩ ـ جـ ١ ص ٢٠ ، ٢١ ـ ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) صبرى أبو المجد ـ سنوات ماقبل الثورة ـ جـ ١ ص ٥٨٣ / ٥٨٤ .

د . ناصر الأنصارى ـ موسوعة حكام مصر ـ ص ١٤٣

٢٨ أغسطس ١٩٣٦ وقعت وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس باشا معاهدة مع الانجليز اشتهرت بمعاهدة ١٩٣٦ وفي سنة ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب ضد ألمانيا وإيطاليا فكان من الضروري خروج معاهدة ١٩٣٦ إلى حيز التنفيذ ، ولكن مصر لم تعلن الحرب واكتفت بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا ثم مع إيطاليا ، وظلت مصر على حيادها طوال مدة الحرب وحتى قبيل نهايتها عندما أعلن أحمد باشا ماهر رئيس الوزراء الحرب على قوات المحور لأن ذلك كان شرط دخول هيئة الأمم المتحدة التي كان يجرى تكوينها في ذلك الوقت .

ورغم ذلك فإن مصر قد نالها من ويلات الحرب مانال البلاد الأخرى ، فقد وقع على أرضها معركة من أشرس معارك هذه الحرب وهي معركة الدبابات في العلمين بين قائدين تاريخيين هما مونتجمري الانجليزي قائد قوات الحلفاء والألماني روميل قائد قوات المحور . وقد استند عدم دخول مصر الحرب إلى رأى أبداه أحد دعاة السياسة وهو إسماعيل باشا صدقي عندما أعلن رأيا مفاده أن الهجوم الإيطالي لم يتخذ شكل عدوان على المدن والقوات المصرية ، فهي حرب يخوضها طرف أول محارب ضد طرف ثانى محارب فوق أرض طرف ثالث محايد وخارج عن الخصومة هذه الأراضي محتلة بواسطة الطرف الثاني [١].

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وبدأت الدول المشاركة فيها في تنفيذ المعاهدات والتقاط الأنفاس بعد هذه الحرب الطويلة ، تفجرت في المنطقة العربية مشكلة فلسطين واليهود الذين شكلوا دولة إسرائيل ، وقامت حرب فلسطين ولابد من الإشارة إلى أن أثر حرب فلسطين على مصر كان في أن هذه الحرب البوتقة التي نشأ فيها تنظيم الضباط الأحرار وانصهر فيها أعضاؤه ـ كما أن أحد الأسباب الرئيسية المحركة للثورة كانت صفقة الأسلحة الفاسدة التي عقدت أثناء الحرب ، وكان تأثيرها سلبيا على كل من اشترك محاربا في هذه الحرب ، وقد أشارت أصابع الاتهام إلى بطانة السوء التي تحيط الملك فاروق ، بل لم ينج هو نفسه منها .

---

(١) M . Colombe - op. cit . p. 124.

وحدث آخر واجه مصر فى تلك الفترة وكان له تأثير كبير على إشعال فتيل الثورة وهو إلغاء وزارة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ [١] فى الثامن من أكتوبر ١٩٥١ ، فمنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة من كفاح الشعب ضد الاحتلال البريطانى لمنطقة القناة ، وكانت الحوادث تتدرج وتتدافع يوما بعد يوم نحو الثورة ، وكان الكفاح الشعبى الذى قام به الطلبة والفدائيون على ضفاف قناة السويس من أكتوبر ١٩٥١ إلى أواخر يناير ١٩٥٢ ضد القوات الانجليزية الذين اعتبر الشعب وجودهم فى مركز الغاصب المحتل لمنطقة القناة تجب محاربتهم حتى يرحلوا عن البلاد .

وانتشرت مظاهر الكفاح الشعبى المسلحة ضد البريطانيين ومصالحهم فى منطقة القناة ، وأصبحت الأحداث تنتقل من مدينة إلى أخرى من الإسماعيلية إلى بورسعيد إلى السويس وكفر احمد عبده ، وكان الرد الانجليزى هو إقامة حكم عسكرى فى المنطقة لمواجهة هذا المد الشعبى المقاوم لوجودهم ، ولكن هذا القرار لم يضعف من المقاومة الشعبية بل زادها إصرارا ، وانضمت إليها جماهير الشباب فى القاهرة فخرجت المظاهرات تهتف ضد الاحتلال الانجليزى لمنطقة القناة ، ولكنها أيضا وللمرة الأولى تهتف بسقوط الملك [٢] ، مما أدى إلى إغلاق الجامعات والمدارس إلى أجل غير مسمى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٥١ . أعقب ذلك حدثين على جانب كبير من الأهمية . الأول هو مجزرة الإسماعيلية فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، والثانى فى اليوم التالى مباشرة هو حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ، وانتهز الملك الفرصة فأقال وزارة الوفد برياسة مصطفى النحاس باشا ، والتى كانت فى الحكم منذ حوالى سنتين .

---

(١) ترتب على إلغاء معاهدة التحالف والصداقة بين المملكة المصرية وبريطانيا العظمى عدة نقاط بينها وزير الخارجية محمد صلاح الدين فى خطاب إلى السفير البريطانى منها .

- انتهاء التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى .
- انتهاء تخويل بريطانيا وضع قوات أيا كانت فى منطقة قناة السويس ولن يكون وضع هذه القوات من الآن فصاعدا إلا ضد إرادة الشعب والبرلمان والحكومة المصرية وهو يعد احتلالا بالإكراه وغير مشروع للبلاد
- إلغاء اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ وذلك ينهى النظام الإدارى المؤقت فى السودان بمقتضى الاتفاقيتين .. وكل تدخل انجليزى فى السودان يجب أن يقف فورا ولم يبق سوى الوحدة الطبيعية التى ربطت مصر بالسودان منذ أقدم العصور * يمكن الرجوع للنص الكامل للخطاب عند الرافعى ـ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ـ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الرافعى ـ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ٨٢ ، ٨٣ .

ويتلخص الحدث الأول فى أن الانجليز قد حشدوا قوات ضخمة من جيشهم يضم الدبابات والمصفحات ومدافع الميدان وحاصرت مبنى محافظة الإسماعيلية (مديرية الأمن) وثكنات بلوكات النظام (قوات الأمن) وأنذروهم بتسليم أسلحة جميع قوات البوليس من بلوكات النظام وغيرهم وجلاء قوات الأمن عن دار المحافظة والثكنات مجردة من السلاح ، ولما رفضت هذه القوات الانصياع لهذا الإنذار المهين . ضرب الإنجليز المحافظة والثكنات بالمدافع والقنابل دون هوادة ورد جنود البوليس بدفاع وشرف رغم أن عددهم لم يكن يتجاوز التسعمائة فى مقابل سبعة آلاف جندى انجليزى ناهيكم عن المعدات والعتاد الحربى الثقيل لدى الجيش الإنجليزى ، مقابل التسليح الخفيف المعتاد لجندى البوليس . ودارت بين الجانبين معركة دموية رهيبة سقط فيها خمسين شهيدا من جنود البوليس وثمانين جريحا وأسر الانجليز من بقى حيا من رجال البوليس وضباطهم [١].

أما الحدث الثانى وهو حريق القاهرة ، والذى يعد حتى يومنا هذا من الأسرار الكبرى، فغير معروف على وجه اليقين من كانت القوة المحركة وراء هذا الحدث المفجع المؤلم ، الذى تطور بسرعة رهيبة ، كادت تدمر عاصمة البلاد ، فقد وقعت الحرائق وحوادث الإتلاف والسلب والنهب بمنطقة وسط القاهرة التجارية ، ونتج عنها خسائر جسيمة فى الأرواح والممتلكات ، وكان لها تأثير على اقتصاد البلاد وحركة التجارة فيها[٢]، ويبدو أن فداحة الخسائر جعلت الفاعل الأصلى أو المحرك الرئيسى يتوارى ولايطل برأسه خوفا من المسئولية ومن غضبة الشعب ، وقد أشارت الأصابع إلى الاحتلال الانجليزى الذى أثار السخط فى نفوس الجماهير بفظائعه فى منطقة القناة ، وخاصة مجزرة الإسماعيلية فى اليوم السابق .

كما أشارت أصابع الاتهام إلى حكومة الوفد بإهمالها حفظ الأمن والنظام فى البلاد ، وتراخيها أمام المظاهرات ممالاة للشعب ، كما أشارت أصابع أخرى إلى الملك وأعوانه فى السراى ، الذى كان يتحين الفرصة للخلاص من حكومة الوفد حتى ولو كان ذلك بتدبير

---

(١) الرافعى ـ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ٩٧ ـ ٩٨ ـ ٩٩

لواء على رفاعى ـ كفاح الشرطة فوق أرض القتال ـ مقال فى مجلة الأمن العام العدد ٦٤ ص ١٤٤

(٢) الرافعى ـ المرجع السابق ص ١٢٢ حيث يذكر إحصاء للخسائر منها عدد القتلى ٢٦ ، والجرحى ٥٥٢ ، واحتراق ٣٠٠ محل تجارى و ٣٠ شركة ومكتب و ١٧ شقة سكنية ومكتبية ، و ١٣ من الفنادق الكبرى ، و ٤٠ دار عرض سينمائى ، و٨ معارض سيارات ، و ١٠ متاجر سلاح ، و٧٣ مقهى ومطعما وصالة ، و٩٢ حانة ١٦ ناديا خاصا ، وبنك واحد .

حريق هنا أو مظاهرة هناك . ولكن كما يظهر أن هذه القوة الثلاثة وهي الملك والوفد والانجليز ، والتي ظلت هي القوى المحركة للسياسة المصرية على مدى العقود الثلاثة من العشرينات إلى أوائل الخمسينات ، جميعها كانت لها مصلحة في تدبير أعمال شغب محدودة لتحقيق مآربها ضد القوة الأخرى ، ولكن السيطرة فقدت نتيجة لغليان الشعب ، وحدث حريق القاهرة وتاهت مسئولية الفاعل الأصلي أو المحرك الحقيقي وراءه . ولكنه كان إحدى الشرارات التي فجرت ثورة ٢٣ يوليو ، إذ لم يكد يمضي ستة أشهر عليه حتى قامت الثورة ، وفي هذا يقول جمال عبد الناصر « حرقت القاهرة وحرقت معها كفاحنا في القنال . ومن ذلك اليوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بدأنا نفقد الصبر وبدأنا نفكر في العمل الإيجابي وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا وأن نحطم الطغيان قبل أن يحطمنا»[١].

وكان التجاوب بين الجيش والشعب قد تأصل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فعلى الرغم من أن الشعب لم يشارك في حرب ١٩٤٨ إلا أنه تأثر بنتائجها ، وخاصة بصفقة الأسلحة الفاسدة التي عاني منها الجيش ، وعلى الرغم من أن الجيش لم يستطع المشاركة مع طلبة الجامعات والفدائيين وقوات البوليس في معارك القناة سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ فإنه كان متجاوبا مع الشعب في أهدافه وفي كفاحه ، خاصة بعدما كشفت له حرب فلسطين ١٩٤٨ ، ماكان يجري من خيانة ورشوة وفساد في إدارة الجيش ، فكون بعض الضباط المتحمسين جماعة منهم أطلقوا عليها اسم « الضباط الاحرار » جعلوا هدفهم إنقاذ البلاد بواسطة الجيش والشعب من الانهيار الذي أوصلتها إليه الأوضاع ، خاصة محاور النظام الثلاثة ، الاحتلال والسراي والاحزاب السياسية . واجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار أواخر سنة ١٩٤٩ وكانت تضم في البداية :

١ ــ بكباشي جمال عبد الناصر .

٢ ــ صاغ عبد الحكيم عامر .

٣ ــ صاغ كمال الدين حسين .

٤ ــ صاغ صلاح سالم .

٥ ــ صاغ جمال سالم .

٦ ــ قائد أسراب حسن إبراهيم .

٧ ــ قائد جناح عبد اللطيف البغدادي .

٨ ــ صاغ خالد محيي الدين .

---

(١) الرافعي ــ المرجع السابق ــ ص ١٢٩ .

٩ ـ بكباشى أنور السادات .

١٠ـ بكباشى زكريا محيى الدين

وانتخب عبد الناصر بالإجماع لرئاسة الهيئة ، وأعيد انتخابه في يناير ١٩٥٢ وفي هذا الاجتماع اتفقوا على اختيار اللواء محمد نجيب ليكون قائدا للحركة في يوم تنفيذها [١].

وفي أعقاب حريق القاهرة أقيلت وزارة الوفد ، التى كان يرأسها مصطفى النحاس باشا ، وفي المدة الفاصلة من ٢٧ يناير إلى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تعاقبت على مصر أربع وزارات برئاسة على ماهر باشا ٢٧ يناير ، ثم أحمد نجيب الهلالى ، أول مارس ، ثم حسين سرى باشا ٢ يوليو ، ثم الهلالى باشا مرة أخرى ٢٢ يوليو .

وفي هذه المدة أيضا تم حل مجلس النواب بمرسوم ملكى استصدرته الوزارة في ٢٤ مارس لإجراء انتخابات جديدة ، ولكن الوزارة عادت في ٢ أبريل لتعلن تأجيل الانتخابات إلى أجل غير مسمى [٢]

وفي فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تقوم مجموعة الضباط الأحرار بحركة الجيش بقصد تطهير البلاد من المفاسد التى استشرت فيها ، وفي ٢٦ يوليو تطلب من الملك فاروق مغادرة البلاد والتنازل عن عرش البلاد لابنه الطفل أحمد فؤاد الذى ينادى به ملكا باسم الملك أحمد فؤاد الثانى ملك مصر والسودان ، ويعين له مجلس وصاية يشكل من .

ـ الأمير محمد عبد المنعم ، وبهى الدين بركات باشا ، والقائمقام رشاد مهنا . ويتم تشكيل وزارة مدنية برئاسة على ماهر باشا .

وخلال السنة التالية لحركة الجيش التى حافظت في أول أيامها على الشكل الدستورى للبلاد ، تتغير الأحوال شيئا فشيئا ، فيتم تشكيل مجلس الوزراء برئاسة اللواء محمد نجيب قائد الجيش ، ويضم إلى عضويته بعض الضباط الأحرار الذين يتولون أيضا نصيبا من إدارة البلاد من خلال مجلس قيادة الثورة ، ويصل الأمر إلى إلغاء الحكم الملكى وإعلان الجمهورية في ١٨ يونية ١٩٥٣ ، وتعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس الوزراء ورئيسا لمجلس قيادة الثورة معا .

---

(١) الرافعى ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٩

(٢) المرجع السابق ص ١٣٤ .

الفصل الثاني

النظم والمؤسسات المستحدثة

شهدت مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر مع بداية حكم محمد على تطورا فى شتى المجالات ، بغية إخراج مصر من السبات العميق الذى حل بها إبان حكم العثمانيين ، مما جعلها تتخلف عن ركب الحضارة والتقدم والمدنية ، رغم أن مصر كانت حتى الجزء الأول من الحكم المملوكي نموذجا للتمدن والتقدم ، ونبراسا ينير لها ولمن حولها بل وللعالم أجمع . وكانت تقف على قدم المساواة مع الدول المتقدمة الأخرى فى مقدمة الصفوف الأولى بنظمها المختلفة من سياسية وعسكرية وثقافية وفنية ، آخذة بسبيل التقدم فى الصناعة والزراعة والعلم ، وقد عرفنا كيف أن مصر خلال العصر المملوكى ومن قبله الأيوبى كانت قلعة العرب ، وحصنهم ضد الغزاة من الغرب كالفرنج والحملات الصليبية، أو من الشرق كالتتار ، وشهدنا كيف آوت مصر الخلافة العباسية طيلة ثلاثة قرون بعد القضاء عليها فى بغداد بواسطة التتار .

ومعروف ثراء مصر المادى الذى انعكس على الرعاية والمعونات المادية التى كانت ترسلها كل عام إلى جيرانها ، والتى كانت تمد بها الأقطار الأخرى فى الدولة العربية الإسلامية .

ثم جاءت فترة الحكم العثمانى التى لم يكن لإداة الحكم فى الاستانة هما لها سوى الاستفادة من ثراء مصر وامتصاصه بقدر الإمكان ، دون تنمية مصادرها ، فأصاب البلاد التخلف الشديد ، الذى انكشف أثره مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابارت فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأيا كانت الأسباب فإن المحصلة النهائية لهذه الحملة هو اندحارها بعد ثلاث سنوات فقط ، وقد يكون السبب هو القلاقل الداخلية فى فرنسا ذاتها ، أو الشعب المصرى الأعزل الذى رفضها منذ اللحظة الأولى ، أو بسبب رغبة الانجليز فى الاستئثار بالمنطقة دون الفرنسيين وسياساتهم لذلك ، أو بسبب تدخل الدولة السنية فى تركيا بإرسال بعض كتائب من جنودها ، أو قد يكون لهذه الأسباب مجتمعة وعلى أية حال فقد جلت الحملة الفرنسية عن مصر فى أول عام من القرن التاسع

عشر ، بعد أن كشفت مدى التخلف الذى أصاب مصر فى مختلف الأوجه .

وجاء محمد على إلى الحكم وهو على ثقة وعلى يقين بمايمكن أن تقدمه مصر لمن يرعاها، ويعمل على نهضتها ، فوضع أسس النهضة الحديثة ، وبث روح جديدة فى مختلف الميادين ، فتطورت الزراعة ، وأدخلت عليها نظم جديدة ، وشقت الترع ، وطهرت المصارف ، وأخذ بالسبل الحديثة فى التصنيع وفى التعليم ، واهتم محمد على أيضا بتطوير نظم الحكم والنظم الإدارية والسياسية ، وقد سار خلفاؤه على نفس المنهج تقريبا. وفى هذا المجال تمكنت البلاد من اللحاق بعض الشيء بما فاتها ، واستحقت لذلك أن توصف بأنها مصر الحديثة .

ولدراسة أنظمة الحكم والسياسة والإدارة فى هذه الحقبة التاريخية ، التى تمتد قرنا ونصفا ، منذ تولى محمد على السلطة سنة ١٨٠٥ إلى انتهاء حكم أسرة محمد على بقيام ثورة ١٩٥٢ ، فإننا قد قسمنا تلك الحقبة إلى ثلاث فترات ، الأولى تضم فترة حكم محمد على وإبراهيم وعباس الأول وسعيد من سنة ١٨٠٥ إلى ١٨٦٣ ، وهى تتسم بأن النظم فيها غير واضحة ومشوشة ، وكانت أغلبها هبة أو منحة من الحاكم ، ومحاولة منه للتشبه بالنظم الغربية الأخرى لمحاكاتها من أجل التقدم ، ومن أجل خدمة أهدافه وغاياته الشخصية . أما الفترة الثانية فهى تضم فترة حكم إسماعيل وتوفيق وعباس حلمى الثانى والسلطان حسين وبداية عهد السلطان فؤاد حتى قيام ثورة ١٩١٩ ، وهى فترة تتسم ببداية المطالبات الشعبية بالأخذ بأساليب الحكم المتقدمة ، وفيها تم وضع الدستور الأول ، وأول مجلس نيابى منتخب ، وأول مجلس للوزراء . أما الفترة الثالثة فهى تنحصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ ، وتتميز هذه الفترة بمعالم أوضح ، ورؤية أوسع وأشمل ، ونظم سياسية وإدارية أكثر نضجا وتقدما تقترب من النظم النموذجية العالمية .

وسوف ندرس فى المباحث الثلاثة التالية أهم النظم السياسية والإدارية للبلاد فى هذه الحقب بشيء من التفصيل .

المبحث الأول

من محمد على إلى سعيد (١٨٠٥ - ١٨٦٤)

كانت الحكومة المصرية فى عهد محمد على حكومة مطلقة ، تسود فيها قاعدة حكم الفرد ، وكان الوالى أو الباشا يجمع فى يده كل السلطات ، من تشريعية وتنفيذية وقضائية[1] . إلا أن الاختلاف عما سبق يتمثل فى أن محمد على وضع نظاماً لإدارتها قاصداً القضاء على الفوضى التى كانت سائدة قبله ، فأنشأ بعض المجالس أو الدواوين ليتشاور مع أعضائها قبل إبرام الأمور .

الديوان العالى :

ألف محمد على مجلساً للحكومة يسمى « الديوان العالى » وقد سمى أيضاً « الديوان الخديو » وأطلق عليه البعض « ديوان المعاونة » ، [2] ويضم هذا الديوان فى عضويته رؤساء الدواوين الرئيسية فى الحكومة ويرأسه الكتخدا بك ، وهو بمثابة وكيل الباشا أو نائبه وله سلطة واسعة فى شئون حكم البلاد ، حتى إن البعض يعتبره بمثابة رئيس الوزراء فى العهود الحالية [3].

وفى وقت لاحق اتضحت معالم الحكومة وتطورت حيث وجدت الدواوين لكل فرع من فروع الحكومة ، ولكل ديوان رئيس يطلق عليه « ناظر » وهم بمثابة الوزراء ووجدت فى أول الأمر الدواوين التالية : ديوان الجهادية (الحربية فيما بعد) - ديوان البحرية - ديوان التجارة والشئون الخارجية - ديوان المدارس (المعارف فيما بعد) - ديوان الداخلية - ديوان الأبنية - ديوان الأشغال . بل إنه داخل هذه الدواوين وجد مجلس لكل منها يضم الإخصائيين ، فوجد مجلس للحرب أو الجهادية ، ومجلس للبحرية ، ومجلس

---

(١) د . السيد صبرى - مبادئ القانون الدستورى - القاهرة ط ٤ - ١٩٤٩ ص ٢٦٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى - عصر محمد على - القاهرة ١٩٨٢ ص ٥١٥ .

(٣) المرجع السابق .

للأشغال وهكذا . وكان أعضاء كل مجلس يتداولون فيما بينهم في الأعمال المتعلقة بعمل المجلس قبل البت في أي أمر من الأمور [1].

ومع تقدم الحكومة ألف محمد على سنة ١٨٢٤ مجلسا أسماه « المجلس العالى » يضم إلى عضويته نظار الدواوين ورؤساء المصالح ، واثنين من العلماء يختارهما شيخ الجامع الأزهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة ، واثنين من ذوى المعرفة بالحسابات ، واثنين من الأعيان من كل مديرية بالقطر المصرى ينتخبهما الأهالى ، وتناقش داخل هذا المجلس الأمور العامة قبل إبرامها .

القانون الأساسي :

وضع محمد على باشا في سنة ١٨٣٧ قانونا أساسيا يعرف بقانون « السياستنامة » لتوضيح عمل الحكومة ونظام وطريقة ممارستها لعملها وتحديد أجهزتها من دواوين ومصالح عامة واختصاصات كل منها ، وقد حصر السلطة في سبعة دواوين نذكرها فيما يلى مع اختصاصاتها :

١ ـ الديوان الخديوى : ـ ويختص بالنظر في شئون الحكومة الداخلية العامة ، وله سلطة قضائية إذ كان يفصل في بعض الدعاوى الجنائية . وقد ورد في لائحته التأسيسية أنه يختص بالضبط والربط في مدينة القاهرة . والفصل في الخصومات والشكايات التى ترفع إليه ، أما الدعاوى الشرعية فكان يحيلها إلى المحاكم الشرعية ، وكان يختص بالحكم في جرائم القتل والسرقات إلى أن أنشئت سنة ١٨٤٢ جمعية الحقانية ، التى تولت الاختصاصات القضائية . وكان لهذا الديوان أيضا سلطة الإشراف والرئاسة لبعض المصالح الهامة ، منها مصلحة الأبنية وفروعها ، والمخبز الملكى ، والكيلار العامر ، وهى إدارة المخصصات الغذائية للباشا ، والسلخانة والقوافل والمواشى ، وترسانة بولاق ، والمستشفيات الملكية ، والروزنامة ، وهى إدارة الأموال الأميرية وبيت المال والأوقاف المصرية والبوستة ....

٢ ـ ديوان الإيرادات : ويضم قسمين ، الأول يختص بحسابات المديريات وجزيرة كريت ومنطقة الحجاز وبلاد السودان : أما الثانى فيختص بإيراد مدينتى القاهرة والإسكندرية والجمارك والمقاطعات والزمامات . وكان يقوم بالعمل في هذا الديوان مفتشون للتأكد من تحصيل إيرادات الدولة وصرفها في مصارفها .

---

(١) د . السيد صبرى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٨ .

٣ ـ ديوان الجهادية : ويختص بالنظر فى نظام الجنود البرية ، وضبط وربط حركاتها ، وإصدار التعليمات بشأنها ، وتزويدها بالمهمات والأسلحة ، والاهتمام بالثكنات العسكرية ، ومواضع الخيام والقلاع ، والمستشفيات العسكرية ، والورش ومخازن المهمات الحربية ، ومعامل البارود ، وكافة المصالح العسكرية .

٤ ـ ديوان البحر : ويختص بتنظيم الأسطول (الدونانمه) وضبط وربط حركاته والترسانة والمخازن البحرية والمستشفيات البحرية .

٥ ـ ديوان المدارس : ويختص بجميع أمور المدارس الإبتدائية والتجهيزية والخصوصية (العالية) والمكتبات (الكتبخانات) ومطبعة بولاق وجريدة الوقائع المصرية .

٦ ـ ديوان الأمور الافرنكية والتجارة المصرية : ويختص بالعلاقات الخارجية ومعاملة الأجانب والمبيعات والمشتريات الحكومية .

٧ ـ ديوان الفابريقات : ويختص بالإشراف على جميع الفابريقات التى أنشئت فى مصر وعلى الأخص فابريقة الطرابيش .

وينص قانون السياستنامة على أن رئيس أو ناظر كل ديوان من هذه الدواوين مكلف بأن يقدم للوالى أو الباشا تقريرا اسبوعيا عن أحواله ، وكشفا شهريا بالحسابات يقدم إلى تفتيش الحسابات وميزانية سنوية عن الإيرادات والمصروفات .

فى سنة ١٨٤٧ أنشأ محمد على مجلسا آخر اسماه « المجلس الخصوصى » يختص بالنظر فى شئون الحكومة الكبرى ، وسن اللوائح والقوانين ، وإصدار التعليمات لجميع المصالح ، وهذا المجلس كان يرأسه إبراهيم باشا ، ويضم إلى عضويته كتخدا باشا وهو عباس باشا حفيد محمد على [١].

وفى عهد عباس الأول أعيد تأليف هذا المجلس بمقتضى لائحة أصدرها فى سنة ١٨٤٩ وتولى رئاسته الكتخدا ، وهو أكبر موظفى الحكومة ، وكان أعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، ويختص بالنظر فى المسائل العامة للحكومة ، وسن اللوائح والقوانين ، وترتيب النظم العمومية ، وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى ، وظل هذا المجلس قائما إلى أن خلفه مجلس النظار فى عهد إسماعيل [٢].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر إسماعيل ، جـ ١ ـ القاهرة ١٩٨٢ ـ ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

تطـورات عهـدي عبـاس وسـعيد :

ظلت الأنظمة التي أنشأها محمد علي وطورهـا سائدة في عهد خلفائه إبراهيم وعباس وسعيد ، وإن طـرأت بعض التغييرات من الناحيـة الواقعية العملية اقتضتهـا شخصية الحاكم التي اتسمت بـالضعف خاصة في عهد كل من عبـاس وسعيد ، وعلى سبيل المثال ساءت أحوال المدارس وألغى معظمها ، ولكن من جهـة أخرى يرجع إليه الفضل في ضبط الأمن والضرب على الاشقياء وقطاع الطرق ، كما أن مشروع إنشاء السكة الحديدية للربط بين الإسكندرية والسويس عن طريق القاهرة قد أقر وشرع في تنفيذه في عهده [1].

أما سعيد باشا فقد أعاد تنظيم الدواوين في سنة ١٨٥٧ ، وجعل منها أربع نظارات ، هي نظارة الداخلية ، ونظارة المالية ، نظارة الحربية ، ونظارة الخارجية [2].

فتقلصت الحكومة في عهده . ولكن من جهة أخـرى فقد كانت له إصلاحات تشريعية هامـة ، منها إصـدار اللائحة السعيـدية سنـة ١٨٥٨ ، وهي عبارة عـن قانـون خاص بإصلاح حال الفلاح وتخويله حق الملكية العقارية للأرض الزراعية بعد أن كان محروما من حق التملك في عهد محمد علي ، وتعد هـذه اللائحة أساس تشريعات ملكية الأطيان في مصر . كما ألغى سعيد أيضا نظام احتكار الحاصلات الـزراعية الذي كان مأخوذا به في عهد محمد علي [3].

الهيئـات الاستشـارية :

تميزت هذه الحقبة بفترات اضطراب في المجالـس المنظمة ، ويمكن أن نعتبر مـاسبق عرضه هو إرهاصات لهذه المجالس ، فالسلطة التنفيذية لم تكن ذات معالم واضـحة ، فلم يكن هنـاك مجلس للـوزراء ، ولكن وجـدت مجالس مستحـدثة أدخلـت بعض الأفكـار الجديـدة التي أخـذت تتطور وتتبلـور ، فكانـت بمثابـة النواة لما سـوف يظهر في عهـد إسماعيل ، ثم تستقر وتأخذ بأحدث الأساليب في عهد فؤاد .

وماينطبق على السلطة التنفيذية يكاد ينطبق على السلطة التشريعية مع خطوة واحدة إلى الوراء .

ففي سنـة ١٨٢٩ ألف محمد علي « مجلس المشـورة » على شكل هيئة شعبيـة تمثل

---

(١) المرجع السابق ـ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠

طبقات الأمة ، وهو مجلس شبه نيابى ، يتألف من كبار موظفى الحكومة والعلماء والأعيان ، ويرأسه إبراهيم باشا ، وكان عدد أعضائه ١٥٦ عضوا ، منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء ، و٢٤ من مامورى الاقاليم ، و٩٩ من كبار أعيان القطر المصرى ، وهو وإن كان مجلسا أشبه بالمجالس النيابية إلا أن سلطاته كانت استشارية ، وكانت مشورته مقصورة على مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية ومايقترحه الأعضاء فى هذا الإطار ، وكان ينعقد مرة واحدة فى السنة وقد يستمر انعقاده عدة جلسات [١].

أما عباس وسعيد فقد أهملا مجلس المشورة ولم يظهر له أى أثر فى عهديهما [٢].

النظم الإدارية :

كانت مصر مقسمة إلى ١٦ إقليما طبقا للتقسيم الذى كان معمولا به فى أواخر عهد الحكم العثمانى [٣].

وأدخل محمد على تعديلا جعل مصر مقسمة إلى خمس محافظات وسبع مديريات جعل عليها حكاما أسماهم المديرين وهى :

المحافظات فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط والسويس .

أما المديريات ففى الوجه البحرى أربعة الأولى تشمل البحيرة والقليوبية والجيزة ثم صارت البحيرة مديرية قائمة بذاتها وكذلك الجيزة .

والثانية تشمل المنوفية والغربية ثم انفصلت كل منهما عن الأخرى وصارت مديرية قائمة بذاتها .

والثالثة تشمل المنصورة .

والرابعة تشمل الشرقية .

وفى مصر الوسطى مديرية واحدة من جنوبى المنيا إلى جنوبى الجيزة ثم سميت مديرية الاقاليم الوسطى وكانت تشمل بنى سويف والفيوم والمنيا .

وفى الوجه القبلى مديريتان الأولى من شمالى قنا إلى جنوبى المنيا ، والثانية من وادى حلفا إلى قنا ، ثم سميت أسيوط وجرجا مديرية نصف أول وجه قبلى ، وسميت قنا وإسنا مديرية نصف ثانى وجه قبلى [٣].

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ـ تاريخ الحركة القومية ـ جـ ١ ص ١٠٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ عصر إسماعيل ـ جـ ١ ص ٤٩ .

(٣) الرافعى ـ عصر محمد على ، ص ٥٢٥

وقسمت كل مديرية من هذه المديريات إلى مراكز ، والمراكز إلى أقسام أو أخطاط ، وسمى رؤساء المراكز المأمورين ورؤساء الأقسام النظار . ويشمل القسم في دائرته جملة نواح (قرى) لكل ناحية رئيس يدعى «شيخ البلد » الذى حل محله الآن « العمدة » . ومن الوظائف المعاونة له « الخولى » الذى يتولى مسح الأطيان ، وكذلك « الصراف » لجمع أموال الميرى ، « والشاهد » وهويقابل المأذون حاليا [1].

ولم يتغير النظام الإدارى كثيرا في عهد خلفاء محمد على .

(١) الرافعى ـ عصر محمد على ، ص ٥٢٦ .

المبحث الثاني

من إسماعيل حتى قيام ثورة ١٩١٩

رأينا أن هذه الحقبة تشمل من الناحية السياسية أسوأ ما مر بمصر من أحداث ، بدءا من تأسيس صندوق الدين ، الذي أدى بصورة أو بأخرى إلى الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ ، ثم وضع مصر تحت الحماية البريطانية سنة ١٩١٤ ، وتنتهي ببارقة أمل تمثلت في ثورة شعبية عارمة أعادت لمصر بعض حقوقها المسلوبة .

أما عن الأنظمة فقد شهدت هذه الفترة تأسيس بعض النظم الهامة كانت نواة لمجالس سوف تستقر فيما بعد .

وقبل أن نعرض لتأسيس المؤسسات المشار إليها قد يكون من المناسب استعراض حدثين قانونيين هامين وقعا في عهد إسماعيل وكانا نتيجة لمجهوداته : الأول هو سعي إسماعيل في أن يئول العرش إلى اكبر أنجاله الذكور بدلا من النظام القديم الذي فرضه فرمان ١٨٤١ ، الذي كان يقضي بأن يئول عرش مصر إلى أكبر ذكور الأسرة سنا ، ونجح إسماعيل في مسعاه ، وصدر فرمان من الباب العالي في الأستانة في مايو ١٨٦٦ يقضي بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتي مصوع وسواكن إلى أكبر أولاده ، ومن هذا إلى أكبر أبنائه وهلم جرا . ونص هذا الفرمان أيضا على إمكانية زيادة الجيش إلى ثلاثين ألفا بدلا من ثمانية عشر ألفا في فرمان ١٨٤١ ، والواقع أن الجيش كان يزيد عن هذا العدد من قبل ، كما أقر هذا الفرمان حق مصر في ضرب نقود مختلفة العيار عن النقود العثمانية ، وأخيرا في أحقية والي مصر في منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية [١]، ولاشك أن هذا القرار يبين المدى الذي تتمتع به مصر من حرية في مواجهة دولة الخلافة السنية في تركيا حتى أصبح ارتباطها بها يكاد يكون إسميا ، فلم يعد للدولة العثمانية حق التدخل في تعيين والي مصر ، واستقلت مصر اقتصاديا وذلك من خلال ممارسة حقها في سك نقودها ، وزادت اختصاصات والي مصر في حق منح الرتب وزيادة عدد الجيش ،

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ـ عصر إسماعيل ـ جـ ٢ ص ٧٩ .

وأصبح لمصر شبه استقلال عن الدولة العثمانية وأصبح لها وضع متميز فى تلك الدولة ، وقد وضح ذلك فى الفرمان الصادر فى العام التالى ١٨٦٧ الذى يخول إسماعيل وخلفاءه فى مصر الحق فى لقب « خديو » بعد أن كان واليا فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب الجديد إلى مرتبة تقرب من مراتب السلاطين .

وكلمة خديو كلمة فارسية تضع الملقب بها فى درجة أقل من الخلافة وأعلى من الوزارة، ومنذ ٨ يونية ١٨٦٧ أصبح لها استعمال واحد فى الإمبراطورية العثمانية هو للدلالة على حاكم مصر[1].

وأكمل هذا الفرمان مظاهر الاستقلال المصرى ، فأقر حق الحكومة المصرية فى إدارة شئونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب داخل البلاد [2].

ترتب على هذه الأحداث الهامة والاستقلال الذى نالته مصر عن دولة الخلافة أن حاول الخديو إسماعيل إدخال بعض النظم الحديثة على البلاد من خلال مجلس نيابى ونظام دستورى ومجلس للنظار .

الدســـتور :

حاول الخديو إسماعيل وضع نظام دستورى على أحدث المبادئ العصرية وهو وإن لم يصدر به مرسوما خديويا إلا أن البعض درج على أن يطلق عليه لفظ « الدستور الأول» لأن الحكومة ارتضته دستورا للبلاد ، وقدمته لمجلس شورى النواب لينال إقراره[3] ، ولكن هذا الدستور لم يصدر نظرا لخلع الخديو إسماعيل من الحكم وتنصيب توفيق مكانه .

وحاول الخديو توفيق فى أول الأمر القضاء على الحركة الدستورية بغية الرجوع إلى الحكم المطلق ، ولكنه تحت تأثير أحمد عرابى وثورته ومطالبه وافق على إصدار دستور ١٨٨٢ الذى ارتضاه مجلس النواب سنة ١٨٨١ وكان أساس هذا الدستور الديمقراطية وإرادة الأمة .

ولكن الاحتلال الانجليزى الذى حل بالبلاد لم يلبث أن ألغى هذا الدستور وحل محله

---

(١) حسن الباشا ـ الألقاب الإسلامية ، ص ١٠٧ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ـ ٨٣ .

(٣) الرافعى ـ المرجع السابق ص ٢١٢ .

نظام وضعه اللورد دفرين [١] . خاصة أن وضع مصر القانوني بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ أصبح مركزا شاذا ، فهي من الناحية الدولية معتبرة ولاية عثمانية مستقلة استقلالا داخليا ، ومن ناحية الواقع هي بلاد محتلة باحتلال غير شرعي ، وأصبحت انجلترا هي صاحبة السلطة الحقيقية في البلاد ، وقد قام اللورد دوفرين سفير انجلترا في الأستانة ومندوبها فوق العادة في مصر بدراسة حالة القطر ، ووضع مشاريع مختلفة لأعمال التنظيم الداخلية [٢].

وقد رأى اللورد دوفرين إلغاء دستور ١٨٨٢ ووضع نظام إصلاح جديد ووضع تقريرا صدر على أساسه القانون النظامي الجديد في أول مايو ١٨٨٣ الذي أوجد مجالس للمديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية [٣].

وظل الوضع على ذلك حتى صدور دستور ١٩٢٣ كما سوف يأتي ذكره .

المجالس النيابية « البرلمان » :

في عام ١٨٦٦ أنشأ إسماعيل أول مجلس نيابي مصري على النمط الحديث ، وهو مجلس شورى النواب ، وكان أعضاء هذا المجلس ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ، ويتولى انتخابهم عمد ومشايخ البلاد في المديريات وجماعة الأعيان في القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وكان عدد نواب كل مديرية بحسب تعدادها [٤].

وكان هذا المجلس يجتمع شهرين في كل سنة في القاهرة وكانت جلساته سرية . وكان من حق الخديو تعيين رئيس المجلس والوكيلين .

وقد عقد هذا المجلس ثلاث أدوار انعقاد ثم أقيمت انتخابات جديدة ومجلس جديد سنة ١٨٧٠ بثلاث دورات انعقاد أيضا وفي سنتي ٧٤ ، ١٨٧٥ لم يدع المجلس للانعقاد [٥].

كما أجريت انتخابات ثالثة ومجلس ثالث من ١٨٧٦ إلى ١٨٧٩ ، وفي عهد الخديو توفيق أجريت انتخابات لمجلس جديد في نوفمبر ١٨٨١ وعقدت أول جلسة له في

---

(١) د . السيد صبري ـ المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(٢) د . السيد صبري ـ المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٣) د . السيد صبري ـ المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(٤) عبد الرحمن الرافعي ـ عصر إسماعيل ـ جـ ٢ ص ٩٠ .

ـ جاكوب لاندو ـ الحياة النيابية والأحزاب في مصر ـ ترجمة سامي الليثي القاهرة بدون تاريخ ص ١٥ .

(٥) عبد الرحمن الرافعي ـ المرجع السابق ـ ص ١٤١ .

ـ جاكوب لاندو ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥ ومابعدها .

ديسمبر ١٨٨١ بحضور الخديو – وفي مارس ١٨٨٢ صدر قانون جديد للانتخابات[1].

وفي عهد الاحتلال الانجليزي تغير النظام البرلماني ، حيث وجد مجلسين ، الأول هو المجلس التشريعي وهو مجلس شورى القوانين ، عدد أعضائه ثلاثون عضوا ، أما الثاني فهو الجمعية العمومية وعدد أعضائها ٨٢ عضوا [2].

وظل هذان المجلسان يجتمعان بصفة شبه منتظمة من ١٨٨٣ إلى ١٩١٢ وإن كان دورهما في الحياة السياسية في مصر كان ضئيلا .

وفي سنة ١٩١٣ طرأ تغيير جديد على الحياة النيابية في مصر ، إذا صدر في أول يوليو قانون بإنشاء مجلس تشريعي أطلق عليه :

الجمعية التشريعية مكونة من الوزارة وستة وستين عضوا منتخبا وسبعة عشر عضوا معينا[3].

ولم يدع هذا المجلس للاجتماع طيلة فترة الحرب العالمية الأولى ، حيث تم تأجيل دورة أكتوبر سنة ١٩١٤ نظرا لإعلان حالة الطوارئ في البلاد .

والواقع أن القانون قد أعطى لهذه الجمعية صلاحيات أكثر من المجالس السابقة إذ أصبح لايمكن إصدار قانون دون عرضه وموافقته عليه .

وكان رئيس هذا المجلس بالتعيين ، وشغله محمد مظلوم ، أما منصب نائب الرئيس فكان بالانتخاب من بين الأعضاء ، وقد فاز به سعد باشا زغلول [4].

مجلس النظار :

لم يكن يضم الوزراء مجلس ، بل كان النظار يعينهم الوالي لمعاونته ، ويضمهم المجلس الخصوصي العالي ، الذي يضم معهم من يختاره الخديو ، وكانت سلطاته محدودة ، ثم أصدر إسماعيل في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ أمرا بإنشاء مجلس للنظار وتخويله مسئولية الحكم ، وعهد إلى نوبار باشا بتأليف الوزارة .

---

(١) جاكوب لاندو – المرجع السابق – ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق – ص ٤٤ .

(٣) السيد صبري – المرجع السابق – ص ٢٩٠ .
– جاكوب لاندو – المرجع السابق – ٥٥ .

(٤) السيد صبري – المرجع السابق – ص ٢٩٢ .
– جاكوب لاندو – المرجع السابق – ص ٥٧

وقد حدد الخديو في هذا الأمر مهام واختصاصات هذا المجلس وإطار عمله ، وهو يعد أول مجلس وزراء بالمفهوم الحديث :

- هو هيئة مستقلة عن ولي الأمر تشاركه في الحكم وتحمل المسئولية
- أعضاء المجلس متضامنين في المسئولية .
- تؤخذ قراراته بالأغلبية .
- رئاسة هذا المجلس من حقوق رئيسه وليس للخديو أن يرأسه [1] .

وكان عدد الدواوين أو النظارات فيما بعد والتي سميت وزارات في وقت لاحق غير ثابت دائما ، ولكن هناك وزارات ثابتة وهي : الداخلية والمالية والمعارف والحقانية والحربية والبحرية والأشغال والخارجية والأوقاف ، وكانت تنشأ وتلغى وزارات أخرى من حين لآخر مثل الزراعة والتجارة .

ومنذ ذلك العهد استمر وجود مجلس النظار مع تطورات في اختصاصاته وعدد أعضائه .

الحكم المحلي :

صارت البلاد مقسمة في عهد إسماعيل إلى تسع محافظات ، هي القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط وبورسعيد والعريش والاسماعيلية والسويس والقصير ، بالإضافة إلى ١٣ مديرية هي : الجيزة - الغربية - الشرقية - الدقهلية - المنوفية - القليوبية - البحيرة - بني سويف والفيوم - المنيا وبني مزار - أسيوط - جرجا - قنا - إسنا .

وكانت المحافظات يرأسها محافظون ، والمديريات يرأسها مديرون ، واستمرت المديريات مقسمة إلى مراكز ، والمراكز إلى أخطاط أو أقسام ، والأقسام إلى نواح وبلاد ، وتغير اسم مشايخ البلاد فصاروا يعرفون بالعمد ، وتحت أيديهم المشايخ وجعل تعيين هؤلاء وأولئك بانتخاب الأهالي [2] .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي - المرجع السابق - ص ٨٥ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - المرجع السابق - ص ٢٥٩.

المبحث الثالث

بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢

رأينا في الفصل السابق كيف أدى قيام ثورة الشعب سنة ١٩١٩ إلى حصول مصر على استقلالها بموجب تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وترتب على هذا الاستقلال أن أصبحت مصر مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية المتداعية على الرغم من أن تبعيتها للدولة السنية لم يكن إلا شكليًا بحتًا طوال السنوات السابقة ، ويظهر ذلك من الأنظمة التي استحدثت في البلاد .

الحاكم :

كان الحاكم هو السلطان فؤاد الأول ولكن الدولة تغير شكلها من سلطنة مصر إلى المملكة المصرية ، وبالتالي أصبح أحمد فؤاد الأول ملكا لمصر طبقا للأمر رقم ٦٨ لسنة ١٩٢٢ في ١٥ مارس .

أما ولي العهد فكان يكتسب لقبا آخر ، هو أمير الصعيد، وكان الأمير فاروق ابن الملك فؤاد الأول هو ولي العهد وأمير الصعيد طبقا للأمر الملكي الصادر في يناير ١٩٢٤ ، ويبدو أن الملك فؤاد كان يتشبه ببريطانيا ، التي تطلق على ولي العهد ' أمير ويلز ، على أية حال فلم تكن هذه التسمية تستعمل كثيرا خاصة وأن الملك فؤاد توفي سنة ١٩٣٦ وأصبح فاروق ملكا .

الدستور :

غداة الاستقلال تم تشكيل لجنة هي اللجنة العامة لوضع مبادئ الدستور من ثلاثين عضوا .. وعرضت هذه اللجنة أعمالها على اللجنة الاستشارية التشريعية بوزارة العدل ، فأدخلت عليها بعض التعديلات غير الجوهرية ثم صاغتها الصياغة القانونية النهائية وصدر الدستور الجديد في ١٩ أبريل ١٩٢٣[١].

---

(١) د. السيد صبري ـ المرجع السابق ـ ص ٢٩٥ .

وكانت أغلب الأفكار الأساسية لهذا الدستور مأخوذة عن دستور بلجيكا الصادر سنة ١٨٣٠ ، نظراً لتشابه ظروف البلدين من أنهما ملكيتان دستوريتان [١].

وظل هذا الدستور هو دستور مصر إلى مابعد قيام ثورة ١٩٥٢ وإلغائه سنة ١٩٥٣ كما سنرى . مع فترة انقطاع دامت حوالى خمس سنوات من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٥ ـ عندما تبنى إسماعيل باشا صدقي دستوراً جديداً أقل تحرراً في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ إلا أنه ألغى وأعيد دستور سنة ١٩٢٣ مرة أخرى بعد إعادة تبويبه في ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ [٢].

البرلمــــان :

أخذ دستور ١٩٢٣ بنظام المجلسين فنص على أن يتكون البرلمان من مجلسين مجلس للشيوخ ومجلس للنواب [٣].

ويتكون مجلس الشيوخ من أعضاء معينين وآخرين منتخبين ، وتبلغ نسبة المعينين الخمسين أما الثلاثة أخماس فينتخبون بالاقتراع العام . وقد بلغ عدد الشيوخ في أول مجلس سنة ١٩٢٤ مائة وسبعة وأربعين عضواً حسب تعداد كل محافظة أو مديرية .

بينما اختلف عنه دستور سنة ١٩٣٠ في أنه حدد أعضاء مجلس الشيوخ بعدد ثابت هو مائة عضو ، وأعطى الملك حقاً أوسع يقضي بتعيين ستون منهم بينما ينتخب الأربعون الباقون بانتخابات عامة على درجتين [٤].

ويتشابه الدستوران في أن الملك يعين رئيس مجلس الشيوخ من بين الأعضاء بينما ينتخب المجلس الوكيلين .

أما مجلس النواب فلم يحدد دستور ١٩٢٣ عدد نوابه أيضاً بينما حددهم دستور سنة ١٩٣٠ بمائة وخمسين نائباً .

وقد حصل حزب الوفد في أول انتخابات لمجلس النواب في ٢٧ سبتمبر ١٩٢٣ على الأغلبية المطلقة ، فقد حصل على ١٨٨ مقعداً من مجموع المقاعد البالغ عددها ٢١٥ مقعداً، واجتمع هذا المجلس للمرة الأولى في ١٥ مارس ١٩٢٤ .

---

(١) جاكوب لاندو ـ المرجع السابق ـ ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ـ ص ٦٩ .

(٣) المادة ٧٣ من الدستور .

(٤) د . السيد صبري ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٠ .

وكما تقضى التقاليد النيابية فقد كلف الملك فؤاد زعيم الوفد سعد زغلول بتشكيل الوزارة .

واستمر هذا هو النظام السائد فى البرلمان فى عهدى الملك فؤاد والملك فاروق إلى قيام ثورة ١٩٥٢ .

الباب الثالث عشر

أسرة الجمهورية

أدى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى تقويض عرش أسرة محمد على وتنحيتها عن حكم مصر بعد قرن ونصف من الزمان ، منذ أسسها محمد على سنة ١٨٠٥ إلى أن قامت الثورة وأجبرت آخر حاكم فعلى من هذه الأسرة وهو الملك فاروق الأول على التنازل عن العرش لصالح ابنه وولى عهده أحمد فؤاد ، الذى أصبح يحمل لقب الملك أحمد فؤاد الثانى وهو طفل لم يبلغ العام الأول من عمره تحت وصاية لجنة من الأوصياء مكونة من أحد أمراء البيت الملكى وأحد ضباط الجيش وأحد الوجوه السياسية البارزة المشهورة باعتدالها كما سنرى .

ولم يمض على هذا الوضع أحد عشر شهرا حتى سقطت الملكية تمامًا ، وتم إعلان الجمهورية فى مصر فى ١٨ يونيه ١٩٥٣ .

وكان أول رئيس لجمهورية مصر : اللواء محمد نجيب ولكنه نُحّى فى نوفمبر ١٩٥٤ وتولى جمال عبد الناصر مقاليد الأمور بصفته رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة إلى أن انتخب رئيساً للجمهورية فى يناير ١٩٥٦ وبعد وفاته سنة ١٩٧٠ أعقبه فى رياسة الجمهورية محمد أنور السادات ثم الرئيس محمد حسنى مبارك .

ورغم أن فترة حكم الأسرة الجمهورية هى الفترة المعاصرة لنا ، التى قد يكون البعض منا عايش تفاصيلها كلها أو على الأقل جزءا منها إلا أننى آثرت مع ذلك عرضها حتى تكتمل حلقات سلسلة التاريخ المصرى الطويل .

وندرس هذه الفترة فى فصلين ، نعرض فى الأول منهما سردا تاريخيًا سريعا لأحداث هذه الحقبة ، أما الفصل الثانى فنخصصه للمؤسسات السياسية وتطوراتها المتلاحقة .

الفصل الأول

من الملكية إلى الجمهورية

زاد الإحساس لدى المصريين منذ أواخر أربعينات هذا القرن بانتشار الفساد بصور شتى في أجهزة البلاد ، وأدى ذلك إلى شعور قومي ينمو في النفوس للتخلص من هذا الفساد ، والقضاء على رأسه الذى تمثل فى الاحتلال الانجليزى أولا ثم السراى وأعوانها ثانيا . ونما هذا الشعور القومي أيضا داخل الجيش كأحد القطاعات المتأثرة بما يجرى فى البلاد ، وغداة حرب فلسطين ١٩٤٨ ترجم الجيش هذا الشعور القومــى إلى كيان منظم أطلق على نفسه « الضباط الأحرار » وكان مشكلا من مجموعة صغيرة من الضباط ذوى الرتب الوسطى فى الجيش المصرى . وفى غضون سنتين تمكن هذا التنظيم من اكتساب أنصار جدد داخل صفوف الجيش .

وفى أول اختبار عملى لهذا التنظيم على مستوى الجيش ظهر مدى الشعبية التى يتمتع بها عندما تم ترشيح بعض أعضاء الضباط الأحرار لانتخابات نادى ضباط الجيش فى ديسمبر ١٩٥١ فى قائمة اختاروا على رأسها اللواء محمد نجيب ، ضد قائمة أخرى يعضدها القصر الملكى ، وكانت النتيجة اكتساح القائمة الأولى مما أدى إلى إلغاء الانتخابات .

وفى فجر الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ قام الجيش بقيادة تنظيم الضباط الأحرار[1] باحتلال المناطق الحيوية ومحاصرة النقاط الاستراتيجية ، كالقصور الملكية ووزارة الحربية ومبنى الإذاعة . وكان الملك والحكومة فى مدينة الاسكندرية ، وهى المقر الصيفي كما كانت العادة . وفى بضع ساعات كانت لحركة الجيش السيطرة الكاملة رغم

---

(١) تشكلت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى أواخر سنة ١٩٤٩ ، وكانت تضم فى البداية البكباشى جمال عبد الناصر وقائد الجناح جمال سالم والبكباشى زكريا محيى الدين والصاغ صلاح سالم والصاغ عبد الحكيم عامر وقائد الجناح عبد اللطيف البغدادى والبكباشى أنور السادات والبكباشى حسين الشافعى والصاغ كمال الدين حسين وقائد الأسراب حسن إبراهيم والصاغ خالد محيى الدين . وانتخب جمال عبد الناصر رئيسا لهذه الهيئة التأسيسية سنة ١٩٥٠ ثم سنة ١٩٥١ ثم سنة ١٩٥٢. وقد اتفقوا فى سنة ١٩٥١ غداة انتخابات نادى الضباط على اختيار اللواء محمد نجيب قائدا للحركة عند تنفيذها . راجع فى تفاصيل ذلك عبد الرحمن الرافعى - ثورة ٢٣ يوليو - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٢٦ .

أعدادهـم القليلة وعتادهـم المتوسط ، ودون إراقـة نقطة واحدة مـن الدماء ، مما جعلها تستحق فعـلا فيما بعد لقـب الثورة البيضاء ، وأذيع البيان الأول للثـورة في الإذاعة في الساعة السابعة والنصف صباحا [١].

واستقالـت وزارة أحمد نجيب الهلالي التـي كان قـد ألفها في اليـوم السابـق مباشرة وحلف أعضاؤها اليمين أمام الملك مساء يوم ٢٢ يوليو .

وطلبت حركة الجيش مـن علي باشا ماهر تأليف وزارة جديـدة ، فطلب منهم أن يتم هذا بـالطريق القـانونـي أي بتكليف من ملـك البلاد ، وصدر بـالفعل التكليـف الملكي ، وشكلت وزارة علي ماهر في الرابع والعشرين من يوليو .

وفي اليوم التالي أذعن فـاروق لطلب آخر لقادة الحركة ، وهو إبعاد ستـة من حاشيته الذين كانت الشبهات تحوم من حولهم منذ مدة [٢].

وكانت الثورة قد فرضت تعيين اللواء محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة وأذعن الملك .

---

(١) نص البيان من كتاب عبد الرحمن الرافعي ـ المرجع السابق ص ٢٢ .

« اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعـدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضـون في هزيمتنا في حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونـة على الجيش ، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميهـا ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا في داخـل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خُلقهم وفي وطنيتهم ، ولابدّ أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب .

« أما من رأينـا اعتقالهم من رجال الجيـش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم في الـوقت المناسب ، وإني أؤكد للشعـب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الـوطن في ظل الدستور مجردًا من أية غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب مـن الشعب ألاّ يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس في صـالح مصر ، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشـدّة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونـاً مع البوليس ، وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم ، والله ولي التوفيق » .

ويمكن الاطلاع على البيانات التالية في نفس المصدر وهي ثلاثة بيانات أذاعها اللواء محمد نجيب متضمنة نفس المعنى .

(٢) وهم : ــ انطون بـولي ، مديـر الشئون الخصـوصية . ومحمـد حسن الحاجب الخاص . وإلياس انـدراوس المستشار الاقتصـادي للخاصـة الملكية . ويوسـف رشاد كبير أطباء اليخوت الملكية . وحسـن عاكـف الطيار الخاص للملك . والأميرالاي محمد حلمي حسين مدير إدارة السيارات الملكية وسائقه الخاص سابقا .

راجع في تفاصيل ذلك . الرافعي ـ المرجع السابق ص ٣٨ .

وفي يوم ٢٦ يوليو توجه إلى الاسكندرية اللواء محمد نجيب والبكباشي أنور السادات حيث قابلا علي باشا ماهر في الساعة التاسعة صباحا وسلماه إنذارا إلى فاروق بالتنازل عن العرش [١] وطلبا أن يتم التنازل قبل ظهر ذلك اليوم . وأن يغادر فاروق البلاد قبل الساعة السادسة مساء . ونقل علي ماهر الإنذار شفويا إلى الملك ونصحه بقبول طلبات الجيش . وتم تكليف سليمان حافظ وكيل مجلس الدولة بتحرير وثيقة التنازل عن العرش الذي حررها ثم قرأها الملك ووقعها [٢] وصدر بهذا التنازل الأمر الملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ [٣].

---

(١) نص الإنذار من كتاب عبد الرحمن الرافعي - المرجع السابق - ص ٤٠

« من الفريق (أركان الحرب) محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق الأول .

« إنه نظرا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمّت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لايطمئن على حياته أو كرامته .

« ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير .

« ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

« لذلك ، قد فوضني الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١) ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج »

الإسكندرية في يوم السبت ٤ ذو القعدة سنة ١٣٧١هـ

يوليو سنة ١٩٥٢ محمد نجيب

فريق أركان حرب

(٢) يلاحظ من صورة وثيقة التنازل أن الملك وقعها توقيعين أحدهما بأعلاه والآخر بأسفلها ، ويبدو أن الملك وقع أولا أعلى اسمه وهي عادة ملكية في الوثائق خاصة براءات الأوسمة ولكن التوقيع كان مهتزا بعض الشيء فوقعها مرة أخرى في ذيلها .

(٣)نص وثيقة التنازل :

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها .

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة ونزولا على إرادة الشعب قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه .

صدر بقصر رأس التين في ٤ ذي القعده ١٣٧١ (٢٦ يوليو ١٩٥٢) .

وغادر الملك المخلوع الإسكندرية إلى إيطاليا على اليخت الملكي « المحروسة » وسط مظاهر التكريم اللائقة حيث عزفت له الموسيقى السلام الوطني ورفعت الأعلام ، وأطلقت المدفعية ، كما توجه اللواء محمد نجيب ومعه مجموعة من الضباط الأحرار لتوديعه على ظهر المحروسة ، التي أبحرت في الموعد المحدد [1] وفي نفس اليوم نادى مجلس الوزراء بالملك احمد فؤاد الثاني ابن فاروق ملكاً للبلاد ، وأعلن أنه سيباشر سلطاته الدستورية إلى أن يسلمها إلى مجلس الوصاية ، الذي تألف في الثاني من أغسطس من كل من :

ـ الأمير محمد عبد المنعم ابن الخديو عباس حلمي الثاني ابن الخديو توفيق ابن الخديو اسماعيل وكان يعرف بالاتزان من بين أفراد الأسرة المالكة .

ـ بهي الدين بركات باشا وهو من الوجوه السياسية المعروفة بالاعتدال .

ـ القائمقام محمد رشاد مهنا وكانت له مواقف في توصيل رغبات الضباط الأحرار إلى القصر قبل الثورة .

ولم يدم المجلس بهذه الصورة طويلاً فقد أقيل القائمقام محمد رشاد مهنا بقرار من مجلس الوزراء في ١٢ اكتوبر ١٩٥٢ .

وفي اليوم التالي استقال من مجلس الوصاية بهي الدين بركات باشا وبقي وصي العرش المؤقت الأمير محمد عبد المنعم ، ولم يكن له دور حقيقي اللهم إلا الشكليات البحتة.

حتى يناير ١٩٥٣ كانت « حركة الجيش » هي مايطلق على الثورة سواء على المستوى الرسمي حيث كانت تسمى حركة الجيش [2] أو على المستوى الإعلامي حيث كانت الجرائد والإذاعة تطلق عليها « الحركة المباركة » [3].

وتتوالى الأحداث الهامة ، فيتولى محمد نجيب رئاسة الوزراء بدلا من علي ماهر في ٧ سبتمبر ١٩٥٢ ، ثم يصدر قانون الإصلاح الزراعي في سبتمبر [4] الذي قضى بتحديد حد أقصى للملكية الأراضي الزراعية بمائتي فدان ، ثم قانون تنظيم الأحزاب السياسية[5]

---

(١) د . ناصر الانصاري المراسم في القانون العام المصري ـ رسالة دكتوراه الدولة باللغة الفرنسية ـ جامعة مارسيليا ١٩٨٥ ـ ص ٤٥١

(٢) صدر مرسوم بقانون في ١٣ نوفمبر ١٩٥٢ يقضي باعتبار كل تدبير اتخذه القائد العام للقوات المسلحة دباعتباره رئيس حركة الجيش » بقصد حماية هذه الحركة والنظام القائم عليها من أعمال السيادة .

(٣) د . ممدوح البلتاجي ـ الاستقلال الوطني المصري ـ رسالة دكتوراه باللغة الفرنسية ـ باريس ١٩٧٥ ـ ص ١٤٩ .

(٤) القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ .

(٥) القانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ .

ويقضى بتقديم طلب إلى وزارة الداخلية يشمل بيانات عن نظام الحزب وأعضائه المؤسسين وموارده المالية ، ثم صدر مرسوم بقانون فى وقت لاحق بحل جميع الأحزاب السياسية [١] ومصادرة جميع أموالها وإعلان فترة انتقالية مدتها ٣ سنوات تنتهى فى يناير ١٩٥٦ ، وقانون آخر بتطهير الحكومة والجيش من الموظفين والضباط المنحرفين الذين تحوم حولهم شبهات تمس النزاهة أو الشرف أو السمعة [٢].

وفى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ تعلن الحكومة سقوط دستور سنة ١٩٢٣ .

وفى ١٣ يناير ١٩٥٣ تتشكل لجنة من خمسين عضوا لوضع دستور جديد يتفق وأهداف الثورة ، وقد وضعت إحدى اللجان الفرعية المنبثقة عن لجنة الخمسين تقريرا فيما بعد رأت فيه أفضلية النظام الجمهورى عن النظام الملكى [٣].

وفى ١٠ فبراير ١٩٥٣ يصدر إعلان نظام دستورى مؤقت من عدة نقاط ، أهمها أن يتولى قائد الثورة مع مجلس قيادة الثورة أعمال السيادة العليا ــ وأن يتألف مؤتمر عام من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء المنظر فى السياسة العامة للدولة . ويجمع اللواء محمد نجيب ثلاثة مناصب وهى رئاسة الوزراء ورئاسة مجلس قيادة الثورة ، والقائد العام للقوات المسلحة [٤].

ويبدو أنه فى إطار الاستعداد لإعلان الجمهورية يتم فى ١٦ يونيو ١٩٥٣ تعيين عبد الناصر نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية ، وعبد اللطيف البغدادى وزيرا للحربية ، ويتم ترقية عبد الحكيم عامر إلى رتبة اللواء مع تعيينه قائدا للقوات المسلحة [٥]

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٣ يصدر قرار موقع من رئيس وأعضاء مجلس قيادة الثورة [٦]

---

(١) مرسوم بقانون بتاريخ ١٨ يناير ١٩٥٣ .

(٢) القانون رقم ١٨١ لسنة ١٩٥٢ .

(٣) تشكلت لجنة فرعية لبحث نظام الحكم أولاً قبل الخوض فى النصوص الدستورية الأخرى ، وهل يكون ملكيا أو جمهوريا ، وتشكلت من خمسة من الأعضاء ، وهم عبد الرازق السنهورى ، وعبد الرحمن الرافعى ، ومكرم عبيد ، والسيد صبرى ، وعثمان خليل

وكان قرار اللجنة بإجماع الآراء أن يكون الحكم جمهوريا بعد استفتاء شعبى على ذلك . ويمكن الرجوع لنص تقرير هذه اللجنة فى كتاب عبد الرحمن الرافعى ثورة ٢٣ يوليو ص ٨٧ ومابعدها .

(٤) ألبرت منصور ــ دراسة عن تطور النظام الناصرى ــ رسالة ماجستير باللغة الفرنسية ــ باريس ١٩٦٢ ــ ص ٤٦.

(٥) أنور عبد الملك : Egypte Societé militaire. Paris 1962 - p . 96

(٦) محمد نجيب ــ جمال عبد الناصر ــ صلاح سالم ــ عبد الحكيم عامر ــ أنور السادات ــ زكريا محيى الدين ــ حسن إبراهيم ــ كمال الدين حسين ــ جمال سالم ــ حسين الشافعى ــ عبد اللطيف البغدادى ــ خالد محيى الدين

متضمنا إلغاء النظام الملكي وإعلان الجمهورية ، وأن يتولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية وأن يستمر هذا النظام طوال الفترة الانتقالية (حتى يناير ١٩٥٦) ، ثم يكون للشعب الكلمة الأخيرة في نوع الجمهورية ، واختيار شخص الرئيس عند إقرار الدستور الجديد .

من محمد نجيب إلى عبد الناصر :

كأى ثورة عقب أن تهدأ الأحداث ، وتتمكن من مقاليد الأمور ، يبدأ الصراع بين أفرادها، وقد تميزت الفترة التي أعقبت إعلان الجمهورية في مصر بنفس السمة ، وقد حاول أعضاء مجلس قيادة الثورة إبقاء الخلافات داخل أسرتهم ، ولكن يبدو أن محمد نجيب ضاق بالأمور ، وبمحاولة أعضاء مجلس الثورة تحديد اختصاصاته وسلطاته أمام الشعبية الجارفة التي كان يتمتع بها في الشارع المصري ، فاستقال في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ ولكنه عاد تحت إلحاح خالد محيي الدين وسلاح الفرسان يوم ٢٧ فبراير .

ثم حدثت أزمة أخرى بين محمد نجيب وباقي المجلس في مارس ١٩٥٤ وتم أيضا احتواؤها وظل الوضع على هذا الحال إلى أن جاء يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ وصدر قرار مجلس قيادة الثورة بإعفاء محمد نجيب من جميع المناصب التي كان يشغلها (١) ، كما قرر أن يبقى منصب رئيس الجمهورية شاغرا ، وأن يستمر مجلس قيادة الثورة في تولي كافة سلطاته بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، الذى أصبح رئيسا لمجلس الوزراء أيضاً.

ويلاحظ أن الفترة المحصورة بين نوفمبر ١٩٥٤ ويناير ١٩٥٦ لم يكن عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، ولكنه كان رئيسا لمجلس الوزراء ، وقائدا لمجلس قيادة الثورة ، وكانت البلاغات الرسمية الصادرة من الدولة وكذلك الصحف تطلق عليه الرئيس جمال عبد الناصر باعتباره رئيسا للوزراء ، حتى إنه كان يمارس اختصاصاته من مكتبه في رياسة مجلس الوزراء وليس من قصر عابدين كما كان محمد نجيب (٢).

واستطاع جمال عبد الناصر في هذه الفترة أن يكتسب هو الآخر شعبية جارفة واحترام

---

(١) ظل محمد نجيب محدد الإقامة في المرج طيلة حكم عبد الناصر ثم أعيدت له حريته واحترامه كرئيس سابق للبلاد في عهد السادات وعندما توفي في ٢٨ من أغسطس ١٩٨٤ كان الرئيس حسني مبارك على رأس مشيعية في الجنازة العسكرية .

(٢) د . ناصر الأنصاري ـ المراسم في القانون العام المصري ـ المرجع السابق ص ٤٦٤ .

وحب الشعب ، بالإضافة إلى التحرك الدولى الخارجى فى مؤتمر باندونج ، وتأسيس حركة عدم الانحياز مـع الهند ويوغوسلافيا ، بـالإضافة إلى تحقيق أمل وطنى ظـل يراود أهل مصر منذ زمـن بعيد ، ، وهو جـلاء جنود الاحتلال الانجليـزى عن جميع أراضيهـا بعد مفاوضات رأس الجانب المصرى فيها عبد الناصر ووقعت إتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ .

دستور ١٩٥٦ :

كان التاريخ المحدد لانتهاء الفترة الانتقالية هو ١٦ يناير ١٩٥٦ ، وفى هذا اليوم أعلن عبد الناصر مشروع الدستور الجديد فى خطاب عام فى ميدان عابدين كخطوة جديدة من خطوات كفاح الشعب المصرى (١) وحدد الدستور يوم ٢٣ يونيو ١٩٥٦ موعدا لاستفتاء الشعب على الدستور وعلى رئاسـة الجمهورية ، وأجرى هذا الاستفتاء الثنـائى ، وكانت نتيجتـه الموافقـة شبـه الإجماعيـة على الدستـور الجديـد ، وعلى عبـد النـاصر رئيسـا للجمهورية ، حيث بلغ عدد الموافقين ٢٢٥ر٤٨٨ر٥ مقابل ٠٤٦ر١٠ غير موافقين (٢).

وبناء على النظـام الدستورى الجديـد ألغى مجلس قيادة الثورة كما الغـى منصب رئيس مجلس الوزراء ، فـدستور ١٩٥٦ يأخذ بالنظام الرئاسى الـذى يتولى فيه رئيس الجمهورية المسئولية التنفيذية الكاملة يعاونه فيها عدد من الوزراء .

وكانت مصر فى تلك الأثناء تعد لمشروع هام وهو بناء السد العالى وبصفة مبدئية كان البنك الـدولى للإنشـاء والتعمير قد وافق على إقـراض مصر لإنشاء السـد العالى ، كـذلك وافقت على تمويل جزء من القرض اللازم كل من الـولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا . ولكن هاتين الدولتين سحبتا هذه الموافقة ، وكذلك فعل البنك الدولى كنوع من الضغط على مصر نظرا لاتجاههما نحو سياسة الحيـاد الإيجابى ، وعدم الانحيـاز ، وعدم الانضمام لـلأحلاف العسكـرية . وكـان الـرد المصرى على هذه الخطـوة هـو تأميم أسهم قنـاة السويس(٣) .فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ حتى تتمكن مصر من الاستفادة بدخل القناة فى تشييد مشروعها العملاق .

---

(١) Maurice Flory et R . Mantran - les réjimes politiques dans les pays arabes paris - 1968. p. 255

(٢) عبد الرحمن الرافعى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٥٣ .

Gerard Conac - Les instiutions politiques de la Repablique Arabe Unie - Dans: Reuue intérnationale de Droit comparé - Paris 1958 - p. 2 - 3.

(٣) بالقرار الجمهورى بالقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦.

وظل الغرب يتحين الفرصة لاجهاض تلك الدولة التي استقلت ونالت حريتها وغادرها جيش الاحتلال الانجليزى بعد أربعة وثمانين عاما ، تلك الدولة التى باتت تهدد هذا الوجود الصهيونى الإسرائيلى الدخيل على المنطقة العربية ، تلك الدولة التى تساعد الشعوب الاخرى على نيل استقلالها وتمدها احيانا بالسلاح كما فعلت مع الجزائر التى كانت فرنسا تحتلها .

اتفقت إرادات هذه الدول الثلاث بالذات · إسرائيل وانجلترا وفرنسا على الهجوم على مصر ، وفى مساء يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بدأ العدوان الثلاثى على مصر ، واحتلت جيوش هذه الدول الثلاث معظم شبه جزيرة سيناء ولكنها اضطرت بعد أقل من شهرين إلى الانسحاب تحت ضغط الجهود السياسية وحشد الرأى العام العالمى ضدها ، وتم الجلاء فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ .

واستمرت مصر فى طريقها نحو الحرية ، والمناداة بضرورة التحرر للدول المستعمرة ، وحتمية الوحدة العربية للوقوف ضد القوى الأجنبية الكبيرة .

الجمهورية العربية المتحدة :

وفى أول فبراير ١٩٥٨ تعلن مصر وسوريا الوحدة بينهما ويجرى على ذلك استفتاء شعبى تعطى نتيجته مؤشرا للسند الهائل لجمال عبد الناصر كزعيم للأمة العربية (١) ورئيس لدولة الوحدة : الجمهورية العربية المتحدة ، وتتم مبايعة عبد الناصر على الرئاسة فى دمشق أمام قبر صلاح الدين الايوبى ، وكأنه أحد مشاهد المبايعة فى العصور القديمة .

ويصدر دستور جديد « مؤقت » للجمهورية الجديدة التى ذابت فيها كل من مصر وسوريا وأصبحت إقليمين جنوبى وشمالى فى دولة واحدة ، ذات اسم موحد ، وذات علم واحد ، ونشيد واحد ، ورئيس واحد ، ودستور واحد (٢).

ولكن المؤامرات الخارجية والدسائس تؤدى إلى إجهاض هذه الوحدة بعد ثلاث سنوات ونصف من قيامها فى سبتمبر ١٩٦١ .

ولكن عبد الناصر لايفقد الأمل فى تحقيق حلمه الكبير باستقلال وتوحيد الوطن العربى فيحتفظ باسم الجمهورية العربية المتحدة وبعلمها وبنشيدها .

---

(١) S. Jarcy - La Syrie province de la Repullique Arabe Unie - Dans : Revue Orieut. paris - decembre 1958. N 8 - p. 17.

(٢) د . ناصر الانصارى ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧٠

وفى مايو ١٩٦٢ يقدم عبد الناصر للأمة ميثاق العمل الوطنى ، الذى يُنشأ بمقتضاه الاتحاد الاشتراكى العربى ، وهو تنظيم حزبى واحد يحل محل التنظيم الحزبى الواحد السابق له وهو الاتحاد القومى الذى أنشئ سنة ١٩٥٦ ، والذى حل هو الآخر محل التنظيم الحزبى الوحيد الأسبق وهو هيئة التحرير التى أسسها جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٤.

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ يصدر إعلان دستورى لتنظيم أجهزة الحكومة ، يتشكل بمقتضاه مجلس للرئاسة برياسة رئيس الجمهورية وعضوية تسعة أعضاء ينكمشون فيما بعد إلى سبعة فقط ، ويكون مهمته وضع السياسة العامة ومراقبة تطبيقها ، ومجلس آخر هو المجلس التنفيذى يضم الوزراء (١).

وفى مارس ١٩٦٤ يصدر دستور جديد للبلاد ويعلن أنه « دستور مؤقت » لحين إصدار دستور دائم فيما بعد ، مؤسس على تبنى النظام الاشتراكى الديمقراطى وبموجبه يتم إلغاء مجلس الرئاسة .

النكســة :

وتتعرض مصر لعدوان إسرائيلى على أراضيها فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ وتتمكن إسرائيل من احتلال شبة جزيرة سيناء بقواتها وأمام هذه الهزيمة العسكرية والنفسية القاسية يحاول عبد الناصر أن يتنحى عن رئاسة الجمهورية إلا أن الجماهير تصر على بقائه ، لإيمانها المطلق بأنه الشخص الوحيد القادر على إخراج البلاد من هذه النكسة وتتركز جميع السلطات فى يد عبد الناصر ، فهو رئيس الجمهورية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، ورئيس مجلس الوزراء ، وأمين عام الاتحاد الاشتراكى العربى ، بل إن البرلمان (مجلس الأمة) يفوضه فى كثير من سلطاته .

وتصدم جماهير مصر والعالم العربى بل وتفجع بالوفاة المفاجئة لزعيمها جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ نتيجة لأزمة قلبية وكان فى الثانية والخمسين من عمره .

أنور الســادات :

ويتولى رئاسة الجمهورية بعده نائبه محمد أنور السادات طبقا للمادة ١١٠ من دستور سنة ١٩٦٤ ليصبح رئيسا مؤقتا للبلاد ، ثم يرشحه مجلس الأمة ويجرى عليه

---

(١) د . ممدوح البلتاجى ـ المرجع السابق ص ٢١١ .

استفتاء شعبى طبقا للمادة ١٢٢ من نفس الدستور ، ويتولى مقاليد الرئاسة من ١٧ اكتوبر ١٩٧٠ عندما يؤدى اليمين الدستورية أمام مجلس الأمة كثالث رئيس للجمهورية. ويمكن القول إن هذه هى المرة الأولى منذ قيام الثورة يتم تولى السلطة بطريقة شرعية طبقا لنظام دستورى موضوع مسبقًا .

ورغم المشاكل التى تواجهها مصر داخليا ، ورغم وجود الاحتلال الإسرائيلى على أراضيها إلا أنها تستمر فى جهودها نحو الوحدة العربية ففى ديسمبر ١٩٧٠ يتم توقيع اتفاق القاهرة بين الرئيس المصرى أنور السادات والرئيس السورى حافظ الأسد والرئيس الليبى معمر القذافى على قيام أتحاد بين الدول الثلاث ، يطلق عليه اتحاد الجمهوريات العربية ولكن هذا الاتحاد من الناحية العملية لم يكن له نتائج إيجابية ملموسة رغم انه أنشأ مؤسسات خاصة ، مثل مجلس الوزراء الاتحادى ومجلس الأمة الاتحادى ، إلا ان وجودها كان أميل إلى الناحية الشكلية .

وعلى الصعيد الداخلى يبدأ أنور السادات بالقضاء على ما أسماه بمراكز القوى فى حركة أطلقت عليها الصحافة اسم ثورة التصحيح ، أى تصحيح مسار ثورة سنة ١٩٥٢ ، ثم إنه يعرض على الشعب أخيرا الدستور الدائم للبلاد فى سبتمبر ١٩٧١ الذى يعيد لمصر اسمها فتصبح جمهورية مصر العربية بدلا من الجمهورية العربية المتحدة .

ومن الأعمال الجليلة للرئيس السادات تخطيطه وقيادته لحرب أكتوبر ١٩٧٣ التى أعادت لمصر كرامتها ، فثأرت لنفسها من إسرائيل فى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، واستعادت جزءا هاما من أراضيها بالمعركة الحربية ، ثم تسلح السادات بالسياسة الحكيمة وقاد مسيرة السلام مع إسرائيل لاستكمال استعادة أغلب الأراضى المصرية المحتلة بعد زيارته التاريخية للقدس وتوقيعه لمعاهدة السلام مع إسرائيل فى ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ .

أما على صعيد الديمقراطية فإن أنور السادات يبدى بعد نظر وحكمة كبيرة عندما ينادى بالتعددية الحزبية أولا داخل الحزب الواحد وهو الاتحاد الاشتراكى على شكل ثلاثة منابر ، وسط ويمين ويسار ، ثم بعد عام واحد وفى سنة ١٩٧٦ تتحول هذه المنابر إلى أحزاب سياسية مستقلة . وحتى لو أن تشكيل هذه الأحزاب يعطى انطباعا بأنها خرجت إلى الوجود بطريقة غير طبيعية ، إلا أنها كانت كفيلة بعرض الآراء المختلفة ، وإيجاد السبيل للتعبير عن نفسها ، وهو عمل تم فى دول شرق أوربا بعد ذلك بقرابة خمسة عشر عاما وبطريقة وحشية وهمجية .

ويموت السادات مغتالا فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

حسني مبارك :

كان أنور السادات قد اختار نائبا له أحد أبطال جيل أكتوبر ١٩٧٣ ، وهو حسني مبارك الذى تولى قيادة القوات الجوية وخطط وقاد المعركة الجوية التي كان لها أثر كبير فى هز كيان العدو فى تلك الحرب .

وطبقاً لدستور سنة ١٩٧١ فقد تم ترشيح حسني مبارك عن طريق مجلس الشعب للاستفتاء عليه كرئيس للجمهورية ، وتولى مقاليد الأمور فى ١٤ أكتوبر ١٩٨١ .

وفى عهده تم تنفيذ المرحلة الثالثة من اتفاقية السلام والتى بموجبها انسحبت إسرائيل، وعادت سيناء بالكامل إلى السيادة المصرية الكاملة ، كما قام برفع العلم المصرى على آخر نقطة متنازع عليها وهى طابا فى أقصى الحدود الشرقية .

وقد خطط حسني مبارك أول خطة قومية للتنمية فى مصر تنفذ بالكامل ١٩٨٧/٨٢ وفى سبيله لتنفيذ الخطة الثانية ١٩٨٨/ ١٩٩٢.

وفى مجال الإنتاج نادى بالصحوة الكبرى والجدية والالتزام والشعور بالمسئولية الجماعية وتنفيذ سياسة الإصلاح الاقتصادى .

الفصل الثاني

أجهزة الحكم بعد الثورة

تتميز فترة الجمهورية بكثرة التعديلات فيما يخص النظم الدستورية والنظم القانونية والمؤسسات الحاكمة في الدولة ، وهو وضع يحدث عادة في أعقاب الثورات إلا أن مايجعله يبدو زائدًا عن الحد هو الوحدة مع سوريا وإنشاء نظم جديدة ثم الانفصال ، وله أيضا نظم استحدثت بعد حدوثه .

وأبرز مثال على ذلك النظام الدستوري : فعند قيام الثورة وقبل قيام الجمهورية كان المطبق هو دستور ١٩٢٣ ثم تعلن الحكومة سقوط هذا الدستور في ديسمبر ١٩٥٢ ، وتشكل لجنة لإعداد دستور جديد للبلاد ، ثم يصدر إعلان دستوري من عدة نقاط في فبراير ١٩٥٣ ، ويصبح هذا الإعلان المؤقت هو الإطار الدستوري لأنشطة الدولة لمدة ثلاث سنوات هي فترة الانتقال التي ارتأت الثورة تحديدها لنفسها .

وبالفعل يصدر في يونيو ١٩٥٦ دستور جمهورية مصر ، ولكن هذا الدستور يصبح غير ذي موضوع بقيام الوحدة بين مصر وسوريا وصدور دستور مؤقت جديد للجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ ، ولكن الانفصال يحدث سنة ١٩٦١ ويصدر إعلان دستوري في سبتمبر ١٩٦٢ ، ثم يصدر دستور مؤقت سنة ١٩٦٤ إلى أن يصدر الدستور الدائم ، وهو دستور جمهورية مصر العربية في سنة ١٩٧١ . فهذه خمسة دساتير وإعلانين دستوريين عمل بهما جميعا في فترة تقل عن العشرين عاماً . وبالطبع كانت لهذه التعديلات الكثيرة أثرها المباشر وغير المباشر على أجهزة الحكم الأخرى في الدولة وتستعرض أهم هذه الأجهزة :

رئيس الجمهورية :

أخذ دستور جمهورية مصر سنة ١٩٥٦ بالنظام الرئاسي أي أن رئيس الجمهورية هو المسئول التنفيذي الأول ، ويعاونه في عمله مجموعة من الوزراء . أما الدساتير اللاحقة فقد أخذت بنظام قريب إلى البرلماني أي وجود رئيس وزراء يرأس مجلس الوزراء

وهو منصب مستقل عن منصب رئيس الجمهورية .

وينص الدستور على أن رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية ويسهر على تأكيد سيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون (١).

وأن مدة الرئاسة ست سنوات ميلادية ويجوز إعادة انتخاب رئيس الجمهورية لمدد اخرى (٢).

ويضع رئيس الجمهورية بالاشتراك مع مجلس الوزراء السياسة العامة للدولة .. ويشرفان على تنفيذها .. (٣).

وفى سبيل ذلك له الحق فى دعوة مجلس الوزراء للانعقاد وحضور جلساته وتكون له رئاسة الجلسات التى يحضرها كما له الحق فى طلب تقارير من الوزراء (٤).

ورئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو الذى يعلن الحرب بعد موافقة مجلس الشعب (٥) وهو الذى يبرم المعاهدات ويبلغها لمجلس الشعب (٦).

نائب رئيس الجمهورية :

ينص الدستور على حق رئيس الجمهورية فى تعيين نائب واحد أو اكثر لرئيس الجمهورية ، ويحدد اختصاصهم ويعفيهم من مناصبهم (٧) ، كما ينص على أنه إذا قام مانع مؤقت يحول دون مباشرة رئيس الجهورية لاختصاصاته أناب عنه نائب رئيس الجمهورية (٨) . ويفرق الدستور بين المانع المؤقت والمانع غير المؤقت الذى ينتج عن خلو المنصب بالوفاة أو العجز الدائم لرئيس الجمهورية مثلا ، ففى هذه الأحوال يتولى الرياسة مؤقتا رئيس مجلس الشعب وإذا كان المجلس منحلا حل محله رئيس المحكمة الدستورية العليا (٩) وليس نائب رئيس الجمهورية .

---

(١) م ٧٣ من الدستور .
(٢) م ٧٧ من الدستور .
(٣) م ١٣٨ من الدستور .
(٤) م ١٤٢ من الدستور .
(٥) م ١٥٠ من الدستور .
(٦) م ١٥١ من الدستور .
(٧) م ١٣٩ من الدستور .
(٨) م ٨٢ من الدستور .
(٩) م ٨٤ من الدستور .

اختصاصات نائب رئيس الجمهورية غير موضحة فى الدستور وهى خاضعة لتكليف بمهام من رئيس الجمهورية سواء أكانت دائمة أم مؤقتة .

رئيس مجلس الوزراء :

اضطر المشرع الدستورى إلى الأخذ بنظام الفصل بين شخصى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فى دستور ١٩٥٨ بعد الوحدة مع سوريا ، بل الأكثر من ذلك وجدت ثلاث حكومات : الحكومة المركزية ولها رئيس لمجلس الوزراء المركزى ، ثم حكومة تنفيذية فى مصر وأخرى فى سوريا وأصبح أعضاء الحكومة بعضهم وزراء مركزيين وبعضهم وزراء تنفيذيين .

وبعد الانفصال عن سوريا سنة ١٩٦١ صدر الإعلان الدستورى سنة ١٩٦٢ [1] بشأن التنظيم السياسى لسلطات الدولة ، ونص على إنشاء مجلس الرئاسة ، وهو الهيئة العليا لسلطة الدولة ، ومن الناحية العملية فقد ضم هذا المجلس نواب رئيس الجمهورية السابقين ، ولم يعد هناك وجود لهذا المنصب . كما أنشأ هذا الإعلان الدستورى مجلسا أطلق عليه المجلس التنفيذى ، هو الهيئة التنفيذية والإدارية العليا للدولة ، وكان هذا المجلس يضم الوزراء وكان رئيس المجلس التنفيذى بمثابة رئيس للوزراء .

أما مع الدستور المؤقت الصادر سنة ١٩٦٤ فقد عاد لرئيس مجلس الوزراء اسمه . وقد جمع عبد الناصر بين المنصبين فى غير مرة ، وعند وفاته كان رئيسا للجمهورية ورئيسا لمجلس الوزراء . وعندما تولى السادات المسئولية حرص على عدم الجمع بين المنصبين إلا مرتين ، المرة الأولى لإعداد الدولة لحرب أكتوبر من ٢٧ مارس ١٩٧٣ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٧٤ ، أما الثانية فكانت عدة شهور قبل وفاته من ١٤ مايو ١٩٨١ إلى وفاته فى أكتوبر ١٩٨١ .

ولابد من الإشارة إلى أن دور رئيس مجلس الوزراء قد زاد فى عهد السادات عنه فى عهد عبد الناصر ، ثم اتسع دوره وتحدد بوضوح طبقا للدستور والقانون فى عهد الرئيس حسنى مبارك .

المؤسسات التشريعية:

ظل البرلمان المصرى معطلا منذ قيام ثورة ١٩٥٢ إلى أن صدر دستور ١٩٥٦ الذى

---

(١) منشور فى الجريدة الرسمية العدد ٢٢٢ فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ .

أعاد تنظيم الحياة البرلمانية ، ونظم طريقة الترشيح والانتخاب بعد إلغاء الأحزاب ، وتم إطلاق اسم جديد على المجلس النيابي في مصر ، وهو مجلس الأمة ، وكان أول مجلس ينعقد منذ قيام الثورة في يوليو ١٩٥٧ ولكن قيام الوحدة في سوريا في العام التالي ألغى وجوده . أما برلمان الجمهورية العربية المتحدة فكان بالتعيين وليس بالانتخاب ، ولم ينعقد إلا سنة ١٩٦٠ ، وأصبح أيضا غير ذي موضوع بعد الانفصال .

وظلت مصر محرومة من مجلس نيابي لها حتى صدور الدستور المؤقت سنة ١٩٦٤ ـ وبناء على أحكامه تم انتخاب مجلس الأمة الجديد وهو السلطة التشريعية في البلاد ، وحدث تعديل في اسمه مع دستور ١٩٧١ إلى مجلس الشعب . كذلك أضاف التعديل الدستوري الذي أقره الاستفتاء الشعبي سنة ١٩٨٠ مجلس نيابي آخر ، هو مجلس الشورى ، وأصبح المجلسان معا يمثلان السلطة التشريعية ، وإن كان دور مجلس الشورى ينحصر في مناقشة السياسات العامة دون الدخول في تفاصيل إقرار التشريعات وإصدارها ، الذي هو دور مجلس الشعب الرئيسي ، بالإضافة إلى دوره في الرقابة ، مثله مثل جميع البرلمانات الأخرى .

الخـــاتـــمة

عبر هذا التاريخ الطويـل للدولة المصرية منذ ظهور أول فرعون قـام بتوحيدها وهو مينا منذ حوالى خمسين قرناً وإلى يومنا هــذا عرضنا لتاريخ هذه الدولة التى وجدت وظلت قـائمة . وكان تاريخها سلسلة مترابطـة الحلقات دون انقطاع فى أى حقبة من الحقب وإن كـانت تعلو وترتفع فى بعض الأوقـات ثم تعود فتنخفض فى أوقات أخـرى ولكن هذه هى سمسة التاريخ . فهو كـالموجات تعلو وترتفـع وما أن تصل الموجة إلى أقصى ارتفاع حتى تبدأ فى الهبوط ثم تعود وترتفع وهكذا ..

وأقرب مثال لذلك هو عهد الدولـة القديمة وعصر بناة الأهرام فهذا المجد الكبير تلاه عصر إنحطاط وتخلف ولكنه لم يستمر فقد تلاه عهد الدولة الوسطى والأسرة الثانيـة عشر وهو عصر ذهبى وعهد استقـرار لمصر ، وتلى ذلك عصر الانحطـاط الثانى الذى انتهى بغزو الهكسوس لمصر ولكن لم تمض مائة وخمسين سنة حتى ظهر فى الأفق بداية عصر الدولة الحديثة وهـو عهد الإمبراطورية والتوسعات الذى وصلت فيه الحدود المصريـة إلى أقصاها شمالاً وجنوبـاً وشرقاً وغرباً . فهـذه هى العادة التاريخية .

ومن إستقراء هـذا التاريخ الطويل نجـد بعض الدروس المستفادة منهـا نأخذ العبرة والعظة .

ومن عظـات التاريخ أن سبيـل التقدم عندنا هــو إذكاء الشعور والأحـاسيس بروعة الماضى ـ والأمل فى المستقبل .

المراجع

أولاً : الكتب

(أ) الموسوعات والأعمال العامة :
باللغات الأجنبية

-The CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY New Editions :

I, Part. 2, 1971

II, Part. 1 et 2, 1973

(C. Hrayes. T.G.M. James, W.S. Smith, C. Aldred, R.V. Faulkner)

VII The Hellenistic Monarchies and the Rise of Rome

VIII Rome and the Mediterranean (218-133 BC)

X The Augustan Empire (44 BC - AD 70)

XI The Imperial Peace AD 70-192

XII The Imperial crisis and recovery, AD 193-324

-ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA

- ENCYCLOPEDLE DE IA PLEIADE

(Histoire Universelle sous la direction de R.Grousset et E.G. Léonard)

- in vol. I, Egypte ancienne (J.yoyotte), Le Monde Hellènistique) (Y. Béquignon) , L'empire universel de Rome (J.R. palanque), La fin de L'empire romain en orient (R.Guilland),

- in vol 2, L'expansion Arabe (M. Rodinson - G. Weit et al .)

- in vol. 3, Les puissances Musulmanes (G. Wiet).

- ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM

Ié Ed. (T.W. Arnold - R. Basset - H.A.R. Gibb - R. Hartman M.T. Houtsma - E. Levi-Provencal - A.J. Wensinc.)

4 vol. + supplement, Leyde, Paris, 1913-1935.

2e ed. (en cours parution lettres A - K)

(B. Lewis - C. Pellat - J. Schacht) Leyde-Paris 1954-1981.

- ENCYCLOPAEDIA UNIVERSALIS _ Egypt
Egypte Pharaonique (F. Daumas)
Egypte Ptolemaique (A. Bernand)
Egypte Romaine et Byzantine (A. Bernand)
Religion Egyptienne (J. Vercouer)
Ecriture Egyptienne (J. Vercoutter)
Egypte Arabe (G. Wiet)
Egypte Coloniale (N. Tomiche)
Republique Arabe Unie (B. Farhi).

-PRECIS DE L'HISTOIRE D'EGYPTE
Le Caire, 1932.
In tome I:
H. GAUTHIER - L'Egypte Pharaonique
P. JOUGUET - L'Egypte greco-romaine d'Alexandre a Diocletien
In tome 2:
H. MUNIER - L'Egypte byzantine de Diocletien à
la conquete Arabe
G. WIET - L'Egypte Arabe.
- POSENER (G) — SAUNERON (S) — YOYOTTE (J)
Dictionnaire de la Civilisation Egyptienne (Pharao— nique) - Paris, 1959-
- DOZY (R.Q.A.)

DICTIONNAIRE DETAILLE DES NOMS DE VETEMENTSCHEZ LES ARABES
Amsterdam - Müller, 1845-
Supplement, Leyde 1881.
- GAUDOUIN (J)
GUIDE DU PROTOCOLE ET DES USAGES Paris, 1979
- SERRES (J)
MANUEL PRATIQUE DU PROTOCOLE Vitry-le-Francois , 1963

اللغة العربية :

ـ أحمد حسين ، موسوعة تاريخ مصر ـ ٥ أجزاء ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ .

ـ أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، نشره حسن إبراهيم حسن . المجمل في التاريخ المصرى ، تجميع د. حسن إبراهيم حسن ـ القاهرة ١٩٤٤

ـ حسن الباشا ، الالقاب الإسلامية . القاهرة ـ ١٩٧٨

ـ سليمان الطماوى مبادئ القانون الإدارى ـ ط ٦ . القاهرة ـ ١٩٦٥ .

ـ شفيق شحاتة ، التاريخ العام للقانون في مصر ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

ـ صوفى أبو طالب ، مبادئ تاريخ القانون ـ القاهرة ١٩٥٧

ـ عبد المجيد الحفناوى ، تاريخ القانون المصرى . الاسكندرية .

ـ عبد الرحمن زكى ، الاعلام وشارات الملك في وادى النيل . القاهرة ١٩٤٨

ـ عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ، ترجمة جدول السنين الهجرية بما يوافقها من السنين الميلادية وضع ف . وستنفيلد ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ .

ـ فتحى الرصفاوى ، تاريخ القانون المصرى . القاهرة ١٩٨٢ .

ـ محمد توفيق رمزى ـ أسس الإدارة العامة ـ القاهرة ١٩٦٠ .

ـ محمد شقنقيرى ، مذكرات عن تاريخ القانون المصرى . القاهرة ـ ١٩٨٤ .

ـ محمد شفيق غربال ، تكوين مصر . القاهرة ـ ١٩٥٧ .

ـ ناصر الانصارى ـ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ القاهرة ـ ١٩٨٧

ـ ناصر الانصارى ـ تاريخ أنظمة الشرطة في مصر من الفراعنة إلى اليوم ـ القاهرة ١٩٨٩ .

(ب) مصادر التاريخ المصرى القديم :

باللغات الأجنبية :

* عن حجر باليرمو :

_ GAUTHIER (H) Quatre nouveaux fragments de la Pierre de Palerme (Musée Egyptien, III, pp.29-53 et pp.24-31)

-GAUTHIER (H) Quatre fragments nouveaux de la Pierre de Palerme au Musee du Caire (C.R. Acad. Inscriptions et Belles Lettres 1914 pp.114 et ss.)

sur la chambre des ancetres de Karnak, la table d'Abydos etc...

● عن بردية تورين

-GARDINER (A) The royal Canon of Turin, Oxford, 1959

● عن نصوص الأهرام .

-ERMAN (A) Hymnen an das diadem der Pharaonen Berlin, 1911

-MERCER (S.A.B.) The Pyramid texts in translation and Commentary, 4 vol., New York, Londres, Toronto, 1952

-SPEELERS (L) Traduction, index et vocabulaire des textes des pyramides egyptiennes - Bruxelles s.d. (1934)

● عن المؤرخ مانيتون

-MANETHO, English translation by W.G. Waddell, Loeb, Cambridge 1948

- F. Jacoby, Fragmente der Giechischen historiker, Leyde, 1957

● عن المراسم والنظم

-GAUTHIER (H)Le Livre des Rois d'Egypte, 5 vol.
Mémoire Inst. Fr. Arch. Orientale, tomes XVII a XXI, Le Caire, 1908-1917

-MURRAY (A) Index of names and titles of the old Kingdom, Londres, 1908 -

- BAER (K) Rank and Title in the old Kingdom , Chicago, 1960 -

● مصادر أخرى .

- BREASTED (J.H.) Ancient Records of Egypt, 5 vol. Chicago, 1906-1907

-BREASTED (J.M.) The development of religion and thought in ancient Egypt, New York, 1912

-BREASTED (J.M.) A History of Egypt fro,m the earlier time to Persian conquest, London, 1927

-CERFAUX (L) - TONDRIAU (J) Le culte des Souverains dans la civilsation gréco-romaine, Bibliothéque de théologie, III, 5, Paris - Tournai, 1957

-DAUMAS (F) - La civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, 1965 -

- DRIOTON (E) - VANDIER (J)
L'Egypte, des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, 1983,
(ed. avec supplément)

-DRIOTON (E) L'Egypte pharaonique, Paris, 1959

-EDGERTON (W.F.) The Thutmosid succession-
Oriental institute of Chicago studies in ancient oriental civilisation, 8, 1933.

-EMERY (W.B.) Great tombs of the first dynasty 3 vol., cairo, 1949 -

-ERMAN (A) La religion des Egyptiens trad. frse par H. Wild - Paris, 1937 (par développements chronologiques)
-ERMAN (A) The literature of the ancientEgyptians, Poems, narratives and Manuals of instruction, from the third and second millenia
Traduction anglaise par A.M. Blackman, London, 1927
-ERMAN (A) - RANKE (E)
La civilisation Egyptienne,(trad. Francaise C. Mathieu, Paris, 1952, 2è ed. 1980)

-GOLENISCHEFF (W)
(Enseignements pour Mérikaré)
Les papyrus hiératiques 1115, 1116 A et 1116 B de l'ermitage impérial de Saint-Petersbourg, Saint-Petersbourg, 1913 -

-GARDINER (A.M.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964
-GAUTHIER (H) L'Egypte Pharaonique, in Précis de l'Histoire d'Egypte, 1, Le Caire, 1932 -
-GOEDICKE (H) The origin of the Royal administration, - Paris 1982) .
-GUNN (B) The instruction of Ptah -Hotep and the instruction of Ke'gemni Londres, 1918
-JOUGUET (P) et CHAPOT (V)
Histoire de la nation Egyptienne (III - Egypte pharaonique)
-LANGDON (S) et GARDINER (A.H.)
— The Treaty of Alliance between Hattusili King of the Hittites, and the Pharaoh Ramesses II of Egypt—
—Journal of Egyptian Archoeology , VI (1920) p.179-205
-Version francaise commode in CONTENEAU (G), La civilisation des Hittites et des Mittaniens,Paris, 1934 -
-MASPERO (J) La table d'offrande des tombeaux égyptiens, Revue Hist. des religions - 1897
-MASPERO (J) Etudes sur quelques peintures et quelques textes relatifs aux funérailles (Etudes Egyptiennes I,2) Paris, 1881

-MASPERO (J) Contes populaires de l'Egypte ancienne, 4è ed. Paris,(1911)

-MASPERO (J) Les enseignements d'Amenhemat à son fils Sanouasrit, Le Caire, 1914

-MASPERO (J) Une enquête judiciaire à Thèbes sous la XXè dynastie Paris, 1871
-MERCER (S.A.B.) - Horus, royal God of Egypt, Grafton, Mass. 1942
-MERCER (S.A.B.) - The religion of ancient Egypt, London,1949
-MORET (A) L'Egypte Pharaonique (t.II, Histoire de la nation égyptienne de Hanotaux) Paris, 1932

-MORET (A) Du caractère religieux de la royauté pharaonique, Paris, 1912
-MORET (A) Le Nil et la Civilisation Egyptienne, Evolution de l'Humanité, VII.Paris, 1926, réed.,1956
-MORET (A) Rois et Dieux d'Egypte, Paris, 1925,
Mystères égyptiens, Paris, 1927
-PIRENNE (J) Histoire de la civilisation de l'Egypte ancienne, 3 vol., Neuchatel, Bruxelles, 1962-1965
-PIRENNE (J) Histoire des institutions et du droit privé de l'ancienne Egypte, 2 vol., Bruxelles, 1932-1934
-POSENER (G) De la divinité du Pharaon, Cahiers de la Société Asiati-que, XV,Paris,1960-
-POSENER (G) Littérature et politique dans l'Egypte de la XIIè dynastie, Paris, 1956-
-SAUNERON (S) Les fêtes religieuses d'Esna aux derniers siècles du paganisme, Le Caire, 1964-
-SOURDILLE (V) Hérodote et la religion de l'Egypte, Paris, 1910-
-TRIGER (B.G.) ... Anciant Egypt, Asociac Histiry C.U.P. London. 1990.
-VERCOUTTER (J) L ' Egypte et le monde,égéen préhellénique, Institut Francais d'Archéologie Orientale, Bibliothéque d'Etudes, XXII, Le Caire, 1956-

باللغة العربية :

ـ أحمد قدري . المؤسسة العسكرية المصرية في مصر الامبراطورية ـ القاهرة . ١٩٨٥ .
ـ باسكال فيرنوس ـ جان يويوت ـ ترجمة د . محمود ماهر طه ـ موسوعة الفراعنة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ـ ١٩٩١ .
ـ بريستد (هنري) كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي .
ترجمة حسن كمال ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٢٩ .

ـ د بهاء الدين إبراهيم ـ الشرطة والأمن الداخلي في مصر القديمة ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

ـ سليم حسن ـ مصر القديمة ـ ٦ أجزاء ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ .

ـ د . سيد توفيق ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٨٧ .

ـ علي حلمي . الشرطة والأمن بمصر في مختلف العصور (العصر الفرعوني) القاهرة . ١٩٦٨ .

ـ محمد صابر ـ مصر تحت ظلال الفراعنة ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ)

ـ نجيب ميخائيل إبراهيم ـ مصر والشرق الأدنى القديم ـ جزئين ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ .

(جـ) مصادر التاريخ الأغريقي والروماني والبيزنطي :

باللغات الاجنبية

-ALBERTINI (E) L'Empire Romain - (Peuples et civilisations, IV) - Paris, 1970-

-ALLIOT (M) La fête égyptienne du couronnement du Roi, au temple d'Edfou, sous les Rois Ptolémées,
Compte-rendus de l'Académie des Inscriptions et belles Lettres, (1948), p. 208-219-

-ALLIOT (M) Le culte d'Horus à Edfou au temps des PtoléméeS 2 vol.,Le Caire, 1954-

-ARNOLD (W.T.) The roman system of provincial administration / to the accession of Constantine the Great,
London 1879, 3è ed., Oxford, 1914, (reprint, Rome, 1968)

-BELL (H.I.) Jews and Christian in Egypt, Londres, 1924 -

-BERNAND (A et E) Les inscriptions grecques et latines du Colosse de Memnon, Paris, 1960

-BEVAN Edwyn A history of Egypt under the Ptolemaic dynasty, London, 1927

-BOUCHE-LECLERCE (A)
Histoire des Lagides, 4 vol., Paris, 1903-1907, Bruxelles, 1963

-CERATI (A) Caractère annonaire et assiette de l'impôt foncier au Bas-Empire, (Bibliothèque d'Histoire du droit et droit romain, XX) Paris, 1975

– CODE DE JUSTINIEN,Codex Justinianus, Ed. Krueger, Berlin (Weidmann) ed.1954-1959

-CODE THEODOSIEN,Theodosiani libri XVI, Ed. Mommsen - PM. Meyer, Berlin (Weidmann) 3è ed. 1962

-COLLOMP (P) Recherches sur la chancellerie et la diplomatique des Lagides, Publications de la Faculté des lettres de l'Université de Strasbourg, fasc.29, Paris, 1926

-DIODORE DE SICILE 12 vol., Loeb, 1957-1967 (ed. R.M. Geer - F.R. Walton)(traduction anglaise) Edition avec traduction francaise en cours depuis 1975, ed. F. Bizière (C.U.F., Budé)

Voir également, ed. E. Bekker et L.A. Dindorf, 4 vol. Paris, 1912.

-ELCOOD P.G. Les Ptolémées d'Egypte, (trauction francaise par Robert Bouvier) Paris, 1943-

-EUSEBE Histoire Ecclésiastique, ed.Schwartz, 1903-1909

-FRASER (P.M.) - Ptolemaic Alexandria, 2 vol., Oxford,1972

-GIRARD (P.F.) et SENN (F), Textes de droit romain publiés et annotés, lè ed. 1923, 7è ed. par un groupe de romanistes, Paris, 1967

-HUBERT (M) La juridiction du Préfet d'Egypte d'Auguste à Dioclétien, Paris, 1964

-JEAN DE NIKIOU The Chronicle of John bischop of Nikiu , translated from Zotenberg-s Ethopic text by R.M. Charles, Londres 1916

-JOHNSON (A.C.) Roman Egypt to the reign of Diocletian, Baltimore, 1936 (An Economic Survey of Ancient Rome, edited by T. Frank, II)

-JOHNSON (A.C.) Byzantine Egypt, Amsterdam, 1967 -

-JOSEPHE Archéologie ou Antiquités judaiques

ed. Th. Reinach, Paris, Leroux, 1900-1929

ed. THACKERAY (H.S.J.) et MARCUS (R.) Loeb, 1926-1963

-JOUGUET (P) L'Egypte gréco-romaine d'Alexandre à Dioclétien, in Précis de l'Histoire d'Egypte, I, Le Caire,1932 -

-JOUGUET (P) - CHAPOT (V)

L'Egypte antique,(t.III, Histoire de la nation égyptienne de Hanotaux) Paris, 1933 -

-JOUGUET (P) La vie municipale dans l'Egypte Romaine, Paris, 1911-

-JOUGUET (P) La domination romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus-Christ, Alexandrie, Société royale d'Archéologie,1957,

-JOUGUET (P) Papyrus de Théadelphie, Paris, 1911

-JUSTIN Abrégés des Histoires Philippiques de Trogue Pompée Prologues de T. Pompée.ed.CHAMBRY (E) et THELY-CHAMBRY (L) Paris,Garnier, 1936

-LESQUIER (J) Institutions militaires des Lagides, Thèse, Paris, 1912-

-LESQUIER (J) L'armée romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien,

(Institut Francais d'Archéologie orientale, Mémoires XLI), Le Caire, 1918-

-MASPERO (J) L'organisation militaire de l'Egypte byzantine, (Bibliothèque Ecole Hts Etudes, Sc.hist et philol., fasc.201), Paris, 1912-

-MASPERO (J) Histoire des patriarches d'Alexandrie (518-610), Paris, 1923-

-MASPERO (J) Comment Alexandre devint Dieu en Egypte, Ann. Ec. Hts Etudes, 1897, pp.5-30-

-MILNE (J.G.) A history of Egypt, the roman rule, L ondon , 1924

-MUNIER (H) Egypte byzantine de Dioclétien à la conquête Arabe in Précis de l'Histoire d'Egypte, 2, Le Caire, 1932

-NOTITIA DIGNITATUM, ed. O Seek. Berlin 1876, reprint,1962 -PHARR (Cl) The Theodosian code, Princeton, 1952

-REINMUTH (O.W.), The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian, Leipzig, 1935, 2è ed. 1963 (Klio,xxxIv)

-ROUILLARD (G) L'administration civile de l'Egypte byzantine, 2è ed., Paris, 1928-

-SZRAMKIEIWICZ (R), Les gouverneurs de province à l'époque augustéenne, Paris, 1975-

-STRABON Loeb (ed. H.L. Jones) 1956 - 1961 (traduction anglaise) Ed. francaise en cours, C.U.F. Budé (J.AUJAC, F. LASSERRE - R. BALADIE) ed. critique en cours, Bonn (ALY W et al) depuis 1968-

-WEIGALL (A) Cléopâtre et son temps, trad. frse. Payot, ed.1952-

باللغة العربية :

- إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة . جزئين - القاهرة - ط ٢ - ١٩٦٠

- إبراهيم نصحي ، مصر في البطالمة والرومان ، في : المجمل في التاريخ المصري - لحسن إبراهيم حسن . القاهرة - ١٩٤٢ .

- إبراهيم نصحي - مصر في عهد البطالمة - في تاريخ الحضارة المصرية - القاهرة - وزارة الثقافة - ر . هـ . بارو - الرومان - دار النهضة مصر - ١٩٦٨ .

- د . سيد أحمد علي الناصري - الأغريق تاريخهم وحضارتهم - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٨٤ .

- السيد الباز العريني ، مصر البيزنطية . القاهرة - ١٩٦١ .

- الدكتور - عبد اللطيف أحمد علي - مصر والإمبراطورية الرومانية - دار النهضة العربية -

ـ مراد كامل ، الحضارة المصرية فى العصر القبطى . القاهرة ـ بدون تاريخ .
ـ مراد كامل ، من دقلديانوس إلى العرب . فى : تاريخ الحضارة المصرية . وزارة الثقافة . القاهرة.
ـ مصطفى العبادى ، مصر من الاسكندر إلى العرب . القاهرة ـ بدون تاريخ .

(د) مصادر الفترة من الفتح الإسلامى إلى العثمانين :

باللغات الأجنبية :

-ALDERSON (A.D.) The structure of the Ottoman dynasty, Oxford, 1956
-ARNOLD (T.W.) The Caliphate ; exposition of the political theory and its history, Oxford, 1924
-EL BEHEIRY S) Les institutions de l'Egype au emps des Ayyoubites, These Lettres, Paris, 1971
-BRAUDEL (F) La Méditerranée et le monde méditerranéen, à l'époque de Philippe II, Paris, 2 ed., 1966
-BUTLER (A.J.) The Arab conquest of Egypt and the last thirty years of the roman dominion, Oxford, 1902
-CAHEN (C) Les peuples Musulmans dans l'histoire médiévale, Damas, 1977
-CANARD (M) Les Institutions des Fatimides en Egypte, Alger, 1957
-CARRE (J.M.) Voyageurs et écrivains fran,cais en Egypte, 2 vol., Le Caire, 1957
_ J.E. CATTAUI, Histoilrec des rapports de l' Egypte avec la Sublime Porte du 18 e Siecle .a 1841. Paris 1919-
_ M COLOMBE lévolution d' Egypte (1925-1950) paris 1951-
-COMBE (E) L'Egypte Ottomane de la conquête à l'arrivée de Bonaparte, Le Caire, 1935
-DARRAG (A) L'Egypte sous le règne de Barsbay, Damas,(Institut Fran,cais) 1961
-DEHERAIN (M) L'Egypte turque (T.V. Histoire de la nation égyptienne de Hanotaux), 1931-
-DE LACY O'LEARY (A) Short history of the Fatimide khalifate, London, 1923

-ELISSEEFF (N) Nûr ad-Dîn - Un grand prince Musulman de Syrie, à l'époque des Croisades, 3 vol., Damas (Institut Français), 1968-

-GROUSSET (R) - L'Empire des steppes, Paris, 1948- Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jérusalem, 3 vol., Paris, 1934-1936-

-L'Empire du Levant, Paris, 1946-

-GUEMARD (G) Les réformes en Egypte d'Ali Bey el Kebir à Mohamed Ali (1760-1840) Le Caire, 1936-

-HASSAN Zaki Mohamed, Les Tulunides, études de l'Egypte Musulmane à la fin du IXè siècle, 865-905, Paris, 1933-

-HOLT (P.M.) Egypt and the fertile crescent (1516-1922) London , 1966

-HUSRAU (Nasiri) Sefer Nameh traduction et ed. en francais Schefer, Paris, 1891 (traduction en Arabe, al Hassab, 1947)

-LA JONQUIERE (LeVte de) Histoire de l'Empire Ottoman, Paris, 1914, - LAEIDUS (M.) A history of islamic societies. C.U.P. London - 1990.

-MAGUED, Abdel Moneim, Institutions et cérémonial des Fatimides en Egypte, Thèse, Paris, 1950-

-MUIR (W) The mameluke or Slave dynasty of Egypt, L ondon , 1896-

-SAUVAGET (J) La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks, Paris, 1941-

-SHAW (S.J.) The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton University Press, 1962-

-SHAW (S.J.) Ottoman Egypt in the age of the French Revolution - Harvard University Press, 1964-

-TYAN (E) Institutions du droit Public Musulman,I, Le Califat, Paris,1954 II, Califat et Sultanat, Paris , 1957-

-VOLNEY Voyage en Egypte et en Syrie, ed. J. Gaulmier, La Haye, 1959-

-WIET (G) L'Egypte Arabe. De la conquête Arabe à la conquête Ottomane, 642-1517 t.IV de l'Histoire de la nation égyptienne dirigée par G. Hanotaux, Paris, 1937-

-WIET (G), L'Egypte Arabe, in Précis de l'Histoire de ll,Egypte, 2, Le Caire, 1932 -YACOUB (A) Contribution à l'étude du blason en Orient, Londres, 1902-

-(AL) ZAHIRI (KHALIL) "Zobda"

La zubda kachft al-mamalik (traduction par Venture de Paradis) éditée par J. Gaulmier, Institut francais de Damas, Beyrouth, 1950 -

باللغة العربية :

ـــ ابن إياس . بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ٣ أجزاء القاهرة . ١٩٦٦ ـ ١٨٩٨ .

ـ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة ٧ أجزاء . القاهرة . ١٩٢٩ ـ ١٩٣٧ .

ـ ابن خلدون المقدمة . طبعة القاهرة .

ـ ابن سعد . الطبقات الكبرى . دار صادر بيروت بدون تاريخ .

ـ ابن عبد ربه . العقد الفريد . القاهرة . لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ ـ ١٩٤٦ .

ـ ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق . دمشق ـ ١٨٨٨ .

ـ أبو العباس القلقشندى ، ضوء الصبح السفر وجنى الدوح المثمر جزئين ـ القاهرة ١٩٠٦ .

ـ أبو العباس القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ـ ١٤ جزء القاهرة ١٩١٢ ـ ١٩٢٩

ـ ابن الصيرفى ، قانون ديوان الرسائل ، نشره على بهجت . القاهرة ـ ١٩٠٥ .

ـ أحمد عبد الرازق . شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك . القاهرة . ١٩٨٣

ـ أحمد عبد السلام ناصف . الشرطة فى مصر الإسلامية . القاهرة . ١٩٨٧

ـ أحمد عبد الرازق أحمد ـ الرنوك على عصر سلاطين المماليك .

مستخرج من المجلة التاريخية المصرية القاهرة ١٩٧٤ .

ـ أحمد عبد العزيز سالم . تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى . القاهرة . ١٩٦٩ .

ـ البلوى . سيرة أحمد بن طولون . تحقيق محمد كرد على . دمشق . ١٩٣٩ .

ـ تقى الدين المقريزى ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الشيال . ٣ اجزاء ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

ـ تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . جزئين ـ القاهرة ـ طبعة بولاق ١٨٥٣ .

ـ تقى الدين المقريزى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، تحقيق مصطفى زيادة ـ القاهرة ـ ١٩٣٤ .

ـ الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . بيروت . دار الجيل . بدون . تاريخ .

ـ حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ٤ أجزاء ـ القاهرة ـ ط ١٠ ـ ١٩٨٢ .

ـ حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٩٨١ .
ـ حسن عبد الوهاب . البوليس في العصر الإسلامي . القاهرة ١٩٥٠
ـ حسن عثمان ، تاريخ مصر في العصر العثماني ، في : مجمل التاريخ المصري لحسن إبراهيم حسن ـ القاهرة ـ ١٩٤٢ .
ـ د . حسين مؤنس ـ تاريخ مصر من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميين ، في تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، وزارة الثقافة .
ـ سعيد عاشور ـ العصر المماليكي في مصر والشام ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .
ـ سيدة إسماعيل كاشف . مصر في عهد الإخشيديين القاهرة . ١٩٥٠ .
ـ سيدة كاشف وحسن محمود . مصر في عصر الطولونيين والإخشيد . القاهرة ١٩٥٢ .
ـ سيدة إسماعيل كاشف . أحمد بن طولون . القاهرة ١٩٦٥ .
ـ سيدة إسماعيل كاشف . مصر في فجر الإسلام . القاهرة . ١٩٧٠
ـ السيوطي . تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٨٨١ .
ـ السيوطي حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . جـ ٢ . القاهرة . ١٩٢٧ .
ـ عبد اللطيف حمزة . الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول . القاهرة . ١٩٦٨ .
ـ عبد المنعم ماجد نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . القاهرة . ١٩٥٣
ـ عبد المنعم ماجد (ترجمة) . جدول السنين الهجرية بما يوافقها من السنين الميلادية للمستشرق وستفيلد . القاهرة . ١٩٨٠ .
ـ عبد المنعم ماجد . نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر . القاهرة .
ـ عطية مصطفى مشرفة ـ نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
ـ على إبراهيم حسن ، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . القاهرة ـ ط ٥ ـ ١٩٦٤ .
ـ على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٧٦ .
ـ على بيومي ـ الأيوبيون في مصر ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ .
ـ عراقي يوسف أحمد . الوجود العثماني المملوكي في مصر . القاهرة . ١٩٨٥ .
ـ عطية مشرفة . نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين . القاهرة . بدون تاريخ .
ـ على إبراهيم حسن . مصر في العصور الوسطى والفتح العربي إلى الفتح العثماني . القاهرة . ١٩٦٤ .
ـ على بيومي . قيام الدولة الأيوبية في مصر . القاهرة . ١٩٥٢ .

ـ القلقشندى (انظر أبو العباس القلقشندى)
ـ الكندى . ولاة مصر . تحقيق حسين نصار . بدون تاريخ . دار صادر بيروت .
ـ محمد بن يوسف الكندى ، ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار . بيروت ـ بدون تاريخ .
ـ محمد جمال السيد سرور . الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره . القاهرة ١٩٣٨ .
ـ المقريزى (انظر تقى الدين المقريزى)

(هـ) مصادر العصر الحديث :

باللغات الأجنبية :

-ABDEL MALEK (A)- Egypte société militaire, Paris, 1962-
Idéologie et renaissance nationale, L'Egypte moderne, Paris, 1969-
-ACHKAR Joseph Le Khédivat d'Egypte, Montpellier . 1912-
-AHNAD (G.M.) The intellectual origins of Egyptian nationalism, London 1960-
-Association Egyptienne de Paris, Documents diplomatiques concernant l'Egypte de Mehemet Ali jusqu'en 192 Paris, Le Roux, 1920-
-EL-BELTAGUI Mamdouh, L'Indépendance nationale égyptienne, Thèse, Paris, 1975-
-BERGER (M) Military elite and social change - Egypt since Napoléon, Princeton, 1960-
-BERQUE (J) L'Egypte, impérialisme et révolution, Paris, 1965-
-CATTAOUI-BEY (R) Le règne de Mohamed Ali d'après les archives Russes en Egypte - 4 vol. Le Caire, 1931
-CHARLES-ROUX (F) et DEHERAIN (H) L'Egypte de 1801 à 1882 (T.VI, Histoire de la nation égyptienne de Hano-taux), 1936-
-COLOMBE (M) L'évolution de l'Egypte, 1925-1950, Paris, 1951 -DOUIN (G) Histoire du règne du Khédive Ismail, 3 vol., Rome, 1933-1938-
-DUCELIER (A) KAPLAN (A) MARTIN (B) Le Proche-orient Musulman, Paris, 1978 -
-FLORY Maurice et MANTRAN (R) Les régimes politiques dans les pays Arabes. Paris, 1968-
-AL-HASHIMI Tarek Le régime politique de la République Arabe Unie, Thèse, Paris, 1964-

-HOLT (P.M.) Political and social change in modern Egypt, London, 1968 voir également Epoque Arabe et Ottomane-

-(EL)KENDY (M.B.Y.) voir Epoque Arabe et Ottomane

-LACOUTURE (J et S) L'Egypte en mouvement, Paris, 1962

-LANDAU Jacob M., Parliaments and parties in Egypt, I Tel Aviv, 1953-

-LUTFII EL SAYED (AFAF) - A short History of Modern Egypt. C.U.P. London - 1990.

-MANSOUR Albert Essai sur l'évolution du régime nassérien, Mémoire, Université de Paris, 1962-

-MIREL Pierre Recherches sur le système politique égyptien, 1967-1977, Thèse, Poitiers, 1980 -MILLER-DAVIS (H) Constitutions, electoral laws, treaties of states in near and middle east. Durkham University Press, 1947

-PAK Hyop L'éclatement de la République Arabe Unie et ses répercussions sur les institutions et la vie politique égyptienne, Paris, 1963 -

-ROUCHDY M.Seifallah, L'Hérédité du Trône en Egypte contemporaine, Thèse, Paris, 1943-

-TOMICHE (N) L'Egypte moderne, Paris, 1966-

-VATIOKIS P.J. The modern history of Egypt,1969-

-VAUCHIER (G) Gamal Abdel Nasser et son équipe,paris, 1960.

باللغة العربية :

ـ أنور السادات ـ ثورة على النيل ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ .

ـ أنور السادات ـ البحث عن الذات ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ .

ـ جمال عبد الناصر ـ فلسفة الثورة ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ .

ـ حسن درويش ، الوزارات المصرية في ظل حكم الأسرة العلوية . القاهرة ـ ١٩٢٤ .

ـ صالح رمضان ، الحياة الاجتماعية في مصر في عهد إسماعيل . الإسكندرية ١٩٧٧

ـ عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي . القاهرة ـ ط ٤ ـ ١٩٨٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعي ، عصر إسماعيل . جزئين ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٨٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعي . مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال . القاهرة . ١٩٤٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعي . في أعقاب الثورة المصرية . ٣ أجزاء ـ القاهرة . ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ .

ـ عبد الرحمن الرافعي . تاريخ الحركة القوية وتطور الحكم في مصر . القاهرة . ١٩٦٣
ـ عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة الوطنية وتطور النظام السياسي في مصر . جزئين ـ القاهرة ـ ط ٥ ـ ١٩٨١ .
ـ عبد الوهاب بكر . البوليس المصري (١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) . رسالة ماجستير آداب عين شمس . ١٩٧٧ .
ـ محمد حسين هيكل ، مذكرات في السياسة المصرية ـ جزئين ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ .
ـ محمد نجيب ـ كنت رئيسا لمصر ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .
ـ الدكتور ميلاد حنا ـ الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ـ دار الهلال ـ ١٩٩٠ .
ـ نبيل زكي ـ نوبار في مصر ـ كتاب اليوم المؤسسة الأخبار) ـ القاهرة .
ـ يونان لبيب رزق ، تاريخ الوزارات المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٥

ثانياً : المقالات العلمية والدوريات والنشرات :

باللغة الأجنبية :

-ALDRED (C) The beginning of the Amarna period - Journal of Egyptian archaeology, 45 (1959) pp.19-33-

-AMELINEAU (E) La conquête de l'Egypte par les Arabes, -(Revue historique, CXX, 1915, p.17 et ss.)

-AWAD (L) L'Egypte face à son passé in Le miroir égyptien, rencontres méditerranéennes de Provence, 17-19 janvier 1983 - L'imaginaire créateur d'histoire, L'Egypte de Pharaon au saint-simonisme, Marseille, 1984, pp.271-280

-CANARD (M), Le cérémonial Fatimide et le cérémonial Byzantin, Byzantion, 1952

- CANARD (M), L'impérialisme des Fatimides et leur propagande Annales Institut d'Etudes orientales d'Alger, 1942-1947-

-CONAC Gérard, Les institutions politiques de la République Arabe Unie, Bulletin de la Société de législation comparee, N° 3, 1958-

-DAVIES (N. de G.) The tomb of Reck-mi-Ré at Thèbes, Journal of Egyptian archaeology, 31, (1945) p.114-115

-DERCHAIN (Ph) La visite de Vespasien au Sérapeum . d'Alexandrie, Chronique d'Egypte, 56, 1953, pp.261-279-

The installation of the Vizier, Journal of Egyptian Archaeology, 41 (1955.. 18-29-

-GOTERMAN (C) Médecins de Cour dans l'Egypte du IIIè s. avant J.C., Chronique d'Egypte, XXXII, (1957) pp.313-336-
-JARGY Simon La Syrie, province de la République Arabe Unie, Dans Revue Orient n° 8 Décembre 1958 p.17
-JOUGUET (P) Documents ptolémaiques, Bulletin de correspondance h llénique, 21 (1897) pp. 147 et ss.
-MICHEL (B) L'organisation financière de l'Egypte sous les Sultans Mamelouks d'après Qalqachandi, Bull. Inst. d'Egypte, VII, 1925, pp;127-147
-MORET (A) Le Kà des Egyptiens et-il un ancien totem, Rev. hist. des religions, LXVII (1913) pp.181-191-
-PREAUX (C) Esquisse d'une histoire des révolutions égyptiennes sous les Lagides, Chronique d'Egypte, II (1936) pp.522-552
-RACHED (H.I.) Les blasons en Egypte à l'époque médiévale, (Egypt travel magazine, 52, décembre 1958)-
-REMONDON (R) soldats de Byzance d'après un Papyrus trouvé à Edfou, Recherches de papyrologie, fasc. 1. Paris, 1961-
-VANDERSLEYEN (C) - Chronologie des Préfets d'Egypte, de 284 à 395, in Latomus, LV, 1962-

باللغة العربية :

ـ إبراهيم الفحام . الشرطة فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين . فى مجلة الأمن العام . العدد ١١ .
ـ إبراهيم الفحام . الشرطة فى العصر العباسي . فى مجلة الأمن العام . . العدد ١٢ .
ـ إبراهيم الفحام . تاريخ الشرطة من الدولة الطولونية إلى الدولة الأيوبية . فى مجلة الأمن العام . العدد ١٤ .
ـ بهاء الدين إبراهيم . أجهزة الشرطة واختصاصاتها فى مصر القديمة . مجلة الأمن العام . العدد ٦٨ .
ـ جمال السيد الرمادى . سلطة البوليس فى العصور الإسلامية . مجلة الأمن العام . العدد ٤ .
ـ كمال الملاخ . الشرطة عند الفراعنة . مجلة الأمن العام . العدد ٨ سنة ١٩٦٠ .

الفهـــرس

الصفحة

المقدمـــة ٥

الباب الأول : التاريخ المصرى القديم ١٥

الفصل الأول : العهد القديم «العصر الثينى أو الطينى» ١٨

الفصل الثانى : عصر الدولة القديمة ٢٠

الفصل الثالث : فترة الاضمحلال الأولى أو العصر الوسيط الأول ٢٧

الفصل الرابع : عهد الدولة الوسطى ٢٩

الفصل الخامس : عصر الاضمحلال الثانى أو العصر الوسيط الثانى ٣٤

الفصل السادس : عهد الدولة الحديثة أو عصر الإمبراطورية ٣٧

الفصل السابع : العصر المتأخر أو عصر الاضمحلال الأخير ٤٤

الفصل الثامن : خاتمة العهد المصرى القديم ٥١

الباب الثانى : الإسكندر والبطالمة ٥٧

الفصل الأول : الإسكندر الأكبر فى مصر ٥٨

الفصل الثانى : أسرة البطالمة ٦٠

الفصل الثالث : مؤسسات الحكم البطلمية ٦٧

الباب الثالث : الرومان فى مصر ٧٣

الفصل الأول : مصر ولاية رومانية ٧٥

الفصل الثانى : نظام الحكم والإدارة لدى الرومان ٨٠

الباب الرابع : البيزنطيون ٨٧

الفصل الأول : مصر فى العهد البيزنطى ٨٩

الفصل الثانى : تطور النظم الإدارية ٩١

الباب الخامس : مصر ولاية إسلامية عربية ٩٥

الباب السادس : الأسرة الطولونية ٩٩

الفصل الأول : ابن طولون وأولاده ١٠٠

الفصل الثانى : تأسيس دولة مستقلة ١٠٣

الباب السابع : الأسرة الإخشيدية ١٠٩

الفصل الأول : الإخشيد ١١١

الفصل الثانى : المؤسسات الإخشيدية ١١٤

الباب الثامن : الأسرة الفاطمية ١١٩
الفصل الأول : أصل الفاطميين ١٢١
الفصل الثانى : الفاطميون فى مصر ١٢٥
الفصل الثالث : النظم السياسية والإدارية ١٣٢
الباب التاسع : الأسرة الأيوبية ١٤١
الفصل الأول : انهيار الأسرة الفاطمية ١٤٢
الفصل الثانى : تأسيس حكم الأسرة الأيوبية ١٤٦
الفصل الثالث : مؤسسات الأيوبيين ونظمهم ١٤٩
الباب العاشر : أسرتا المماليك ١٥٣
الفصل الأول : نشأة المماليك فى مصر والعالم العربى ١٥٤
الفصل الثانى : قيام دولة المماليك البحرية فى مصر ١٥٧
الفصل الثالث : إسباغ الشرعية على الحكم ١٦٠
الفصل الرابع : إحياء الخلافة العباسية فى مصر ١٦٢
الفصل الخامس : البحرية والجركسية أو البرجية ١٦٥
الفصل السادس : المؤسسات السياسية والنظم الإدارية لدى المماليك ١٧١
الباب الحادى عشر : الأسرة العثمانية ١٨٥
الفصل الأول : العلاقات العثمانية المصرية ١٨٧
الفصل الثانى : الحكم العثمانى لمصر ١٩٠
الفصل الثالث : التركيب الاجتماعى للطبقات ١٩٤
الفصل الرابع : أجهزة الحكم ١٩٨
الفصل الخامس : حملة نابليون بونابرت ٢٠٧
الباب الثانى عشر : أسرة محمد على ٢١٥
الفصل الأول : من محمد على إلى فاروق ٢١٧
الفصل الثانى : النظم والمؤسسات المستحدثة ٢٤٠
المبحث الأول : من محمد على إلى سعيد ٢٤٢
المبحث الثانى : من اسماعيل حتى قيام ثورة ١٩١٩ .... ٢٤٨
المبحث الثالث : بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ .... ٢٥٣
الباب الثالث : أسرة الجمهورية ٢٥٧
الفصل الأول : من الملكية إلى الجمهورية ٢٥٨
الفصل الثانى : أجهزة الحكم بعد الثورة ٢٦٩
الخاتمة : ٢٧٣
المراجع : ٢٧٥

رقم الإيداع ٢٠٥٧ / ٩٤
I .S. B. N 977 - 09 - 0126 - 1

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

المجمل في تاريخ مصر

☐ كان تاريخ مصر الطويل وسوف يظل دائما يشد الدارسين والباحثين والمفكرين رغم كثرة ما كتب العلماء من شتى أنحاء العالم ومن مختلف الجنسيات. عن هذا التاريخ بمختلف اللغات.

☐ والمكتبة العربية غنية بما كُتب عن مصر في مختلف عصورها، ولكنها رغم ذلك لاتضم كتابا واحدا يضم بين دفتيه التاريخ المصرى مجملاً منذ توحيد مصر على يد «مينا» موحد القطرين إلى يومنا هذا. ومن هنا نبتت فكرة هذا الكتاب ليخدم القارئ الذى يود الاطلاع على تاريخ البلاد جملة واحدة دون اللجوء إلى الكتب المتخصصة فى كل حقبة تاريخية.

☐ وفى هذا الكتاب يتعرض المؤلف للتاريخ العام لكل حقبة بلمحة تاريخية تضم أهم الأحداث المؤثرة عليها ثم أتبعها بدراسة عن النظم السياسية والادارية الوثيقة الصلة بالعرض التاريخى مع عرض تلك الأحداث فى تسلسل غير مخل بالمضمون.

دار الشروق ©
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
[illegible] ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)